سلسلة البيان-25
بإشراف أ. د. علي جمعة

التعايش مع الآخر في ضوء السيرة النبوية

الأسس والمقاصد



تأليف
فضيلة الأستاذ الدكتور
علي جمعة
عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

بروج
BURUJ BOOKS

التعايُش مع الآخَر

في ضوء السيرة النبوية

الأسس والمقاصد

BURUJ BOOKS

التعايش مع الآخر

في ضوء السيرة النبوية

الأسس والمقاصد

الطبعة الأولى

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع

2017/28554

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-6631-84-7

رقم النشر

195

شركة بروج للأدوات المكتبية والمدرسية

القاهرة 2018م

Tel.: 002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@burujbooks.com

www.burujbooks.com

التعايُش مع الآخَر

في ضوء السيرة النبوية

الأسس والمقاصد

تأليف

أ. د. علي جمعة محمد

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

فهرس

المقدمة ٧

تمهيد ٩

أهمية التعايش والتعارف بين الناس جميعًا ١٣

النموذج الأول: مكة ١٤

أ. قبل البعثة ١٥

ب. بعد البعثة ٢١

النموذج الثاني: مجتمع الحبشة ٣٢

علاقة النبي ﷺ بالنجاشي ٤٢

مسألة: اشتراك المسلمين مع النَّجَاشِيِّ في حربه مع عدوه ٤٧

النموذج الثالث: المدينة في المرحلة الأولى ٥٢

أولًا: بدأ رسول اللَّه ببناء المؤسسات ٥٥

ثانيًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ٥٦

ثالثًا: توقيع الوثيقة وموادعة اليهود ٥٩

رابعًا: معاملة المنافقين في المدينة ٨٣

خامسًا: المشركون في المدينة. ٨٦

النموذج الرابع: المدينة في عهدها الأخير ٨٨

١- اليهود في المدينة في عهدها الأخير ٩٠

٢- جماعات المنافقين والمرتدين في المدينة في عهدها الأخير ٩٧

٣- سياسة رسول اللَّه ﷺ في التعايش مع الآخر خارج المدينة ١٠٢

أ. سياسته ﷺ مع المشركين المحاربين من قريش بعد الخندق ١٠٢

ب. سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة ١١٨

جـ. سياسته ﷺ في مقابلة الوفود العربية بعد الحديبية ١٢٠

د. سياسته ﷺ في إرسال الرسائل الدعويَّة إلى العالمين ١٥١

هـ. سياسته ﷺ في تجنب الحروب وسرعة إنهائها ١٥٩

نتائج الدراسة ١٦٧
١ – اللحظة اللطيفة ١٧٨
٢– نظرية ذهاب المحل ١٨٠
٣– نظرية تفريق الأحكام ١٨٢
٤– نظرية واجب الوقت واحترام التراث من خلالها ١٨٦
الخاتمة ١٨٩
الملاحق ١٩٢
رسالة الإمام علي ﷺ إلى الأشتر النخعي ١٩٣
خطبة الوداع ٢٠٦
خطبة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ عند توليه الخلافة ٢٠٩
خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ عند توليه الخلافة ٢١٢
خطبة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عند توليه الخلافة ٢١٤
خطبة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ عند توليه الخلافة ٢١٧
المصادر ٢١٩

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن التعايش بين بني الإنسان ضرورة للاجتماع البشري، وهذا التعايش يستلزم قبول الآخر والإقرار له بحقوقه والالتزام بالواجبات نحوه.

وقد حثت الشريعة الإسلامية على احترام الآخر والإقرار بالتعددية في المجتمع الإسلامي الفاضل وخارجه، وهي ضرورة ما أتاحه الله للإنسان من حرية اختيار بين الإيمان وضده، والمسؤولية الفردية التي تجعل الإنسان يتحمل مغبة فعله في الدنيا ويوم الحساب أمام الخالق سبحانه، فلا يسأل أحد عن أخيه وأمه وأبيه فضلًا عمن لا تربطه به علاقة.

ولأهمية موضوع التعايش مع الآخر كحلقة في الرد على أصحاب الفكر الأُحادي الذين يصطدمون بالخلق، وينشرون الإرهاب بدعوى التدين والدعوة إلى الإسلام، ارتأينا إعادة نشر تلك النماذج في "سلسلة البيان" حتى تُبَصِّر الخلقَ بجمال الشريعة وحسنها، وتُيَسِّر عليهم العيش بمنهج الله في أرضه، وما حرص عليه النبي صلى الله عليه وسلم من إرساء نماذج للتعايش استنبطناها من سيرته العطرة، تلك النماذج تمكن المسلم من حياة اجتماعية فاضلة متكيفًا مع الواقع المتغير والسياسات المختلفة والأنظمة المتعددة، فلا يكون المسلم أبدًا نشازًا أو خارجًا أو نافرًا، بل يكون إلفًا يألف الناس ويألفونه،

ويندمج مع الكون من حوله وينسجم، فيحرص على التعاون على البِر والتقوى والاتحاد من أجل المصالح المشتركة.

وقد كنا نشرناه من قبل تحت عنوان "**النماذج الأربعة**"، واليوم نقدمه مع بعض الإضافات تحت عنوان جديد أوقع في النفس وأبين للغرض في الرد وهو "**التعايش مع الآخر**".

فنرجو الله عز وجل أن ينفع به ويكون حلقة في الرد على المتطرفين الذين أفسدوا الدين والدنيا معًا.

أ. د. علي جمعة

١٥ يناير/كانون الثاني ٢٠١٨م

تمهيد

إن سيدنا رسول الله ﷺ هو القدوة الطيبة والأسوة الحسنة التي يجب على المسلمين جميعًا احتذاؤها والاهتداء بها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُم فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٢١/٣٣).

ولقد أرسى لنا رسول الله ﷺ قواعد وأسسًا للتعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن، ووضع وأصحابه أساس الحضارة الإسلامية التي يعيش بفضلها المسلمون في تواصل واندماج وتعارف وتفاعل مع كل من اختلف معهم دون تفريط في هويتهم ولا في الثوابت الإسلامية.

وباستعراض سيرة النَّبِيّ ﷺ وسنته أمكن استنباط أربع صور أو نماذج متكاملة للتعايش مع الآخر، وهي عبارة عن نماذج ترسم خطة سويَّة للسلوك الاجتماعي والسياسي والدبلوماسي والاقتصادي لمعاملة المخالفين في الدين، في حال السلم وحال الحرب، وفي حال العدل وحال العدوان، وفي حال الرحمة وحال الطغيان.

وهذه النماذج هي:

الأول: نموذج مكة

حيث المسلمون قلة في بيئة معادية، والمقام فيها مقام الصبر والتحمل، وحسن المعاملة، والدعوة إلى الإسلام.

والثاني: نموذج الحبشة

حيث المسلمون قلة في بيئة عادلة منصفة، والمقام فيها مقام الاندماج والوفاء والمشاركة.

والثالث: نموذج المدينة في عهدها الأول

حيث المسلمون أكثرية يعيشون في مجتمع تشاركهم فيه أقليات مختلفة ومتنوعة من حيث الدين والعرق وغير ذلك، ينتظم الجميع تحت حكومة مسلمة، والمقام فيه مقام المساواة والإخاء والتعاون والمواطنة للجميع.

والرابع: نموذج المدينة في عهدها الأخير

حيث اختفت الأقليات من المجتمع المسلم، واقتصر الأمر على أفراد غير مسلمين يعيشون في الدولة المسلمة التي تخضع للنظام الإسلامي، وقد استتب لهذه الدولة سلطانها، وتغلبت على القوى المناوئة لنشأتها ونهضتها، والمقام فيها مقام العدل والانفتاح والحوار.

وهذه النماذج الأربعة هي صور جامعة لا يخرج بقاء المسلم في مجتمعه -تقريبًا- عنها، وهي تهدي المسلم ليتعايش مع كافة الأنظمة والأديان والحضارات، ولكن يجب علينا الإحاطة بتفاصيل تلك النماذج ودقائقها حتى نتمكن من الاستفادة منها وإحسان تطبيقها في واقعنا ومستقبلنا.

وقبل البدء في عرض النماذج الأربعة يجب التنبيه إلى خطأ وقع فيه بعض الفقهاء، إذ نظروا إلى هذه النماذج على أن بعضها أو الأخير منها قد نسخ المتقدم عليه، وهذا غير صحيح، لأن أحوال المسلم فردًا وأحوال المسلمين مجتمعًا تتغير وتتبدل، ولا يحرم المسلم من الاستفادة والاستهداء بهدي تلك النماذج في حياته ومعيشته متمسكًا بدينه محافظًا على شعائره ممارسًا لدعوته وفاعليته بدعوى النسخ المتوهم، الذي لا يدعمه دليل،

فكما قلنا من قبل إن المولى ﷻ أرسل محمدًا ﷺ قدوة لنا نهتدي به في جميع أحواله وأفعاله ومقاماته التي أقامه فيها ربُّه ﷻ.

ويجب التنبيه أيضًا على الحذر في إسقاط أحكام نموذج ما على حال أو مقام لا يتطابق مع هذا النموذج، وهذا الباب هو الذي ضل فيه أو بسببه كثير من الجماعات المتطرفة التي سلكت طريق الإرهاب والعنف مع كل مخالف لها تحت مسمى الجهاد.

فإنهم ضلّوا عن حقيقة الجهاد في الإسلام ولم يفهموا المقصد فيه ومنه، فقصروا مفهوم الجهاد على القتال وجعلوا منه غاية في ذاته وإن حقَّق عكس ما قُصِد منه.

فهؤلاء الدواعش الذين أقاموا في بلاد الغرب أو بلاد الإسلام خرجوا على مجتمعاتهم يُكفِّرونهم ويعتدون عليهم، لا يفرقون بين بَرٍّ ولا فاجر؛ فجعلوا من الجهاد إرهابًا وعدوانًا، وأساؤوا إلى صورة الإسلام في أعين الناس في العالمين، مما صار حائلًا بين معرفتهم له، فضلًا عن اهتدائهم بهديه ودخولهم فيه، وغير ذلك من المقاصد الشرعية التي تفسدها المخالفة بين النموذج والواقع المناسب له، فضلًا عن سوء فهم النماذج الأربعة على حقيقتها.

ومن الحقائق التي يجب علينا إدراكها أيضًا أن هذه المقامات أصبحت أساسًا أصيلًا في تكوين شخصية المسلم، وامتدت إلى أعماقه حتى صار الصبر والتعايش والانفتاح والتعاون والوفاء والمشاركة والعدل والوعي بالشأن والزمان، والسعي على بصيرة؛ جزءًا لا يتجزأ من تلك الشخصية.

والنماذج الأربعة في التعايش مع الآخر فردًا كان أو دولة هي نماذج قائمة لا يعتريها إبطال أو تعطيل، والواقع وحال الناس هو الذي يحدد للمسلم في هدي أي نموذج يمكن أن يتواصل ويتعاون ويحقق السلام الاجتماعي والتعايش مع الآخر.

وإن الإسلام دعانا إلى التعايش السلمي مع الآخرين، والمسلمون منذ نشأت حضارتهم وهم يتبادلون مع الآخرين المصالح والأفكار والمنافع والعلاقات السياسية

والاقتصادية والاجتماعية، واستطاعوا بذلك نشر دينهم والدعوة إليه بالأمانة والصدق والعدل والسلام والمحبة والتواضع والتسامح وغير ذلك من القيم الأخلاقية، والدولة الإسلامية هي التي تؤسس لحرية الدين والعقيدة ويتساوى فيها المواطنون على اختلاف دينهم وأعراقهم وألوانهم.

أهمية التعايش والتعارف بين الناس جميعًا

تكمن أهمية التعايش وضرورته لحياة الإنسان في المجتمع أنها الوسيلة للأمن والاستقرار والتعاون؛ وبدونه يعيش الإنسان منعزلًا عن الكون؛ لأن الله قد خلقنا مختلفين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (سورة هُود: ١١/١١٨-١١٩).

وجعل الأصل في العلاقة بين أبناء العائلة الإنسانية هو التعارف؛ فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (سورة الحُجُرات: ٤٩/١٣).

ولكن حزب الكراهية من دعاة الخروج المعاصرين يدعون الناس إلى الانغلاق وعدم الانفتاح على العالم، وفي هذا حَجْرٌ على الدعوة الإسلامية وتجميد لدين الله ورسالته الخاتمة، والله تعالى إنما أنزل الدين ليظل حيًّا؛ لنحيا به ويُطبَّق بنا.

وفي مقابل هذا التطرف والتشدد نجد دعاة آخرين ينبذون الدين ويصدون عن سبيله وكأنه رجس، وينكرون أيّة أهمية له في حياة الناس ومعالجة مشكلاتهم.

وكلاهما صورة للانحراف والتطرف، ولذا فإننا ومن منطلق النموذج المعرفي الإسلامي الذي يمثل الرؤية الكلية للإسلام والكون والحياة ندعو إلى التعايش، ونُقدِّمه للناس جميعًا باعتباره قيمة مهمة فيها تحقيق مقصود الحق ومراعاة مصالح الخلق.

ونماذج التعايش الأربعة التي استنبطناها من سيرة النَّبيّ ﷺ هي سلمًا أو منهجًا يجب الاستفادة منه بحسب اختلاف الحال والزمان والمكان.

النموذج الأول

مكة

أ. قبل البعثة

كان سيدنا رسول الله ﷺ فردًا في مجتمع مكة يتحلَّى بالقيم الأخلاقية، ويعامل الناس جميعًا بالصدق والأمانة والرحمة والوفاء والشهامة، وقريش في عمومها كانت تحترم بعض القيم ولكنها لا تلتزم بها في الغالب، ويقدم كل منهم مصلحته على المبادئ والأخلاق.

فهل تصادم معهم رسول الله ﷺ أو هجرهم أو تعالى عليهم أو أعرض عن معاملتهم؟

كلَّا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَعَى الْغَنَمَ عَلَى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ[1] -والقراريط جمع قيراط وهو جزء من الدينار- أي عمل لهم وتقاضى أجره منهم.

وأجمعت القبائل على حكمة النَّبيّ ﷺ ونزاهة حكمه، وأمَّلت أنه بفطنته يمكنه أن يخرجها من شر مستطير وحرب مهلكة أوشكوا أن يقعوا فيها حينما تنازعوا شرف وضع الحجر الأسود في مكانه من بناء الكعبة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:

ثُمَّ إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ جَمَعَتِ الْحِجَارَةَ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تَجْمَعُ عَلَى حِدَةٍ؛ ثُمَّ بَنَوْهَا حَتَّى بَلَغَ الْبُنْيَانُ مَوْضِعَ الرُّكْنِ؛ فَاخْتَصَمُوا فِيهِ، كُلُّ قَبِيلَةٍ تُرِيدُ أَنْ تَرْفَعَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ دُونَ الأُخْرَى، حَتَّى تَحَاوَزُوا وَتَحَالَفُوا وَأَعَدُّوا لِلْقِتَالِ؛ فَقَرَّبَتْ بَنُو عَبْدِ الدَّارِ جَفْنَةً مَمْلُوءَةً دَمًا، ثُمَّ تَعَاقَدُوا هُم وَبَنُو عَدِيّ عَلَى الْمَوْتِ، فَسُمُّوا لَعَقَةَ الدَّمِ.

(١) صحيح البخاري، الإجازة، ٢.

فَمَكَثَتْ قُرَيْشٌ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعَ لَيَالٍ أَوْ خَمْسًا، ثُمَّ إِنَّهُمُ اجْتَمَعُوا فِي الْمَسْجِدِ وَتَشَاوَرُوا وَتَنَاصَفُوا، فقالوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ فِيمَا تَخْتَلِفُونَ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ مِنْ بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ يَقْضِي بَيْنَكُم فِيهِ.

فَفَعَلُوا، فَكَانَ أَوّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: هَذَا الأَمِينُ، رَضِينَا، هَذَا مُحَمَّدٌ.

فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ. قَالَ ﷺ: **"هَلُمّ إِلَيَّ ثَوْبًا"**.

فَأُتِيَ بِهِ، فَأَخَذَ الرُّكْنَ فَوَضَعَهُ فِيهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: **"لِتَأْخُذْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنَ الثَّوْبِ، ثُمَّ ارْفَعُوهُ جَمِيعًا"**.

فَفَعَلُوا حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ؛ وَضَعَهُ هُوَ بِيَدِهِ، ثُمَّ بَنَى عَلَيْهِ(٢).

وكانت قريش في الجاهلية يغلب على سكانها عبادة الأوثان وممارسة الرذيلة من بغاء وشرب خمر وارتكاب الفواحش، وكان القوي يطغى على الضعيف ويأكل حقه، وكان السيد يقهر مَنْ تحت يده من عبيد وإماء ولا يحترم إنسانيتهم، وكان العربي يتعالى على العجمي، وكان الأبيض يفخر على الأسود.

ويصف لنا حالهم جعفرُ بن أبي طالب حينما خطب أمام النَّجَاشِيّ فقال:

أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ تَعَالَى لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ(٣).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/١٩٧.
(٣) مسند الإمام أحمد، ٣/٢٦٦.

فكيف كانت حياة رسول الله ﷺ مع قومه في الجاهلية؟!

١- كانت نموذجًا للتعايش والتآلف والاندماج والتعاون، كان يؤدي دوره في المجتمع ويشارك في البِر والإحسان، ويعرض عن الظلم وينهى عنه.

وهذا ما أخبرت به أمُّ المؤمنين السيدةُ خديجة ﵂ حينما أتاها رسول الله ﷺ يخبرها بأمر نزول الوحي عليه، وقال ﷺ لها: "**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**".

قالت: "كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ"(٤).

تَحْمِلُ الْكَلَّ أي: تُنْفِقُ عَلَى الضَّعِيفِ وَالْيَتِيمِ.

٢- اشترك النَّبِيّ ﷺ مع قبائل من قريش في حلف الفضول، حيث تعاهدوا على نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف:

فقد تَدَاعَتْ قَبَائِلُ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى حِلْفٍ فَاجْتَمَعُوا لَهُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ؛ لِشَرَفِهِ وَسِنِّهِ، وَكَانَ حِلْفُهُم عِنْدَهُ: بَنُو هَاشِمٍ، وَبَنُو الْمُطّلِبِ، وَأَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى، وَزُهْرَةُ بْنُ كِلَابٍ، وَتَيْمُ بْنُ مُرَّةَ، فَتَعَاقَدُوا وَتَعَاهَدُوا عَلَى أَنْ لَا يَجِدُوا بِمَكّةَ مَظْلُومًا دَخَلَهَا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ إِلَّا قَامُوا مَعَهُ، وَكَانُوا عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، حَتّى تُرَدَّ عَلَيْهِ مَظْلَمَتُهُ. فَسَمَّتْ قُرَيْشٌ ذَلِكَ الْحِلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ.

وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عن هذا الحلف بعد بعثته وهجرته إلى المدينة: "**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ**"(٥).

وتبعًا لهذا الحلف الذي تمسك به النَّبِيّ ﷺ أيّما تمسك، وكان يعمل بمقتضاه حتى بعدما عَادَتْهُ قريشٌ وضيّقت عليه هو وأصحابه.

(٤) صحيح البخاري، التفسير، ٩٦؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٢٥٢.
(٥) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/١٣٣.

بينا رسول اللهِ ﷺ جالس في المسجد عند الكعبة إذ رجل من زبيد يطوف على حِلَقِ قريش حلقةً بعد أخرى، وهو يقول:

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، كَيْفَ تَدْخُلُ عَلَيْكُمُ الْمَارَّةُ، أَوْ يُجْلَبُ إِلَيْكُم جلَبٌ، أَوْ يَحِلُّ بِسَاحَتِكُمْ تَاجِرٌ، وَأَنْتُم تَظْلِمُونَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْكُم فِي حَرَمِكُم، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ، فقال له ﷺ: "**وَمَنْ ظَلَمَكَ؟**".

فَذَكَرَ أَنَّهُ قَدِمَ بِثَلاثَةِ أَجْمَالٍ، كَانَتْ خِيرَةَ إِبِلِهِ، فَسَامَهُ بِهَا أَبُو جَهْلٍ ثُلُثَ أَثْمَانِهَا، ثُمَّ لَم يَسُمْهُ بِهَا لأَجَلِهِ سَائِمٌ، فَأَكْسَدَ عَلَيَّ سِلْعَتِي وَظَلَمَنِي.

فقَالَ لَه رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**وَأَينَ جِمَالُكَ؟**".

قَالَ: هَذِهِ هِيَ بِالْحَزْوَرَةِ .

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ وَقَامَ أَصْحَابُهُ، فَنَظَرُوا إِلَى الْجِمَالِ فَرَأَى جِمَالًا حِسَانًا، فَسَاوَمَ ذَلكَ الرَّجُلَ حَتَّى أَلْحَقَهُ بِرِضَاهُ، وَأَخَذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَاعَ جَمَلَيْنِ مِنْهَا بِالثَّمَنِ، وَأَفْضَلَ بَعِيرًا بَاعَهُ وَأَعْطَى أَرَامِلَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثَمَنَهُ.

وكلُّ ذلك وَأَبُو جَهْلٍ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ السُّوقِ ولم يَتَكَلَّم.

ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَه: "**إِيَّاكَ يَا عَمْرُو، أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِ مَا صَنَعْتَ بِهَذَا الأَعْرَابِيِّ فَتَرَى مِنِّي مَا تَكْرَهُ**".

فَجَعَلَ يَقُولُ: لا أَعُودُ يَا مُحَمَّدُ، لا أَعُودُ يَا مُحَمَّدُ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي جَهْلٍ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ، وَمَنْ مَعه مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالُوا له: ذُلِلْتَ فِي يَدَيْ مُحَمَّدٍ، فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَنْ تَتَّبِعَهُ، وَإِمَّا رُعْبٌ دَخَلَكَ مِنْهُ.

فَقَالَ لهم: لا أَتَّبِعُهُ أَبَدًا، إِنَّ الَّذِي رَأَيْتُم مِنِّي لِمَا رَأَيْتُه، رَأَيْتُ معه رِجَالًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، مَعَهُم رِمَاحٌ يَشْرَعُونَهَا إِلَيَّ، لَوْ خَالَفْتُهُ لَكَانَتْ إِيَّاهَا، أَيْ :أَتَوْا عَلَى نَفْسِي(٦).

(٦) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ١/١٣٢.

وروي نظير ذلك:

أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له الإِرَاشي -بَطْنٌ من خثعم- أجمالًا، فمطله بأثمانها، فدلَّتْهُ قريش على النَّبِيّ ﷺ لينصفه من أبي جهل؛ استهزاء برسول اللهِ ﷺ، لعلمهم بأنه لا قدرة له على أبي جهل، وذلك بعد أن وقف على ناديهم فقال:

يا معشر قريش مَن رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام؟ فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني على حقي.

فقالوا له: أترى ذلك الرجل؟ يعنون رسول اللهِ ﷺ، اذهب إليه فهو يعينك عليه.

فجاء إلى رسول اللهِ ﷺ فذكر له حاله مع أبي جهل ثُمَّ قال: خذ حقي منه يرحمك الله. فخرج النَّبِيّ ﷺ مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه.

فقال: من هذا؟

قال ﷺ: "مُحَمَّدٌ".

فخرج إليه وقد انتقع لونه -أي: تغير وصار كلون النقع الذي هو التراب-.

فقال له: "أَعْطِ هَذَا حَقَّهُ".

قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له.

فدفعه إليه، ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال:

جزاه الله خيرًا. يعني النَّبِيّ ﷺ، فقد والله أخذ لي بحقي(٧).

٣- ساعد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب قبل البعثة بأن أخذ سيدنا عليًّا ليربيه له:

وَكَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

وَمِمّا صَنَعَ اللهُ لَهُ وَأَرَادَهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ أَنّ قُرَيْشًا أَصَابَتْهُم أَزْمَةٌ شَدِيدَةٌ، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ ذَا عِيَالٍ كَثِيرٍ.

(٧) نور الدين الحلبي: **السيرة الحلبية**، ١/٤٤٦.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلْعَبّاسِ عَمِّهِ وَكَانَ مِنْ أَيْسَرِ بَنِي هَاشِمٍ: "يَا عَبّاسُ إنّ أَخَاكَ أَبَا طَالِبٍ كَثِيرُ الْعِيَالِ، وَقَدْ أَصَابَ النّاسَ مَا تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَزْمَةِ، فَانْطَلِقْ بِنَا إلَيْهِ فَلْنُخَفّفْ عَنْهُ مِنْ عِيَالِهِ، آخُذُ مِنْ بَنِيهِ رَجُلًا، وَتَأْخُذُ أَنْتَ رَجُلًا؛ فَنَكِلُهُمَا عَنْهُ".

فَقَالَ الْعَبّاسُ: نَعَم.

فَانْطَلَقَا حَتّى أَتَيَا أَبَا طَالِبٍ فقَالَا لَهُ:

إنّا نُرِيدُ أَنْ نُخَفّفَ عَنْك مِنْ عِيَالِك؛ حَتّى يَنْكَشِفَ عَنِ النّاسِ مَا هُم فِيهِ.

فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيًّا، فَضَمّهُ إلَيْهِ، وَأَخَذَ الْعَبّاسُ جَعْفَرًا[٨].

(٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٢٤٥.

ب. بعد البعثة

١ – لم يعتزل رسول اللّه ﷺ قومه، ولم يهجر الكعبة بيت اللّه الحرام رغم ما كانت تظهره قريش فيها من مظاهر الوثنية، وظل رسول اللّه يرتاد الحرم ويتعبد للّه فيه، ويظهر لقومه شعائر الإسلام، ولم يلتفت رسول اللّه إلى الأصنام التي رُصَّت في الحرم يتمسح بها الناس ويعبدونها.

سئل ابْنُ عَمْرو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عن أَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فقَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**...﴾[٩] (سورة غافر: ٤٠/٢٨).

ودخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء هو وأصحابه، وكانت الأصنام منصوبة في الحرم ظاهرة.

وقد بشرهم الله تعالى بدخول مكة معتمرين، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَم تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٧).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّهُ يَقْدَمُ عَلَيْكُم وَفْدٌ وَهَنَهُم حُمَّى يَثْرِبَ. وَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ الثَّلاثَةَ، وَأَنْ يَمْشُوا مَا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، وَلَم يَمْنَعْهُ أَنْ يَأْمُرَهُم أَنْ يَرْمُلُوا الأَشْوَاطَ كُلَّهَا إِلَّا الإِبْقَاءُ عَلَيْهِم[١٠].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**رَحِمَ اللهُ امْرَأً أَرَاهُم الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً**"[١١].

---

(٩) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٢٩.

(١٠) صحيح البخاري، المغازي، ٤٤.

(١١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٣٧٠.

٢- الأمر بالصبر والنهي عن الصدام والتقاتل

فقد لقي أصحاب رسول الله ﷺ من صنوف العذاب ألوانًا على يد مشركي قريش، فكان أَمْرُ رسول الله لهم بالصبر وقوّة التحمل حتى يجعل الله لهم مخرجًا.

واشتكوا إليه يومًا فقالوا: ائذن لنا في قتالهم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: "**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ** -اصبروا- **فَإِنِّي لَمْ أُومَرْ بِقِتَالِهِمْ، وَاشْتَغِلُوا بِإِقَامَةِ دِينِكُمْ**"(١٢).

وقَالَ: "**إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا**"(١٣).

وعن خَبَّابِ بن الأرت ﷺ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً، وَهْوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً. فَقُلْتُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو اللهَ؟

فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ ﷺ:

"**لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُم لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ**"(١٤).

ومثال آل ياسر:

فقد أَخَذَ الْمُشْرِكُونَ عمار بن ياسر فَلَم يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُم بِخَيْرٍ، ثُمَّ تَرَكُوهُ.

فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**مَا وَرَاءَكَ؟**".

قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُم بِخَيْرٍ.

قَالَ ﷺ: "**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**".

(١٢) الرازي: مفاتيح الغيب، ١٤٣/١٠.

(١٣) سنن النسائي، الجهاد، ١؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٣٣٦/٢.

(١٤) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٢٩.

قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ.

قَالَ ﷺ: "إِنْ عَادُوا فَعُدْ"(١٥).

ونـزل في شـأنه قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْـدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِم غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النّحل: ١٦/١٠٦).

ومـن قبـل ذلـك صبرت أُمُّ عمارٍ السـيدةُ سـمية على عذاب المشـركين حتـى مرَّ بها أبو جهل فطلب منها سبَّ النَّبِيّ فرفضت، فطعنها في حيائها، فاستشهدت، فكانت أول شهيدة في الإسلام، واستشهد كذلك زوجها ياسر.

وكان رسـول الله ﷺ يمرُّ عليهم فيأمرهم بالصبر ويبشرهم بالجنة، ويقول لهم:

"صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّة"(١٦).

وظـلَّ رسـول الله ﷺ بعـد بعثتـه يعامـل قومه بمثل مـا كان يعاملهم به قبـل البعثة، ولكن قريشًا هي التي ناصبت رسول الله وأصحابه المؤمنين بدعوته العداء.

فمشـركو مكـة هـم الذيـن رفضـوا التعايـش مــع المؤمنيـن، وحاصروهـم فـي شـعب أبي طالب.

فلَمّا رَأَتْ قُرَيْشٌ أَنّ الْإِسْـلَامَ يَفْشُـو فِي الْقَبَائِلِ اجْتَمَعُوا وَائْتَمَرُوا بَيْنَهُم أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطّلِبِ، عَلَى أَنْ لا يُنْكِحُوا إِلَيْهِم وَلَا يُنْكَحُوهُم، وَلَا يَبِيعُوهُم شَيْئًا وَلَا يَبْتَاعُوا مِنْهُم، فَلَمّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ ثُمّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا عَلَى ذَلِكَ، ثُمّ عَلّقُوا الصّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ تَوْكِيدًا عَلَى أَنْفُسِهِم.

ثـم عَدَوا على من أسلم فأوثقوهم وآذوهم، واشتد البلاء على المؤمنين وعظمت الفتنة وزلزلوا زلزالًا شديدًا.

(١٥) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٢/٣٨٩.
(١٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٣٢٠.

وخـرج من بني هاشـم أبو لهب إلى قريـش، فظاهرهم، وتركت خديجة دارها وانتقلت مـع رسول الله ﷺ إلى شعب أبي طالب رغم تجاوزها الستين.

وظل المسـلمون محاصرين في شـعب أبي طالـب ثلاث سـنوات، حتى اشتد بهم البلاء وبلـغ منهـم الجهـد، فأكلـوا ورق الشـجر، وسُـمِـعَ صـراخ صبيانهـم يتضاغـون مـن وراء الشِّـعْبِ مـن الجـوع، حتـى كره عامـة قريش مـا أصابهم، وأظهـروا كراهيتهـم لصحيفتهم الظالمة[١٧].

٣- المقاومة السّلميَّة

تمثل ذلك في شـراء أبي بكر للعبيد الذين اضطهدتهم قريش وعذبتهم بسـبب دخولهم الإسلام.

فقـد كان أمية بـن خلف يُخْرِجُ بلالًا إذا حميـت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضـع على صدره، ثم يقول له:

لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

فيقول وهو في ذلك البلاء: أحد أحد.

وروى البـلاذري عـن عمـرو بـن العـاص قـال: مررت ببـلال وهو يعذب فـي الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى.

وأمية مغتاظ عليه؛ فيزيده عذابًا، فيقبل عليه فيضغط في حلقه فيغشى عليه ثم يفيق.

وروى ابـن سـعد عـن حسـان بـن ثابت ﷺ قـال: حججت فرأيت بلالًا فـي حبل طويل يمده الصبيان وهو يقول: أحد أحد أنا أكفر باللات والعزى وهبل ونائلة وبوانة.

فأضجعه أمية في الرمضاء، فمر به أبو بكر الصديق ﷺ يومًا، وهم يصنعون ذلك به.

(١٧) ابن كثير: السيرة النبوية، ٤٧/٢.

فقال لأمية بن خلف: أَلَا تَتّقِي اللهَ فِي هَذَا الْمِسْكِينِ؟ حَتّى مَتَى؟

قَالَ: أَنْتَ الّذِي أَفْسَدْته فَأَنْقِذْهُ مِمّا تَرَى.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: أَفْعَلُ، عِنْدِي غُلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ وَأَقْوَى، عَلَى دِينِك، أُعْطِيكَهُ بِهِ.

قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ.

فَقَالَ ﷺ: هُوَ لَك.

فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ﷺ غُلَامَهُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ بلالًا فَأَعْتَقَهُ(١٨).

وصورة أخرى للمقاومة السّلميَّة تمثلت في ظهور المؤمنين جماعة وخروجهم إلى الكعبة والطواف حولها.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: والله لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالكعبة أي عندها ظاهرين آمنين، حتى أَسْلَمَ عمر؛ فصلَّينا -أي وجهروا بالقراءة- وكانوا قبل ذلك لا يقرؤون إلَّا سرًّا.

عن صهيب ﷺ قال: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حِلَقًا. فَطُفْنَا وَاسْتَنْصَفْنَا ممن غلظ علينا(١٩).

وقيل لعمر ﷺ: ما سبب تسمية النبي ﷺ لك بالفاروق؟

قال: لما أسلمتُ والنبي ﷺ وأصحابه مختفون قلت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟

قال ﷺ: **"بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ عَلَى الْحَقّ إِنْ مُتُّمْ وَإِنْ حَيِيتُمْ"**.

فقلت: ففيمَ الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلَّا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذى بعثك بالحق لنخرجن.

(١٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤٧/١.

(١٩) نور الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ٤٧٢/١، السيوطي: الخصائص الكبرى، ٢٢٠/١.

فخرجنا في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد ككديد الطحين -أي لذلك الجمع غبار ثائر من الأرض لشدة وطء الأقدام؛ لأن الكديد التراب الناعم إذا وطئ ثار غباره- قال: حتى دخلنا المسجد.

فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها.

فطاف ﷺ بالبيت وصلّى الظهر معلنًا، ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم؛ فسماني رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، فرّق الله بي بين الحق والباطل(٢٠).

ومن صور المقاومة السّلميَّة الجهر بالدعوة

فقد اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فَمَن رجل يُسمِعهم؟

فقال عبد الله بن مسعود ﷺ: أنا.

فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلًا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه!

فقال ﷺ: دعوني فإن الله سيمنعني.

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام فقال رافعًا صوته:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (سورة الرحمن: ٥٥/١-٢).

فاستقبلها فقرأ بها؛ فتأملوا فجعلوا يقولون: هذا الذي خشينا عليك!

فقال: ما كان أعداء الله قط أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدًا.

قالوا: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون(٢١).

(٢٠) نور الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ١/٤٧٣.
(٢١) أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، ٢/٨٣٧.

وجاء أبو ذر الغفاري ﷺ من بلدته فدخل على النَّبِيّ ﷺ فسمع من قوله وعرض عليه الإسلام، فأسلم مكانه، فقال له النَّبِيّ ﷺ: "**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ، حَتَّى يَأْتِيكَ أَمْرِي**".

قال أبو ذر ﷺ: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم.

فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله.

فقام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكَبَّ عليه قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنها طريق تجارتكم إلى الشام؟!

فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا إليه، فأكب العباس عليه[٢٢].

والمسلمُ الذي يقيمُ في بلادٍ لا يدين أهلها بالإسلام، وهي ترفض الإسلام وتعادي أهله وتترصد لدعوته، ولا ينعم فيها بحرية ممارسة شعائر دينه أو التعبير عن عقيدته؛ يستفيد من هذا النموذج ما يلي:

أولًا: لا يُسارع بالفرار والهرب من هذه الديار، خاصة إن كانت وطنه وفيها أهله وأقاربه ونشأته، بل يصبر ويتحمل ويقاوم بشرف وسلميَّة، حتى يتمكن من إظهار القيم الأخلاقية والمثل العليا التي يؤمن بها، ويترك بين ظهرانيهم أثرًا طيبًا وذكرى حسنة، حتى وإن هجرهم بعد ذلك؛ فصورته الحقيقية في أذهانهم تكون هي مثال الشرف والأمانة والعفو والرحمة.

وهكذا كانت هجرة الأنبياء جميعًا تأتي بعد الصبر والدعوة والمثابرة وتحمل الأذى، فقد هاجر إبراهيم عليه السلام بعدما دعا قومه وأراهم الحجَّة وتحمل بطشهم به وأذاهم له، وكذا لوط عليه السلام الذي ضَيَّقَ عليه قومه حتى أنهم راودوه عن ضيفه ليفعلوا بهم الفاحشة، وكذا سيدنا محمد ﷺ صبر في قومه ثلاثة عشر عامًا حتى أحاطوا ببيته وعزموا على الفتك به؛ فخرج من بلده وهو حزين على تركها وحزين من صلف أهلها وجحودهم.

(٢٢) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٣٣.

إذًا فالخيار السهل لكل مسلم أو فئة من المسلمين تعيش في بيئة بمثل هذه الصعوبة أن تهرب وتترك الأمر وترحل إلى ديار الإسلام دون أن يكون لها تأثير أو فاعلية تركتها خلفها تبرز فيها صورة طيبة للإسلام والمسلمين.

وأما الخيار الصعب فهو تحمل المسؤولية كما تحملها الأنبياء في دعوة قومهم والصبر على أذاهم.

ثانيًا: يجب التمسك المطلق بالقيم الأخلاقية والمثل الفاضلة إلى أقصى درجة مع الناس جميعًا، من آمن ومن كفر، من سالم ومن عادى، فالأخلاق لا تتجزأ، ولا يتخلى عنها المؤمن أبدًا تحت وطأة الكراهية والمعاداة.

يُسْتَدَلّ على ذلك بأن سيدنا محمدًا ﷺ كان حتى آخر يوم له في مكة محط ودائع وأمانات المشركين في قريش، يرونه الصادق الأمين، ولم تراودهم خشية أو خيفة من تبديده لأماناتهم جراء ما يفعلونه معه ومع أصحابه من اضطهاد وتعذيب وإيذاء.

وقد أثبت لهم النَّبِيّ ﷺ أنه المثال والنموذج في حفظ الأمانة والوفاء بالعهود، فقد ترك ابن عمه عليّ بن أبي طالب ﷺ في فراشه حتى يردَّ لمشركي قريش المعتدين الظالمين أماناتهم وودائعهم التي تركوها عنده.

فلا يستجيز المسلم لنفسه وهو في ديار غير المسلمين أن يسلبهم أموالهم أو يعتدي على أماناتهم بدعوى أنهم مخالفون له في العقيدة أو محاربون للإسلام أو غير ذلك، بل على العكس يجب أن يظهر بينهم كنقطة مضيئة ومنارة يشار إليها في حسن الخلق.

ثالثًا: عدم انتهاج نهج العزلة والهجر، وإنما يكون المسلم نموذجًا للفاعلية والاندماج والتعاون مع الآخرين في البر والتقوى دون الإثم والعدوان.

ويصرُّ المسلم على المشاركة في المجتمع ونيل الحرية فيه، والتعبير عن شعائر دينه وعقيدته في كل مكان، دون أن يعتدي أو يسيء لأحد.

فقد أصرَّ سيدنا محمد ﷺ على ارتياد الكعبة وممارسة الصلوات فيها أمام المشركين بعزيمة وقوة وشجاعة، ولم يأبه لاعتدائهم عليه أو إساءتهم له بالسب والضرب وغير ذلك، ولم يدفعه باطلهم وأصنامهم وصفيرهم ومكاؤهم أن يحجم عن حقه في الحرية، وعن حقه في إظهار الحق الذي كُلِّفَ به وأُرْسِل بالدعوة إليه.

رابعًا: الالتزام بالرفق واللين والرحمة في الدعوة إلى سبيل الله، والمعاملة مع غير المسلمين، إضافة إلى احترام عقائدهم ومقدساتهم وإن كانت أصنامًا، وهذا لا يمنع من التعبير عن فساد الاعتقاد فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٨/٦).

ويستدل على ذلك من دخوله ﷺ وأصحابه إلى الكعبة في عمرة القضاء والطواف بها وفيها ثلاثمائة وستون صنمًا مرصوصة حولها.

ولكن حينما أتاه ﷺ المشركون في قريش يطلبون منه عبادة أصنامهم عامًا حتى ينصرفوا إلى عبادة الله عامًا.

قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ، وَتَعْبُدُ مَا نَعْبُدُ، فَنَشْتَرِكُ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي الْأَمْرِ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا نَعْبُدُ؛ كُنَّا قَدْ أَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مَا نَعْبُدُ خَيْرًا مِمَّا تَعْبُدُ، كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم وَلَا أَنْتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ﴾ (سورة الكافرون: ١٠٩/١-٦).

فلا مساومة على الشرك بالله أو ترك عبادته وحده، ولكن هي الحرية يُعطاها الإنسان في التوجه بالعبادة حيث شاء، "وَلِيَ دِينِ" اتركوني حيث أعبد الله، وأدعو الناس إليه بالحكمة والموعظة الحسنة.

خامسًا: الصبر والمثابرة وتحملِ الأذى والمقاومة بسلميَّة.

ماذا يفعل المسلم إن وجد من قومه أو وطنه معاداة أو اضطهادًا، وأرادوا فتنته في دينه، والعدوان على ماله وكرامته حسب هذا النموذج المكي وكما حدث مع أصحاب محمد ﷺ، عمار وبلال وصهيب وغيرهم؟

إنه الصبر رغبة في التعايش مع الآخرين، ورغبة عن الصدام، ولأن المسلم صاحب رسالة، وتأديتها أمر صعب ليس بالهيّن، ولا يتوقع من الآخرين ترك ما ألفوه بسهولة.

والصبر يكون مع المقاومة السّلميَّة ببذل المال كما فعل أبو بكر الصديق، أو بالجهر بالحق والصدع به كما فعل ابن مسعود وأبو ذر الغفاري ﷺ.

النموذج الثاني

مجتمع الحبشة

إن الهجرة تأتي كأداة ووسيلة من وسائل المقاومة وتجنب الصدام والتحارب مع المجتمع، وليست غاية، ولقد لجأ إليها معظم الأنبياء في أقوامهم ولكن بعد صبر ومعاناة، ولقد قصَّ علينا القرآن الكريم هجرة الأنبياء، كلوط وإبراهيم ونوح وموسى ﷺ، فالهجرة نموذج للتعايش والتكيّف مع الآخر، وتحمل مشقة الغربة وهجرة الوطن من أجل إيثار السلام على التنافر والمحاربة.

ولكن الفريد في تجربة رسول الله ﷺ سيد المرسلين، أنه أذن لأصحابه بالهجرة والخروج من مكة تحت وطأة التعذيب والاضطهاد، وآثر الصبر والتحمل والدعوة في قومه حتى استنفذ كل الطرق والوسائل في الحوار والإقناع والمقاومة، ولم يهاجر رسول الله ﷺ إلَّا بعد أن هاجر معظم أصحابه إلى المدينة واطمأن على أمنهم فيها، حيث دخل الإسلام كل بيت في المدينة فأصبحت موطنًا آمنًا ينعم فيه المسلمون بالاستقرار.

وسبق الهجرةَ إلى المدينة الهجرةُ إلى الحبشة، والحبشة تميزت عن مكة بأمرين:

الأول: أنها كانت مجتمعًا يدين أهله بالنصرانية، وهي خير من الوثنية التي كانت تدين بها قريش، فالنصارى أهل كتاب وهو الإنجيل ويتبعون عيسى عليه السلام نبي الله، ويؤمنون بالوحي والرسالة.

والثاني: أن الحكومة في الحبشة كانت لملك عادل مُنصِف اشتهر بالشهامة والنجدة.

فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء والتعذيب الذي لا يحتمل، والفتنة في الدين والأهل والمال، قال لهم: "**لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ؛ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا عَظِيمًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ، وَهِيَ أَرْضُ صِدْقٍ، حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ**"(٢٣).

فخرج قوم، وستر الباقون إسلامهم.

(٢٣) البيهقي: السنن الكبرى، ٩/١٦.

وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش؛ فخرج عند ذلك أصحاب رسول الله ﷺ متسللين سرًّا إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفرارًا إلى الله بدينهم، وكانوا أحد عشر نفرًا وأربع نسوة.

فصادف وصولهم إلى البحر سفينتين للتجار فحملوهم فيهما إلى أرض الحبشة، وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من النبوة، وخرجت قريش في آثارهم ليعتدوا عليهم.

وكان أول من خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ، والزبير بن العوام ابن عمَّة النَّبيّ ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب ابن عمِّ النَّبيّ ﷺ، وأبو سلمة وامرأته أم سلمة واسمها هند بنت أبي أميَّة، وعبد الله بن مسعود فيمن خرج معهم ﷺ.

فأقاموا عند النَّجَاشِيّ شعبان ورمضان، وقدموا في شوَّال فلم يدخل أحد منهم مكة إلَّا وآذتهم عشائرهم، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج مرة أخرى، فخرجوا في جماعة من رجال ونساء.

وكان جميع من لحق بأرض الحبشة سوى من وُلِدَ بها وأبناؤهم الذين خرجوا بهم صغارًا نيّفًا وثمانين رجلًا وإحدى عشرة امرأة، ولما سمعوا بمهاجرة النَّبِيّ ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا وثماني نسوة، فمات منهم رجل بمكة وحبس سبعة، وشهد بدرًا منهم أربعة وعشرون.

وقد استضاف ملك الحبشة النَّجَاشِيّ صحابة رسول الله ﷺ خير استضافة؛ فكان خير جار؛ آمنهم على دينهم ومكّنهم من عبادة ربهم.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ بِنْتِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ﷺ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفُتِنُوا، وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُم مِنَ الْبَلَاءِ وَالْفِتْنَةِ فِي دِينِهِم،

وَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُم، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مَمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ:

"إِنَّ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ فَالْحقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللهُ لَكُم فَرَجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُم فِيهِ".

فَخَرَجْنَا إِلَيْهَا أَرْسَالًا حَتَّى اجْتَمَعْنَا بِهَا؛ فَنَزَلْنَا بخَيْرِ دَارٍ وإِلَى خَيْرِ جَارٍ، فأَمَّنَنا عَلَى دِينِنَا وَلَم نَخْشَ مِنْهُ ظُلْمًا[٢٤].

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ، جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيّ، أَمِنّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللهَ تَعَالَى لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمّا بَلَغَ ذَلِكَ قُرَيْشًا، ائْتَمَرُوا بَيْنَهُم أَنْ يَبْعَثُوا إِلَى النّجَاشِيّ فِينَا رَجُلَيْنِ مِنْهُم جَلْدَيْنِ، وَأَنْ يُهْدُوا لِلنّجَاشِيّ هَدَايَا مِمّا يُسْتَطْرَفُ مِنْ مَتَاعِ مَكّةَ، وَكَانَ مِنْ أَعْجَبِ مَا يَأْتِيهِ مِنْهَا الْأُدْمُ؛ فَجَمَعُوا لَهُ أُدْمًا كَثِيرًا، وَلَم يَتْرُكُوا مِنْ بَطَارِقَتِهِ بِطْرِيقًا إِلَّا أَهْدَوْا لَهُ هَدِيّةً، ثُمّ بَعَثُوا بِذَلِكَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعَمْرَو ابْنَ الْعَاصِ، وَأَمَرُوهُمَا بِأَمْرِهِم وَقَالُوا لَهُمَا:

ادْفَعَا إِلَى كُلّ بِطْرِيقٍ هَدِيّتَهُ قَبْلَ أَنْ تُكَلّمَا النّجَاشِيّ فِيهِم ثُمّ قَدّمَا إِلَى النّجَاشِيّ هَدَايَاهُ، ثُمّ سَلَاهُ أَنْ يُسَلّمَهُم إِلَيْكُمَا قَبْلَ أَنْ يُكَلّمَهُم.

وقَالَتْ: فَخَرَجَا حَتّى قَدِمَا عَلَى النّجَاشِيّ...ثُمّ إِنّهُمَا قَدَّمَا هَدَايَاهُمَا إِلَى النّجَاشِيّ فقَبِلَهَا مِنْهُمَا، ثُمّ كَلّمَاهُ فَقَالَا لَهُ:

أَيّهَا الْمَلِكُ إِنّهُ قَدْ ضَوَى إِلَى بَلَدِك مِنّا غِلْمَانٌ سُفَهَاءُ فَارَقُوا دِينَ قَوْمِهِم وَلَم يَدْخُلُوا فِي دِينِك، وَجَاؤوا بِدِينٍ ابْتَدَعُوهُ لَا نَعْرِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْت، وَقَدْ بَعَثَنَا إِلَيْك فِيهِم أَشْرَافُ قَوْمِهِم مِنْ آبَائِهِم وَأَعْمَامِهِم وَعَشَائِرِهِم لِتَرُدّهُم إِلَيْهِم فَهُم أَعْلَى بِهِم عَيْنًا...

قَالَتْ: فَقَالَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ: صَدَقَا أَيّهَا الْمَلِكُ، قَوْمُهُم أَعْلَى بِهِم عَيْنًا، وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِم فَأَسْلِمْهُم إِلَيْهِمَا فَلْيَرُدّاهُم إِلَى بِلَادِهِم وَقَوْمِهِم.

(٢٤) البيهقي: السنن الكبرى، ١٦/٩.

قَالَتْ: فَغَضِبَ النّجَاشِيّ، ثُمّ قَالَ: لَاهَا اللهِ إذَنْ لَا أُسْلِمُهُم إلَيْهِمَا، وَلَا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي، وَنَزَلُوا بِلَادِي، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ حَتّى أَدْعُوَهُم فَأَسْأَلَهُم عَمّا يَقُولُ هَذَانِ فِي أَمْرِهِم؛ فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولَانِ أَسْلَمْتهم إلَيْهِمَا، وَرَدَدْتُهُم إلَى قَوْمِهِم وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُم مِنْهُمَا، وَأَحْسَنْتُ جِوَارَهُم مَا جَاوَرُونِي.

كلمة جعفر بن أبي طالب إلى النَّجَاشِيِّ

إن كلمة جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة، لتعكس الفطنة والبلاغة والفهم الواعي، وتبين هديه ﷺ في مخاطبة الآخر وحسن إدارة الحوار معه.

وفي الكلمة ما يلي:

أولًا: بيان الحالة السيئة التي كان عليها العرب قبل بعثة النَّبِيّ ﷺ، فقد كانوا في جاهلية لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا.

ثانيًا: حِرص الإمام جعفر على مخاطبة الملك بأسلوبٍ حسنٍ يُقرّبه به، ويحببه في تلك الدعوة الفاضلة التي جاء بها النَّبِيّ ﷺ؛ فحدثه عن حسن الخُلق والإحسان إلى الخَلْق وبقية المنظومة الأخلاقية التي جاء بها الإسلام.

ثالثًا: التمسك بالقضية، والاستبسال في الدفاع عنها بكل سبيل، وأن الكلمة سلاح المؤمن، والحجة طريقه في معرفة الخلق والتواصل معهم ومحاورتهم والتعايش معهم.

قال جعفر بن أبي طالب للملك النَّجَاشِيّ:

أَيّهَا الْمَلِكُ كُنّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيّ مِنّا الضّعِيفَ، فَكُنّا عَلَى ذَلِكَ حَتّى بَعَثَ اللهُ إلَيْنَا رَسُولًا مِنّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إلَى اللهِ؛ لِنُوَحّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ

شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ -قَالَتْ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ- فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللهِ؛ فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ فَلَم نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا، لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِك، وَاخْتَرْنَاك عَلَى مَنْ سِوَاك؛ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِك، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَك أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَك مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَم.

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيّ.

قَالَتْ: فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ "كهيعص".

قَالَتْ: فَبَكَى وَاللهِ النَّجَاشِيّ حَتّى اخْضَلّتْ لِحْيَتُهُ وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتّى أَخْضَلوا مَصَاحِفَهُم حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِم، ثُمّ قَالَ لَهُم النّجَاشِيّ: إنّ هَذَا وَالّذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ؛ انْطَلِقَا.

فَلَمّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللهِ لَآتِيَنّهُ غَدًا عَنْهُم بِمَا أَسْتَأْصِلُ بِهِ خَضْرَاءَهُم.

قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَتْقَى الرّجُلَيْنِ فِينَا: لَا نَفْعَلُ فَإِنّ لَهُم أَرْحَامًا، وَإِنْ كَانُوا قَدْ خَالَفُونَا.

قَالَ: وَاللهِ لَأُخْبِرَنّهُ أَنّهُم يَزْعُمُونَ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ.

قَالَتْ: ثُمّ غَدَا عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ؛ فَقَالَ لَهُ: أَيّهَا الْمَلِكُ إنّهُم يَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ قَوْلًا عَظِيمًا، فَأَرْسِلْ إلَيْهِم فَسَلْهُم عَمّا يَقُولُونَ فِيهِ.

قَالَتْ: فَأَرْسَلَ إلَيْهِم لِيَسْأَلَهُم عَنْهُ.

قَالَتْ: وَلَم يَنْزِلْ بِنَا مِثْلُهَا قطّ.

فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ ثُمّ قَالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إذَا سَأَلَكُم عَنْهُ؟

قَالُوا: نَقُولُ وَاللهِ مَا قَالَ اللهُ وَمَا جاءَنَا بِهِ نَبِيّنَا، كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ.

قَالَتْ: فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالَ لَهُمْ: مَاذَا تَقُولُونَ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ؟

قَالَتْ: فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: نَقُولُ فِيهِ الّذِي جَاءَنَا بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ، هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ الْبَتُولِ.

قَالَتْ: فَضَرَبَ النّجَاشِيّ بِيَدِهِ إلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَ مِنْهَا عُودًا، ثُمّ قَالَ: وَاللهِ مَا عَدَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا قُلْتَ هَذَا الْعُودَ.

قَالَتْ: فَتَنَاخَرَتْ بَطَارِقَتُهُ حَوْلَهُ حِينَ قَالَ مَا قَالَ، فَقَالَ: وَإِنْ نَخَرْتُم وَاللهِ، اذْهَبُوا فَأَنْتُم شُيُومٌ بِأَرْضِي -وَالشّيُومُ الْآمِنُونَ- مَنْ سَبّكُم غَرِمَ، مَا أُحِبّ أَنّ لِي دَبَرًا مِنْ ذَهَبٍ وَأَنّي آذَيْت رَجُلًا مِنْكُم -قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدّبَرُ (بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ): الْجَبَلُ- رُدّوا عَلَيْهِمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا، فَوَاللهِ مَا أَخَذَ اللهُ مِنّي الرّشْوَةَ حِينَ رَدّ عَلَيّ مُلْكِي، فَآخُذَ الرّشْوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النّاسَ فِيّ فَأُطِيعَهُم فِيهِ.

قَالَتْ: فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مَرْدُودًا عَلَيْهِمَا مَا جَاءَا بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ. أ.هـ

وفي رواية أمّ سلمة عن مقام المسلمين بالحبشة يتعلم المسلمُ في كل زمان ومكان النموذج الثاني نموذج المسلمين في الحبشة، ويتعلم كيف يواجه أزمة التعايش، وكيف يدير الحوار والمجادلة التي تضمن له السلامة والاحترام.

فالمسلمون الذين فرّوا إلى الحبشة لم يتزعزعوا أمام الملك وإنما ثبتوا، واختاروا من بينهم قائدًا يمثلهم ويتحدث باسمهم، حتى لا يضطربوا ويتشتتوا، وخاطب سيدنا جعفر

ابن أبي طالب الملك بكلام فيه الحكمة والمنطق والعقل وفيه المودة والتقرب، خاطب فيه إيمانه بالمسيح، وخاطبه بالقيم الأخلاقية التي يؤمن بها، وخاطبه بالقول اللين الرفيق، وفي ذات الوقت لم يكذب أو يدلس أو يغش.

فإذا ما قَارَنَّا بين موقف جعفر بن أبي طالب الصحابي وبين موقف بعض الفرق المتشددة التي تفر إلى بلاد غير إسلامية تطلب فيها اللجوء والسلم والأمن؛ سنرى بونًا شديدًا.

فالمتشددون يخاطبون غير المسلمين أصحاب البلاد بالغلظة والجفاء، ويتعالون عليهم، ولا يتعايشون معهم بفاعلية واندماج، ويظهرون التمايز في المظهر بالمبالغة في اتباع إطلاق اللحية ولبس الجلباب في غير مقامه أو موضعه، بما يثير في نفوس الناس النفور منهم والتوجس، ويخاطبون الناس بلغة الكراهية والضغينة، ويرون في لغة المحبة والتسامح خروجًا على الإسلام وبعدًا عنه وتخليًا عن ثوابته.

إن ما يفعله هؤلاء الجاهلون من تجاهل لمفاهيم التعايش ونماذجه لَهُوَ خلط بين أحكام النماذج الأربعة والأحوال الواقعية التي تطابق كل نموذج، فيعود من ذلك الأثر السيء على صورة الدين الإسلامي في أذهان الناس فينصرفون عنه، فيكون هذا المتشدد سفير سوء وشؤم عن المسلمين، يُسَهِّل على أعداء الإسلام الهجوم عليه ورمي أتباعه بالإرهاب والعنف.

فَرَحُ الْمُهَاجِرِينَ بِنُصْرَةِ النَّجَاشِيِّ عَلَى عَدُوِّهِ

قَالَتْ أم سلمة: فَوَاللهِ إِنَّا لَعَلَى ذَلِكَ إِذْ نَزَلَ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْحَبَشَةِ يُنَازِعُهُ فِي مُلْكِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُنَا حَزِنَّا حُزْنًا قَطّ كَانَ أَشَدّ عَلَيْنَا مِنْ حُزْنٍ حَزِنّاهُ عِنْدَ ذَلِكَ؛ تَخَوّفًا أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ الرّجُلُ عَلَى النّجَاشِيّ، فَيَأْتِي رَجُلٌ لَا يَعْرِفُ مِنْ حَقّنَا مَا كَانَ النّجَاشِيّ يَعْرِفُ مِنْهُ.

قَالَتْ: وَسَارَ إِلَيْهِ النّجَاشِيّ، وَبَيْنَهُمَا عَرْضُ النّيلِ.

قَالَتْ: فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ حَتّى يَحْضُرَ وَقِيعَةَ الْقَوْمِ ثُمّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟

قَالَتْ: فَقَالَ الزّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ: أَنَا.

قَالُوا: فَأَنْتَ. وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًّا.

قَالَتْ: فَنَفَخُوا لَهُ قِرْبَةً فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ ثُمّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتّى خَرَجَ إلَى نَاحِيَةِ النّيلِ الّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمّ انْطَلَقَ حَتّى حَضَرَهُم.

قَالَتْ: فَدَعَوْنَا اللهَ تَعَالَى لِلنّجَاشِيّ بِالظّهُورِ عَلَى عَدُوّهِ وَالتّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللهِ إنّا لَعَلَى ذَلِكَ مُتَوَقّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ إذْ طَلَعَ الزّبَيْرُ وَهُوَ يَسْعَى، فَلَمَعَ بِثَوْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَلَا أَبْشِرُوا، فَقَدْ ظَفِرَ النّجَاشِيّ، وَأَهْلَكَ اللهُ عَدُوّهُ وَمَكّن لَهُ فِي بِلَادِهِ.

قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا عَلِمْتنَا فَرِحْنَا فَرْحَةً قَطّ مِثْلَهَا.

قَالَتْ: وَرَجَعَ النّجَاشِيّ، وَقَدْ أَهْلَكَ اللهُ عَدُوّهُ وَمَكّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ حَتّى قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ بِمَكّةَ(٢٥).

وأقام أصحاب النّبيّ ﷺ مع النَّجَاشِيّ وأهل الحبشة في سِلم وودٍّ واحترام، وآثر كثير من الصحابة البقاء في الحبشة حتى بعد هجرة النَّبيّ ﷺ إلى المدينة، فقد بقي في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النَّجَاشِيّ ومنهم:

أ. **جعفر بن أبي طالب** ﷺ ابن عم النَّبيّ ﷺ: وَهُوَ أَسَنُّ مِنْ أخيه عَلِيّ بِعَشْرِ سِنِينَ، هَاجَرَ الهِجْرَتَيْنِ، وَهَاجَرَ مِنَ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، قدم المدينة بعد فتح مكة، فَوَافَى المُسْلِمِينَ وَهُم عَلَى خَيْبَرَ إِثْرَ أَخْذِهَا.

وذُكِرَ أن جعفرًا ﷺ وُلِدَ له بأرض الحبشة ثلاثة أولاد: محمد، وعون، وعبد الله.

(٢٥) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٣٣٤-٣٣٨.

وكان النَّجَاشِيُّ قد وُلِدَ له مولود يومَ وُلِدَ عَبدُ الله، فأرسل النَّجَاشِيُّ إلى جعفر يسأله كيف أسميت ابنك؟ فقال: عبد الله؛ فسمَّى النَّجَاشِيُّ ابنه عبد الله، وأرضعته أسماءُ بنت عميس امرأة جعفر مع ابنها عبد الله، فكانا يتواصلان بتلك الأخوة(٢٦).

وقال السهيلي: ومن رواية يونس عن ابن إسحاق أن أبا نيزر مولى علي بن أبي طالب ﷺ كان ابنًا للنجاشي نفسه، وأن عليًا ﷺ وجده عند تاجر بمكة فاشتراه منه وأعتقه مكافأة لما صنع أبوه مع المسلمين(٢٧).

وحضر معه أبو موسى الأشعري، صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب، فقدموا جميعًا.

وقدم معهم أيضًا عتبة بن مسعود الهذلي أخو عبد الله بن مسعود، وقهطم بنت علقمة وزوجها سليط بن عمرو.

ب. **عبد الله بن الحارث** ﷺ: وكان يقول شعرًا يحرض فيه المسلمين على الهجرة إلى الحبشة، ويصف ما لقوا فيها من الأمن، فمنه:

يا راكبًا بلّغا عني مغلغلة — من كان يرجو لقاء الله والدين
إنا وجدنا بلاد الله واسعة — تنجي من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة — ولا خزي الممات وعتب غير مأمون
إنا تبعنا رسول الله واطرحوا — قول النّبِيّ وغالوا في الموازين

وفي كتاب البلاذري وفي ذيل الطبراني أنه مات بالحبشة.

جـ. **المطلب بن أزهر وأخوه طليب** ﷺ: هاجرا إلى الحبشة وبها ماتا، وكان خروج المطلب بن أزهر إلى الحبشة مع امرأته رملة بنت أبي عوف، فولدت له بأرض الحبشة عبد الله بن المطلب.

قال ابن الكلبي: مات وولده بأرض الحبشة.

(٢٦) السهيلي: الروض الأنف، ٥٨٧/٦.
(٢٧) المصدر السابق، ١١٨/٢.

علاقة النبي ﷺ بالنجاشي

وقد كان للعلاقات الإنسانية والاندماج والتعايش الذي قام به الصحابة في مجتمع الحبشة أثر بعيد، وثمار استمرت طويلًا بعد ذلك، حتى بعد أن ترك المسلمون الحبشة وهاجروا إلى المدينة، ومن ذلك:

١- الرسائل المتبادلة بين النَّبِيّ ﷺ وملك الحبشة

إن حسن أخلاق الصحابة وفقه التعايش الذي طبقوه بالحبشة كان من أثره أن دخل ملك الحبشة النَّجَاشِيّ في الإسلام.

فإن الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة كانوا تحت رعاية النَّجَاشِيّ بنفسه، وتحت نظره؛ ليرى ما يفعلونه في حياتهم من عبادات ومعاملات، فرأى منهم ما يؤكد صدق كلامهم ودينهم.

ثم تبادل النَّجَاشِيّ مع رسول الله ﷺ الرسائل والمكاتبات، فدعاه فيها رسول الله إلى الإسلام، فرد عليه النَّجَاشِيُّ بحب وتوقير وإقرار بأنه رسول الله حقًّا، وأنه صادق مصدق، وختم ذلك بمبايعته له.

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل إليه عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه برسالة جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ أَسْلِمِ أَنْتَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ اللَّهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

لَــهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي؛ فَإِنّي رَسُــولُ اللّهِ، وَإِنّي أَدْعُــوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللّهِ ﷻ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسّــلَامُ عَلَى مَنِ اتّبَعَ الْهُدَى. أ. هـ

فلما وصله الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم، وكتب الجواب للنبي ﷺ:

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

إِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ مِنَ النّجَاشِيِّ أَصْحَمَةَ سَلَامٌ عَلَيْك يَا نَبِيَّ اللّهِ مِنَ اللّهِ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُك يَا رَسُولَ اللّهِ فِيمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عِيسَــى، فَوَرَبِّ السّــمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنّ عِيسَى لَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ ثُفْرُوقًا(٢٨)، إِنّهُ كَمَا ذَكَرْت، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بُعِثْت بِهِ إِلَيْنَا، وَقَدْ قَرّبْنَا ابْنَ عَمّك وَأَصْحَابَهُ، فَأَشْهَدُ أَنّك رَسُولُ اللّهِ صَادِقًا مُصَدّقًا، وَقَدْ بَايَعْتُك وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمّك وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ(٢٩).

٢- العلاقات السياسية والاجتماعية بين دولة المدينة ودولة الحبشة

أ. رعايـة أمّ حبيبـة أمّ المؤمنيـن وصيانتهـا بعـد تنصـر زوجها وهروبه منها في الحبشـة، وتولية النَّجَاشِيّ أمر خطبتها للنبي ﷺ.

تَزَوّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّ حَبِيبَةَ ، وَاسْمُهَا رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، زَوّجَهُ إيّاهَا خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، وَهُمَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَأَصْدَقَهَا النّجَاشِيُّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْبَعَمِائَةِ دِينَارٍ، وَهُوَ الّذِي كَانَ خَطَبَهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ(٣٠).

ب. فرح النَّجَاشِيّ بنصر المسلمين على قريش في بدر:

وقد روي أن وقعة بدر حين انتهى خبرها إلى النَّجَاشِيّ ، وعلم بها قَبَلَ مَنْ عنده مِنَ المسلمين؛ فأرسل إليهم، فلما دخلوا عليه إذا هو قد لبس مسحًا وقعد على التراب والرماد.

(٢٨) ثُفْرُوق: عِلَاقَة مَا بَيْنَ النّوَاةِ وَالْقِشْرِ.

(٢٩) البيهقي: دلائل النبوة، ٢/٣٠٩.

(٣٠) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٦٤٥.

فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟

فقال: إنا نجد في الإنجيل أن الله سبحانه إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعًا، وأن الله قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أن النَّبِيّ محمدًا ﷺ بلغني أنه التقى هو وأعداؤه بواد يقال له "بدر"، كثير الأراك، وأن الله تعالى قد هزم أعداءه فيه، ونصر دينه(٣١).

جـ. هدايا النَّجَاشِيّ لرسول الله ﷺ:

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أهدى النَّجَاشِيُّ إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها، وبعث إليه بقدح وكان يشرب فيه.

٢- وعن جابر رضي الله عنه قال: أهدى النَّجَاشِيُّ إلى رسول الله ﷺ قارورة غالية وهي نوع من الطيب، وكانت أول ما عملت له.

٣- وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: أَهْدَى النَّجَاشِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَلْقَةً فِيهَا خَاتَمُ ذَهَبٍ، فِيهِ فَصٌّ حَبَشِيٌّ؛ فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعُودٍ وَإِنَّهُ لَمُعْرِضٌ عَنْهُ، ثُمَّ دَعَا ابْنَةَ ابْنَتِهِ أُمَامَةَ بِنْتَ أَبِي الْعَاصِ فَقَالَ: "تَحَلَّيْ بِهَذَا يَا بُنَيَّةُ"(٣٢).

٤- وعن بريدة بن الحصيب قال: أَهْدَى النَّجَاشِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ خُفَّيْنِ سَاذَجَيْنِ أَسْوَدَيْنِ، فَلَبِسَهُمَا وَمَسَحَ عَلَيْهِمَا(٣٣).

د. فرح الحبشة بنجاة سيدنا رسول الله ﷺ في رحلة الهجرة إلى المدينة من يد قريش، وكيف احتفى سيدنا رسول الله ﷺ بمقدم وفد الحبشة عليه في المدينة.

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ لَعِبَتِ الْحَبَشَةُ لِقُدُومِهِ فَرَحًا بِذَلِكَ، لَعِبُوا بِحِرَابِهِمْ(٣٤).

(٣١) السهيلي: الروض الأنف، ٣/٢٦٠.
(٣٢) سنن أبي داود، الخاتم، ٨؛ سنن ابن ماجه، اللباس، ٤٠.
(٣٣) البيهقي: السنن الكبرى، ١/٤٢٤.
(٣٤) سنن أبي داود، الأدب، ٥١.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتُرُنِي، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ وَهُم يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَزَجَرَهُم عُمَرُ ﷺ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**دَعْهُم، أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ**". يَعْنِي مِنَ الأَمْنِ(٣٥).

ورَدًّا للمعروف والجميل الذي قدَّمه النَّجَاشِيُّ وأهل الحبشة للمسلمين أثناء إقامتهم في ديارهم، حينما قدم وفد النَّجَاشِيّ على رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ذلك كان يخدمهم بنفسه.

عن أبي قتادة ﷺ قال: لما قدم وفد النَّجَاشِيّ على رسول الله ﷺ فكان يخدمهم بنفسه.

فقال له أصحابه: نحن نكفيك.

فقال ﷺ: "**إِنَّهُمْ كَانُوا يُكْرِمُونَ أَصْحَابِي وَأُحِبُّ أَنْ أُكَافِيَهُمْ**"(٣٦).

هـ. التعارف الثقافي باقتباس سيدنا رسول الله ﷺ لبعض الألفاظ الحبشية، وكان ﷺ يتحدث مع أصحابه أحيانًا بها.

فعَنْ أُمِّ خَالِدٍ بِنْتِ خَالِدٍ، وَقَدْ قَدِمَتْ مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ وَهِيَ جُوَيْرِيَةٌ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِثِيَابٍ فِيهَا خَمِيصَةٌ سَوْدَاءُ صَغِيرَةٌ، فَقَالَ ﷺ: "**مَنْ تَرَوْنَ نَكْسُو هَذِهِ؟**" فَسَكَتَ الْقَوْمُ.

قَالَ ﷺ: "**ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ**".

فَأُتِيَ بِهَا تُحْمَلُ، فَأَخَذَ الْخَمِيصَةَ بِيَدِهِ فَأَلْبَسَهَا.

وَقَالَ ﷺ: "**أَبْلِي وَأَخْلِقِي**". وَكَانَ فِيهَا عَلَمٌ أَخْضَرُ أَوْ أَصْفَرُ.

فَقَالَ ﷺ: "**يَا أُمَّ خَالِدٍ هَذَا سَنَاهْ**". وَسَنَاهْ بِالْحَبَشِيَّةِ حَسَنٌ(٣٧).

(٣٥) صحيح البخاري، العيدين، ٢٥، المناقب، ١٥.
(٣٦) أبو عبد الله الأنصاري: المصباح المضيء، ٣٦/٢.
(٣٧) صحيح البخاري، اللباس، ٢٢.

٣- إسلام النَّجَاشِيّ

وروى ابن إسـحاق: اجْتَمَعَتِ الْحَبَشَـةُ فَقَالُوا لِلنّجَاشِـيّ: إنّك قَدْ فَارَقْتَ دِينَنَا؛ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ.

فَأَرْسَـلَ إلَـى جَعْفَـرٍ وَأَصْحَابِـهِ فَهَيّـأَ لَهُـم سُـفُنًا، وَقَـالَ: ارْكَبُـوا فِيهَـا، وَكُونُوا كَمَـا أَنْتُم، فَإِنْ هُزِمْتُ فَامْضُوا حَتّى تَلْحَقُوا بِحَيْثُ شِئْتُم، وَإِنْ ظَفِرْتُ فَاثْبُتُوا.

ثُـمّ عَمَـدَ إلَـى كِتَـابٍ فَكَتَـبَ فِيـهِ هُـوَ يَشْـهَدُ أَنْ لَا إلَـهَ إلّا اللّهُ وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُـولُهُ وَيَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ(٣٨).

٤- صلاة الغائب على النَّجَاشِيِّ

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِـيُّ: "**مَاتَ الْيَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُم أَصْحَمَةَ**"(٣٩).

(٣٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٣٤٠.

(٣٩) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٣٨.

مسألة: اشتراك المسلمين مع النَّجَاشِيِّ في حربه مع عدوه

١- قال السرخسي: وَإِذَا كَانَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُسْتَأْمَنِينَ فِي دَارِ الْحَرْبِ فَأَغَارَ عَلَى تِلْكَ الدَّارِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ لَم يَحِلَّ لِهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُقَاتِلُوهُمْ؛ لِأَنَّ فِي الْقِتَالِ تَعْرِيضَ النَّفْسِ فَلَا يَحِلُّ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى وَجْهِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ ﷻ وَإِعْزَازِ الدِّينِ، وَذَلِكَ لَا يُوجَدُ هَهُنَا؛ إِلَّا أَنْ يَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِم مِنْ أُولَئِكَ فَحِينَئِذٍ لَا بَأْسَ بِأَنْ يُقَاتِلُوهُم لِلدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِم لَا لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الشِّرْكِ.

وَالْأَصْلُ فِيهِ حَدِيثُ جَعْفَرٍ ﷺ، فَإِنَّهُ قَاتَلَ بِالْحَبَشَةِ مَعَ الْعَدُوِّ الَّذِي كَانَ قَصَدَ النَّجَاشِيَّ، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ آمِنًا عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَكَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِهِ، فَعَرَفْنَا أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْخَوْفِ(٤٠).

٢- وقال أيضًا السرخسي في باب الاستعانة بأهل الشرك واستعانة المشركين بالمسلمين:

ذَكَرَ حَدِيثَ الزُّبَيْرِ ﷺ حِينَ كَانَ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ فَنَزَلَ بِهِ عَدُوُّهُ فَأَبْلَى يَوْمَئِذٍ مَعَ النَّجَاشِيِّ بَلَاءً حَسَنًا، فَكَانَ لِلزُّبَيْرِ عِنْدَ النَّجَاشِيِّ بِهَا مَنْزِلَةٌ حَسَنَةٌ.

فَبِظَاهِرِ هَذَا الْحَدِيثِ يَسْتَدِلُّ مَنْ يُجَوِّزُ قِتَالَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ تَحْتَ رَايَتِهِم.

وَلَكِنْ تَأْوِيلُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ عِنْدَنَا:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ النَّجَاشِيَّ كَانَ مُسْلِمًا يَوْمَئِذٍ، كَمَا رُوِيَ، فَلِهَذَا اسْتَحَلَّ الزُّبَيْرُ الْقِتَالَ مَعَهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ لَم يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ مَلْجَأٌ غَيْرُهُ عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ.

(٤٠) السرخسي: **المبسوط**، ١٠/٩٨.

قَالَتْ: لَمَّا اطْمَأْنَنَّا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ فَكُنَّا فِي خَيْرِ دَارٍ، عِنْدَ خَيْرِ جَارٍ، نَعْبُدُ رَبَّنَا إِلَى أَنْ سَارَ إِلَى النَّجَاشِيِّ عَدُوٌّ لَهُ، فَمَا نَزَلَ بِنَا قَطُّ أَمْرٌ عَظِيمٌ مِنْهُ.

قُلْنَا: إِنْ ظَهَرَ عَلَى النَّجَاشِيِّ لَم يَعْرِفْ مِنْ حَقِّنَا مَا كَانَ النَّجَاشِيُّ يَعْرِفُ، فَأَخْلَصْنَا الدُّعَاءَ إِلَى أَنْ يُمَكِّنَ اللهُ النَّجَاشِيَّ(٤١).

٣- قال البلاذري: أبو عبد الله الزبير بن العوام ﷺ قاتل مع النَّجَاشِيِّ عدوًّا له، فأعطاه العنزة التي صارت إلى رسول الله ﷺ.

وعن أسماء بنت أبي بكر ﷺ قالت: لما هاجر الزبير إلى أرض الحبشة، خرج مع النَّجَاشِيِّ فقاتل عدوًّا له، فأعطاه النَّجَاشِيُّ يومئذ عنزة؛ فقاتل بها وطعن عدَّةً حتى ظهر النَّجَاشِيُّ على عدوه. وقدم الزبير بها فشهد بدرًا وهي معه، وشهد بها يوم أحد ويوم خيبر.

ثم أخذها رسول الله ﷺ منه منصرفه من خيبر، فكانت تُحمل بين يديه يوم العيد؛ يحملها بلال بن رباح؛ ويخرج بها في أسفاره فتركز بين يديه يُصَلِّي إليها.

وتوفي ﷺ والأمر على ذلك؛ وكان أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ على ذلك، فهي اليوم تحمل بين أيدي الأئمة(٤٢).

وقال الواقدي: ويقال إن الزبير بن العوام قاتل بين يدي النَّجَاشِيِّ عدوًّا له، فأبلى، فوهب له العنزة.

٤- قَالَ الشَّافِعِيُّ ﷺ: قَدْ قِيلَ: يُقَاتِلُهم، قَدْ قَاتَلَ الزُّبَيْرُ وَأَصْحَابٌ لَهُ بِبِلَادِ الْحَبَشَةِ مُشْرِكِينَ عَنْ مُشْرِكِينَ. وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: يَمْتَنِعُ عَنْ قِتَالِهِم لِمَعَانٍ ذَكَرَهَا الشَّافِعِيُّ، كَانَ مَذْهَبًا، وَلَا نَعْلَمُ خَبَرَ الزُّبَيْرِ ﷺ يَثْبُتُ، وَلَوْ ثَبَتَ كَانَ النَّجَاشِيُّ مُسْلِمًا، كَانَ آمَنَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَصَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ(٤٣).

(٤١) السرخسي: شرح السير الكبير، ١٤٢٤/٤.
(٤٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ٥٢٤/١.
(٤٣) الشافعي: الأم، ٢٥٦/٤، البيهقي: معرفة السنن، ٣٤٠/١٣.

إن نموذج الحبشة يكون فيه المسلمون أقلية مضطهدة وهاربة من أرض إلى أرض، حتى عثرت على أرض نعمت فيها بالأمن والعدل والحرية في ظل دولة غير إسلامية، وهذا النموذج أو هذه الحالة قد تبدو في القرن الثاني أو الثالث الهجري مجرد فرض مستبعد قيامه، وهذا يفسر عزوف الفقهاء حينئذ عن تدبره والاستنباط من أحكامه؛ لأن الحضارة الإسلامية كانت في أوجها قوية مُزدهرة، تهتدي بنموذج المدينة في عهدها الأخير عهد السيادة والقوة، وكل ناظر مَهْما بَعُد افتراضه في التشاؤم لم يكن يتوقع خُفُوت تلك الحضارة وتراجعها إلى الدرجة التي تحتاج إلى استلهام النموذج الحبشي.

فانشغال الفقهاء في القرن الثاني والثالث بالفقه الزمني، واستغراقهم في النموذج الرابع فقط وهو نموذج المدينة بعهدها الأخير، كان واجب وقتهم، ولا غضاضة عليهم في ذلك، ولكن لكل وقت واجبه المنوط بأهل العلم والدراية أن يقوموا بالاجتهاد في مسائله ووقائعه، شريطة ألّا يخرجوا عن الإطار الذي وضعه الشرع الشريف بثوابته، ووُجِدَ تطبيقه في سيرة النَّبِيّ ﷺ وسنته وأفعاله وتقريراته.

ودور العلماء المجتهدين في عصرنا، إذ تقلبت الأحوال وتغير الواقع، أن يعيدوا دراسة النموذج الحبشي حتى يستعين به المسلم فيتمكن من التعايش مع الواقع بفاعلية موافقًا لواقعه مع تعاليم الدين وثوابته.

أما إذا تكاسل العلماء عن الاجتهاد واكتفوا باجترار اجتهادات فقهاء سابقين، اجتهدوا وأحسنوا في تحقيق الرشاد في ظل واقعهم، فإن الهوّة ستتسع وتتعمق بين واقع المسلمين وبين تحقيق مصالحهم المعيشية، وسيشعر المسلم بالحرج والعنت والمشقة في الالتزام بالأحكام الفقهية حسب اجتهاد الفقهاء وفق نموذج مختلف عن الواقع الذي يعيش فيه تمامًا.

ولقد كان هدي النَّبِيّ ﷺ دائمًا حتى في أحلك الظروف وضغوط الحرب يُعَلِّم أصحابه ويهديهم بأن لا يتمنوا الحرب والصدام بل يسألوا الله العافية.

قال ﷺ: "**لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُم فَاصْبِرُوا**".

وفي النهاية فإن نموذج الحبشة، والذي ضرب فيه النَّبِيّ ﷺ والمسلمون الأوائل قدوة شديدة القوة في التعايش مع الآخر، فإن هذا يدعونا للتمسك بهدي النَّبِيّ ﷺ في كل زمان ومكان، ونطبق كل ما من شأنه يُيسّر حياة الإنسان وتعايشه مع أخيه الإنسان في سلام وأمن.

وإن هذا لهو السبيل الأقوم لدفع المسلمين إلى الاندماج والتفاعل مع دولهم ومجتمعاتهم المسلمة وغيرها، ويتغلغل المسلمون في أوطانهم ويصبحوا جزءًا رئيسًا من نسيجها ولا يمثلون نشاذًا أو شذوذًا فيها، كل ذلك يمكنهم أكثر من التمكين لدينهم والتمسك به وتطبيق تعاليمه، لا على عكس ما يتصور البعض أن هذا الاندماج سيذيب المسلمين في غيرهم ويجعلهم يفرطون في ثوابت دينهم وأصوله، فإن الإسلام هو دين الحق، وهو يعلو ولا يعلى عليه، وهو أبلج وغيره لجلج، فلا يخشى المسلم عليه، بل يفسح له المجال ويترك له العنان، والإسلام وحده قادر على الانتشار والثبوت والظهور على غيره، فقط لا نكون نحن المسلمين عقبة في طريقه.

فإننا في مجتمع اليوم نرى تصرفات ومعاملات بعض المسلمين الخاطئة تُنَفِّر الآخرين من الدين وتُمثّل حجابًا لحقيقة الإسلام، يمنع من اعتناقه أو التقرب إليه، مما يوجب على المسلمين أن يرجعوا إلى الالتزام بمبادئ الإسلام السمحة وأخلاقه القويمة في تعاملاتهم مع الآخر، لتكون أفعالهم نورًا يهتدي به الآخرون إلى صراط الله المستقيم.

النموذج الثالث

المدينة في المرحلة الأولى

المدينة وفق هذا النموذج كانت تمثل دولة في طور التكوين والتشكل، يلزمها بناء مؤسسات وتحديد سلطات وصلاحيات ورسم سياسات وخطط، ومواجهة صعوبات وتحديات خارجية وداخلية، ومَثَّلَ التعايشُ في المجتمع المدني أهمَّ الأزمات بسبب الحالة الاجتماعية التي اقتضت أن يمتزج خليطٌ متنوع ومختلف من البشر في بيئة واحدة.

التنوع:

أ. أصحاب الأرض الأصليون وهم أهل المدينة "الأنصار"، ووافدون يزاحمونهم ويشاركونهم في السكن والتجارة والأسواق وغير ذلك وهم "المهاجرون".

ب. المهاجرون لم يكونوا عصبة واحدة، ولكنهم أتوا من بقاع شتى، وينتمون لقبائل وبطون مختلفة، ربما كان بينها تاريخ من الصراع والتناحر والتنافس.

جـ. الأنصار كانوا منقسمين إلى أوس وخزرج، والصراع بين القبيلتين قريب، وشديد على من يكون له السيادة على المدينة.

د. كان بالمدينة تنوع في الدين، كان فيها المسلمون، وفيها المنافقون الذين يظهرون الموالاة والإيمان ويبطنون العداوة والكراهية، وفيها اليهود، وفيها مشركون وثنيون.

هـ. اليهود كانوا يعيشون في حصون يستقلون بها ومعهم السلاح والعتاد، في شبه كيانات منفصلة عن العرب، وكانوا فرقًا: قَيْنُقَاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، ويهود خيبر.

وكان اليهود يتكسبون قبل هجرة النَّبيِّ ﷺ من الوقيعة والدسيسة بين الأوس والخزرج، فقسَّموا أنفسهم قسمين: الأول يناصر الأوس ويمدهم بالسلاح والمؤن.

والثاني يناصر الخزرج ويمدهم بالسلاح والمؤن، فيضعف العرب بالمدينة يومًا بعد يوم، ويظل اليهود أقوياء لا ينافسهم أحد.

و. كان بالمدينة تنوّع طبقي، تمثل في طرق المعيشة المختلفة، فمنهم البدو أو الأعراب الذين تميزوا بالخشونة والغلظة والجفاء في المعاملة وطريقة العيش، ومنهم الحضر أهل المدينة الذين يشتغلون بالتجارة وينعمون بالرفاهة واللين.

ز. هذا غير التنوع في الأصول الوافدة على المدينة، فكان فيها العرب والأحباش، والأبيض والأسود، والأحرار والعبيد، والرومي والفارسي.

فيمكن أن نتخيل صعوبة الجمع والتعايش في ظل هذا التنوع والتمايز الكبير.

فماذا فعل سيدنا رسول الله ﷺ؟

بيان ذلك كما يلي:

أولًا: بدأ رسول الله ببناء المؤسسات

فتوجه لتكوين فرق العمل وتوحيد الجميع حول هدف وغاية وهي بناء المسجد، وهذا المسجد هو الذي سيجتمع فيه المسلمون بفئاتهم المختلفة؛ فيحدث بينهم التآلف والتوحد والمشاركة، وسيكون مقرًّا للحكم بينهم والقضاء في نزاعاتهم، ومدرسة يتعلمون فيها الدين والأخلاق والنظام، بالإضافة إلى أنهم سيلتقون فيه مع قائدهم ونبيهم ويؤدون شعائر دينهم، فكان المسجد النبوي مجموعة من المؤسسات مجتمعة.

فكان بناء المسجد بمثابة مشروع مَصيريّ جمع كلمة المسلمين في المدينة، ووحّد صفهم، وصرفهم عن كل اختلاف.

ثانيًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

والمؤاخاة صورة مبتكرة لمواجهة الأزمة الاقتصادية والاجتماعية التي واجهها المسلمون في المدينة، فالمهاجرون قدموا من مكة تاركين بيوتهم وتجارتهم وأموالهم، وصاروا في المدينة بلا مأوى ولا أهل، وعلى الرغم من أن المسجد حلّ جزءًا من هذه المشكلة بشكل سريع حيث وفَّر المسكن لبعض المهاجرين، وكانت تأتيهم بعض المساعدات الغذائية، إلَّا أن رسول الله ﷺ وجد هذا حلًّا مؤقتًا، استمراره سيجعل المهاجرين عالة في المسجد ينتظرون أن يسعى عليهم غيرهم إما يعطي وإما يبخل، وستسوء حالتهم النفسية والخُلقية؛ فأمر رسول الله بالمؤاخاة وهي أن يتخذ كل أنصاري أخًا له من المهاجرين، يأويه في منزله، ويعمل معه في تجارته أو حقله.

وقد أسهم ذلك على سرعة تدريب المهاجرين على العمل في المدينة، ومعرفتهم بدروب الرزق فيها، فسرعان ما اعتمد المهاجرون على أنفسهم، وأصبحت لهم تجارتهم التي أغنتهم.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ.

فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ عَلِمَتِ الأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ، وَلِي امْرَأَتَانِ، فَانْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطَلِّقُهَا، حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتَهَا.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ.

فَلَم يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ[٤٤]، فَلَم يَلْبَثْ إلاَّ يَسِيرًا، حَتَّى جَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ[٤٥] مِنْ صُفْرَةٍ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**مَهْيَمْ**"[٤٦].

قَالَ: تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ.

فَقَالَ ﷺ: "**مَا سُقْتَ فِيهَا**".

قَالَ: وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ نَوَاةً مِنْ ذَهَبٍ.

فَقَالَ ﷺ: "**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**"[٤٧].

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ الْمُهَاجِرُونَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْنَا قَوْمًا أَبْذَلَ مِنْ كَثِيرٍ وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ مِنْ قَوْمٍ نَزَلْنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِم؛ لَقَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَئِ، حَتَّى لَقَدْ خِفْنَا أَنْ يَذْهَبُوا بِالْأَجْرِ كُلِّهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**لَا، مَا دَعَوْتُمُ اللهَ لَهُم، وَأَثْنَيْتُم عَلَيْهِم**"[٤٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَتَبَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَنْ يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُم[٤٩] وَأَنْ يَفْدُوا عَانِيَهُم[٥٠] بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ[٥١].

وقالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَآخَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ: "**تَآخَوْا فِي اللهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ**". ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ ﷺ: "**هَذَا أَخِي**".

فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ وَرَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ خَطِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ مِنَ الْعِبَادِ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ أَخَوَيْنِ.

(٤٤) **الأَقِطُ**: لَبَنٌ مُجَفَّفٌ يُطْبَخُ بِهِ كَالزُّبْدِ.
(٤٥) وَضَرٌ: أَثَرٌ مِنْ طِيبٍ لَهُ لَوْنٌ يَضَعُهُ مَنْ دَخَلَ عَلَى زَوْجَةٍ.
(٤٦) **مَهْيَمْ**: مَا شَأْنُكَ؟
(٤٧) صحيح البخاري، مناقب الأنصار، ٣.
(٤٨) سنن الترمذي، صفة القيامة، ٤٤. (قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ).
(٤٩) **يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُمْ**: يَشْتَرِكُوا فِي أَدَاءِ الدِّيَةِ.
(٥٠) **يَفْدُوا عَانِيَهُمْ**: يَشْتَرِكُوا فِي فِدَاءِ الأَسِيرِ.
(٥١) مسند الإمام أحمد، ٢٥٨/٤.

وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ﷺ، أَسَدُ اللهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ ﷺ وَعَمّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَزَيْدُ ابْنُ حَارِثَةَ ﷺ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخَوَيْنِ، وَإِلَيْهِ أَوْصَى حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ حَيْنَ حَضَرَهُ الْقِتَالُ إنْ حَدَثَ بِهِ حَادِثُ الْمَوْتِ.

وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو الْجَنَاحَيْنِ الطَّيّارُ فِي الْجَنّةِ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، أَخَوَيْنِ، وَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمئِذٍ غَائِبًا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، أي تحسُّبًا لعودته.

وَبِلَالٌ مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ، مُؤَذّنُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَبُو رُوَيْحَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرّحْمَنِ الْخَثْعَمِيّ أخوين.

واستمرت هذه الأخوة فيما بعد في حياة الصحابة.

فلَمّا دَوّنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ ﷺ الدّوَاوِينَ بِالشّامِ، وَكَانَ بِلَالٌ قَدْ خَرَجَ إِلَى الشّامِ، فَأَقَامَ بِهَا مُجَاهِدًا، فَقَالَ عُمَرُ لِبِلَالٍ: إِلَى مَنْ تَجْعَلُ دِيوَانَك يَا بِلَالُ؟

قَالَ: مَعَ أَبِي رُوَيْحَةَ لَا أُفَارِقُهُ أَبَدًا، لِلْأُخُوّةِ الّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَقَدَ بَيْنَهُ وَبَيْنِي، فَضَمّ إلَيْهِ وَضُمّ دِيوَانُ الْحَبَشَةِ إِلَى خَثْعَمَ، لِمَكَانِ بِلَالٍ مِنْهُم، فَهُوَ فِي خَثْعَمَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ بِالشّامِ(٥٢).

---

(٥٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٥٠٤/١-٥٠٧.

ثالثًا: توقيع الوثيقة وموادعة اليهود

إن من صور التعايش في المدينة قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها أن كان أول من بشّر بقدومه إليها يهودي.

يروي ابن إسحاق عن الأنصار أنهم قالوا: لَمّا سَمِعْنَا بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ مَكّةَ، وَتَوَكّفْنَا قُدُومَهُ كُنّا نَخْرُجُ إذَا صَلّيْنَا الصّبْحَ إلَى ظَاهِرِ حَرّتِنَا نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَوَاللهِ مَا نَبْرَحُ حَتّى تَغْلِبَنَا الشّمْسُ عَلَى الظّلَالِ، فَإِذَا لَم نَجِدْ ظِلًّا دَخَلْنَا، وَذَلِكَ فِي أَيّامٍ حَارّةٍ.

حَتّى إذَا كَانَ الْيَوْمُ الّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَلَسْنَا كَمَا كُنّا نَجْلِسُ حَتّى إذَا لَم يَبْقَ ظِلٌّ دَخَلْنَا بُيُوتَنَا.

وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْنَ دَخَلْنَا الْبُيُوتَ فَكَانَ أَوّلُ مَنْ رَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَقَدْ رَأَى مَا كُنّا نَصْنَعُ وَأَنّا نَنْتَظِرُ قُدُومَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا؛ فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا بَنِي قَيْلَةَ، هَذَا جَدُّكُم قَدْ جَاءَ(٥٣).

كتابة دستور المدينة:

منذ عقود عديدة والعالم كله يسعى بدوله ومؤسساته ومنظماته إلى تحديد الأسس والقواعد التي تنظم حقوق الأفراد وواجباتهم داخل المجتمع، وترسم حدود العلاقات البينية بين الأفراد من جهة وبينهم وبين الدولة ومؤسساتها وهيئاتها من جهة أخرى، وهو ما سمي بحق المواطنة، والتي تقوم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات،

(٥٣) المصدر السابق، ١/٤٩٢.

دون النظـر إلـى الانتمـاء الدينـي أو العرقي أو المذهبي أو أي اعتبـارات أخرى، فالاعتبار الوحيد هنا هو الإنسانية والمواطنة.

ولقد عرف الإسـلام هذا الحق ورسّـخه منذ أربعة عشـر قرنًا حينما هاجر الرسـول ﷺ إلى المدينة وتكونت أول دولة إسلامية؛ فوضـع رسول الله ﷺ وثيقة المدينة كأول دستور للدولة المدنية في العالم، يحدد ملامح دولة الإسلام الجديدة.

قَـالَ ابْـنُ إِسْـحَاقَ: وَكَتَـبَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَـارِ، وَادَعَ فِيهِ يَهُودَ وَعَاهَدَهُم وَأَقَرَّهُم عَلَى دِينِهِم وَأَمْوَالِهِم، وَشَرَطَ لَهُم وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِم.

فسـكان المدينة: "أمة من دون الناس"، جميعهم شـركاء في نظام سياسـي واحد يضمن لهم حقوقًا متساوية، ويستظلون بحماية الدولة على قدم المساواة، مقابل أدائهم واجباتهم في الدفاع عنها.

لذا فقد وقّـع على هذه الوثيقة سـكان المدينة كلهم، ورضوا بها دسـتورًا حاكمًا بينهم، لِما وجدوه بها من عدل ومساواة.

وأهـم ما يميز هذه المعاهدة أنها كانت مفتوحة لكل من يريد الانضمام إليها، والمعاملة بمـا نصّـت عليـه مـن القبائـل المجاورة للمدينـة، وأنها كانـت معاهدة بالخيـار، بمعنى أنه لـم يكـن اليهود مجبرين على التوقيـع عليها والإقرار بما فيها.

بنود المعاهدة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَـذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّدٍ النّبِيّ ﷺ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُم فَلَحِقَ بِهِم وَجَاهَدَ مَعَهُم.

إنّهُم أُمّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النّاسِ، الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُونَ بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وَبَنُو عَوْفٍ كذلك، وَبَنُو سَاعِدَةَ وَبَنُو الْحَارِثِ وَبَنُو جُشَمٍ وَبَنُو النّجّارِ وَبَنُو عَمْرِو ابْنِ عَوْفٍ وَبَنُو النّبِيتِ عَلَى رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُم الْأُولَى.

وَكُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُم الْأُولَى.

وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُم تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا -الْمُفْرَحُ الْمُثْقَلُ بِالدّيْنِ وَالْكَثِيرُ الْعِيَالِ- بَيْنَهُم أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ.

وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ.

وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُم أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَإِنّ أَيْدِيَهُم عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِم.

وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ.

وَإِنّ ذِمّةَ اللّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِم أَدْنَاهُم، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُم موالي بعض دُونَ النّاسِ.

وَإِنّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِم.

وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ، لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ.

وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ أي يمنع ويكف بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هُدًى وَأَقْوَمِهِ.

وَإِنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسَهَا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ.

وَإِنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ بِهِ، إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ.

وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ.

وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ.

وَإِنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.

وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَإِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ

وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ.

وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ.

لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ، مَوَالِيهِمْ، وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ... وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ.

وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمِ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ، وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.

وَإِنّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ.

وَإِنّ الْجَارَ كَالنّفْسِ غَيْرَ مُضَارّ وَلَا آثِمٌ، وَإِنّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا.

وَإِنّـهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْـلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْـتِجَارٍ يُخَافُ فَسَـادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللّهِ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ ﷺ.

وَإِنّ اللّهَ عَلَى أَتْقَى مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ.

وَإِنّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا.

وَإِنّ بَيْنَهُم النّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنّهُم يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ.

وَإِنّهُم إِذَا دُعُوا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنّهُ لَهُم عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدّينِ، عَلَى كُلّ أُنَاسٍ حِصّتُهُم مِنْ جَانِبِهِم الّذِي قِبَلَهُم.

وَإِنّ الْبِرّ دُونَ الْإِثْمِ، لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ.

وَإِنّ اللّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَأَبَرّهِ.

وَإِنّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَآثِمٍ.

وَإِنّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ، وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ.

وَإِنّ اللّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرّ وَاتّقَى، وَمُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ ﷺ.

فقه الوثيقة:

١- التعايش السلمي بين الجميع: وقاعدته قطع أي تعاون عسكري مع أعداء الوطن وحلفائهم، ووجوب الدفاع عن الوطن، والنصرة تكون في الحق والعدل، لا في الظلم والإثم.

٢- توفير الأمن للجميع: الإنسان آمن في حرية اختياره، فمن رضي بالوثيقة وعقدها فهو آمن، ومن رفضها واعترض عليها فهو آمن أيضًا، لا يضطهد ولا يعتدى عليه ولا يُنْقَص حقًّا وجب له.

والإنسان حرٌّ في انتقاله من المدينة، وحرٌّ في إقامته فيها، ينعم بما ينعم به أهلها من حقوق، ويتحمل مثل ما يتحملون من المسؤوليات والواجبات، له ما لهم وعليه ما عليهم.

قال رسول الله ﷺ: "**فَهُوَ آمِنٌ**". وهي كلمة عامة وشاملة: فهو آمن على نفسه، وآمن على عِرضه، وآمن على كرامته، وآمن على عقيدته.

٣- الحرية الدينية للجميع: "**وَأَنَّ لِلْيَهُودِ دِينَهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينَهُمْ**".

٤- إقرار مبدأ المسؤولية الفردية: "**أَنَّهُ لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ اللهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ، وَأَنَّهُ لَا يَأْثَمُ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ وَأَنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ**".

فكل إنسان يتحمل مسؤولية جرمه وما كسبه، يُسْأَل عنه ويُؤَاخَذ به، لا يحل مؤاخذة الجماعة بجريرة الفرد.

قالت: "**إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ**".

قالت: "**وَإِنَّهُ لَم يَأْثَم امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ**".

ونصّت أيضًا الوثيقة على قاعدة المسؤولية الجماعية. بمعنى أن الجماعة كلها مسؤولة عن محاصرة الظالم أو الجاني ومحاكمته والحرص على نواله العقاب على ما اقترف من الجرم.

قالت: "وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُم أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنّ أَيْدِيَهُم عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِم".

وقالت: "وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافّةٌ، وَلَا يَحِلّ لَهُم إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ".

وقالت: "وَإِنّهُ لَا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ، وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ".

٥- وحلَّت الصحيفة تشابك العلاقات الإنسانية، فهناك علاقة القرابة والدّم، وهناك علاقة الدين، وهناك علاقة الجوار، وهناك علاقة المصالح المشتركة، فإن عاشت هذه العلاقات جميعها في وئام وتوافق استطاع الإنسان أن يحقق التعايش والسلام الاجتماعي.

٦- المرجعية في الدولة الإسلامية يجب أن تكون لله ولرسوله.

قالت: "وَإِنّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنّ مَرَدّهُ إِلَى اللهِ ﷻ وَإِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ".

وهذا الاحتكام توجبه عدة أمور:

أولًا: نصّ المعاهدة على ذلك. فعلى من يوقع على هذه الصحيفة أن يلتزم بما فيها، والنصّ على المرجعية وتحديد مصدر القضاء والفصل بين الناس لازم من لوازم التعايش، والنصّ عليه يمنع الصراع والخلاف بين الناس عند كل حادثة.

ثانيًا: معظم سكان المدينة مسلمون، مما يوجب عليهم طاعة الشريعة الإسلامية والنزول على حكمها والرضا به.

ومن المنطقي حينئذ أن يكون رسول الله ﷺ هو المرجعية لكل أهل المدينة والحاكم فيما يحدث من شجار أو اعتداء.

ثالثًا: أنزل الله ﷻ على رسوله قانونًا واضحًا ثابتًا منصوصًا عليه، يمكن للجميع معرفته، والنظر في اتباعه للعدل والمساواة.

واليهود لن يُلْزَمُوا بمقتضى هذه المعاهدة أن يرجعوا إلى قضاء رسول الله ﷺ وحكمه إلَّا فيما يحدث من خلاف أو اشتجار بينهم وبين المسلمين، وأما الفصل فيما بينهم في قضاياهم وأحوالهم الشخصية المنصوص عليها في دينهم فإنهم مخيرون لهم أن يحتكموا إلى التوراة ويقضوا بما فيها، يتولى الفصل في ذلك كبيرهم أو حبرهم، ولهم أن يحتكموا إلى رسول الله ﷺ ويقبلوا بحكمه ويلتزموا به.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٤٢/٥).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا قَتَلُوا قَتِيلًا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ أَدَّوْا إِلَيْهِم نِصْفَ الدِّيَةِ وَإِذَا قَتَلَ بَنُو قُرَيْظَةَ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ قَتِيلًا أَدَّوْا إِلَيْهِمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً. فَسَوَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمُ الدِّيَةَ كَامِلَةً.

فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما وقّعوا على وثيقة المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف وطالبت بالمساواة في الدية، واحتكمت لرسول الله ﷺ فسوَّى بينهم، طبقًا لما جاء في التوراة والقرآن، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٤٥/٥).

٧- الكرامة الإنسانية حق لكل إنسان، الْجَار كَالنَّفْسِ غَيْر مُضَارّ وَلَا آثِمْ.

فمن لم يدخل في المعاهدة أو الوثيقة فهو جار لأهلها لا يصيبه ضرر ولا إثم.

٨- أقرت الصحيفة مبدأ المساواة، وذمة الله واحدة، فمن أعطاها فهي محترمة من كل المؤمنين، سواء كان من أعطاها أعلاهم قدرًا ومنزلة أو أدناهم.

قالت: "وَإِنّ ذِمّةَ اللهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِم أَدْنَاهُم".

وقالت: "وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ".

كيف تعامل اليهود مع هذه الوثيقة؟

١- سعت جماعات اليهود على تأليب القبائل العربية والأحزاب من المشركين على رسول الله ﷺ، وحثتهم على مهاجمة المدينة وقتل المسلمين، وقد قام حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ وغيره من كبار اليهود بدور كبير في هذا الشأن.

٢- قام شعراء اليهود يُصرِّحون بعدائهم للمسلمين وحزنهم لهزيمة المشركين في بدر، فقد قاموا برثاء قتلى قريش، وعبَّروا في قصائدهم عن حقدهم على المسلمين وولائهم للمشركين.

ونظمت الشاعرة اليهودية أسماء بنت مروان كثيرًا من القصائد في هجاء الرسول ﷺ، وأنشد كعب بن الأشرف اليهودي في مكة عدة قصائد بعد غزوة بدر يحث فيها القرشيين على الأخذ بثأر قتلاهم، وقد أعاد إنشاد هذه القصائد في المدينة حين عودته إليها وفي حضور بعض المسلمين.

٣- وأما بنو قينقاع فقد أظهروا نقضهم للعهد وعرَّضوا بالحرب، قالوا للنبي ﷺ بعد غزوة بدر: يَا مُحَمَّدُ لَا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ وَاللهِ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَم تَلْقَ مِثْلَنَا(٥٤).

وناوشوا المسلمين بالفعل، فإنه قَدِمَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ بِجَلَبٍ لَهَا، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إِلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ فَعَمِدَ الصَّائِغُ إِلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إِلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتِ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ؛ فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتِ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُم وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ(٥٥).

(٥٤) ابن هشام: السيرة النبوية، ٥٥١/١.
(٥٥) المصدر السابق، ٤٨/٢.

فاشتعلت الحرب بين المسلمين واليهود، ولما انهزموا أمر النَّبِيّ ﷺ أن يُجْلوا عن المدينة وتُصادر أموالهم.

٤- وأما بنو النضير فقد بدؤوا الرسول بالغدر، فامتنعوا عن تنفيذ بنود المعاهدة التي صدَّقوا عليها، فقد طلب منهم النَّبِيّ ﷺ الاشتراك معه في دفع دية الرجلين الْعَامِرِيَّيْنِ اللَّذَيْنِ قَتَلَهُمَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، فرفضوا.

وقد تآمروا على قتل النَّبِيّ ﷺ غيلة، اجتمعوا على طرح الصخرة عليه.

ولما وجدوا رسول الله ﷺ نبذ إليهم عهد السلم وهَمَّ بقتالهم لِمَا فعلوه؛ أصرُّوا على موقفهم من عدم الوفاء بما نصَّت عليه المعاهدة من لزوم المشاركة المادية في دفع الديات، وكذلك لم يعتذروا أو ينكروا محاولتهم قتل رسول الله، ويطلبوا تجديد العهد معه.

ولقد حاصرهم رسول الله ﷺ فلما أحسّوا الهزيمة وقذف الله في قلوبهم الرعب؛ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُجْلِيَهُم وَيَكُفَّ عَنْ دِمَائِهِم عَلَى أَنَّ لَهُم مَا حَمَلَتِ الْإِبِلُ مِنْ أَمْوَالِهِم إِلَّا الْحَلْقَةَ، فَفَعَلَ ﷺ.

فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِم مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ الْإِبِلُ فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُم يَهْدِمُ بَيْتَهُ عَنْ نِجَافِ بَابِهِ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرِهِ فَيَنْطَلِقُ بِهِ، فَخَرَجُوا إِلَى خَيْبَرَ، وَمِنْهُم مَنْ سَارَ إِلَى الشَّامِ.

وقد غادروا المدينة في ستمائة بعير نقلوا عليها أحسن ما في بيوتهم، واسْتَقَلُّوا بِالنِّسَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْأَمْوَالِ مَعَهُم، الدُّفُوفُ وَالْمَزَامِيرُ وَالْقِيَانُ يَعْزِفْنَ خَلْفَهُم، بِزُهَاءٍ وَفَخْرٍ مَا رُئِيَ مِثْلُهُ مِنْ حَيٍّ مِنَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِم[٥٦].

فيبدو أنهم اعتبروا مصالحة رسول الله ﷺ لهم على هذه الشروط نصرًا لهم، فقد خرجوا من المعركة بنسائهم وصبيانهم وكل ما في بيوتهم، وخرّبوا لرسول الله كل ما وراءهم من دور وحوائط، فهم يظنون أن رسول الله قاتلهم من أجل الغنائم وهم قد فوتوها عليه.

(٥٦) المصدر السابق، ١٨٩/٢.

قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (سورة الحشر: ٥٩/٢).

٥- غدر بني قريظة بالمعاهدة: لقد كان غدر بني قريظة وخيانتهم لرسول الله والمؤمنين في المدينة أشد من غدر غيرهم من اليهود، فإنهم سعوا إلى خيانةٍ لو تَمَّتْ لهم لَفَنِيَ المسلمون عن آخرهم.

فقد كانوا يملكون حصنًا منيعًا أسفل المدينة، فنقضوا عهدهم مع رسول الله وتحالفوا مع أعدائه من المشركين الذين قدموا لغزو المدينة في غزوة الخندق، ولولا الدور الذي قام به الصحابي نعيم بن مسعود ﷺ لهلك المسلمون.

ولأوّل سابقة في التاريخ يَسْمَحُ صاحب السلطان والنفوذ والمنتصر، والمجني عليه في نفس الوقت؛ للمجرم والخائن والضعيف أن يختار قاضيه ومَنْ يحكم عليه بالعقوبة.

فقد سمح رسول الله ﷺ ليهود بني قريظة أن يختاروا شخصًا يحكم عليهم، فاختاروا سعد بن معاذ ﷺ، فقد كانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، فظنوا أنه سيحابيهم ويعفو عنهم أو يخفف عنهم العقاب، ولكنه على العكس من ذلك حكم عليهم بعقوبة الغدر والخيانة، وهي القتل والسّبي.

وبالرغم من قسوة العقوبة، والتي كان بنو قريظة يتوقعونها؛ استمروا في القتال دون طلب السلم أو العفو، وهم يعلمون ما يستحقونه من عقاب، ولم يطلبوا الاحتكام إلى قضاء سعد بن معاذ ﷺ إلَّا بعد أن أحسّوا الهزيمة في المعركة، وعلموا أن رسول الله ومن معه لن ينصرفوا عنهم حتى يحسموا أمرهم معهم.

قَالَتِ أمُّ المؤمنين السيدة عائشة ﷺ: بَعَثَ اللهُ ﷻ الرِّيحَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَكَفَى اللهُ ﷻ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا، فَلَحِقَ أَبُو سُفْيَانَ وَمَنْ مَعَهُ بِتِهَامَةَ، وَلَحِقَ عُيَيْنَةُ

ابْنُ بَدْرٍ وَمَنْ مَعَهُ بِنَجْدٍ، ورَجَعَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ فَتَحَصَّنُوا فِي صَيَاصِيهِم، وَرَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَضَعَ السِّلَاحَ.

فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَإِنَّ عَلَى ثَنَايَاهُ لَنَقْعُ الْغُبَارِ فَقَالَ: أَقَدْ وَضَعْتَ السِّلَاحَ وَاللهِ مَا وَضَعَتِ الْمَلَائِكَةُ بَعْدُ السِّلَاحَ، اخْرُجْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَقَاتِلْهُم.

قَالَتْ: فَلَبِسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأْمَتَهُ وَأَذَّنَ فِي النَّاسِ بِالرَّحِيلِ أَنْ يَخْرُجُوا، فَأَتَاهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُم خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً.

وفي رواية البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: "**لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**"(٥٧).

يلاحظ في رواية السيدة عائشة أن يهود بني قريظة كانوا مدركين لأمر خيانتهم لعهدهم مع رسول الله والمؤمنين؛ لأنهم وبمجرد أن ارتد مشركو قريش عن المدينة رجعوا إلى صياصيهم وتحصّنوا بها، وتحسّبوا لخوض المعركة مع النّبيّ ﷺ.

والأمر الآخر أنهم حوصروا خمسًا وعشرين ليلة، ولم يَرِدْ أنهم أحدثوا اعتذارًا أو طَلَبَ سلمٍ أو صلحٍ مع رسول الله، ولكن أخذتهم العزّة بالإثم، وظنّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ورسوله، وأن المؤمنين سيرتدون عنهم مغلوبين على أمرهم.

فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُم وَاشْتَدَّ الْبَلَاءُ قِيلَ لَهُمُ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِم أَنَّهُ الذَّبْحُ.

قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**".

فَنَزَلُوا وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ ﷺ فَأُتِيَ بِهِ عَلَى حِمَارٍ عَلَيْهِ إِكَافٌ مِنْ لِيفٍ قَدْ حُمِلَ عَلَيْهِ وَحَفَّ بِهِ قَوْمُهُ.

(٥٧) صحيح البخاري، صلاة الخوف، ٥.

فَقَالُوا -أيْ قومُهُ-: يَا أَبَا عَمْرٍو حُلَفَاؤُكَ وَمَوَالِيكَ وَأَهْلُ النِّكَايَةِ وَمَنْ قَدْ عَلِمْتَ.

فَلَمَّا طَلَعَ عَلَى رَسُولِ اللهِ؛ قَالَ ﷺ: "**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُم فَأَنْزِلُوهُ**".

فَكَانَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَقُولُونَ: فَقُمْنَا لَهُ عَلَى أَرْجُلِنَا صَفَّيْنِ، يُحَيِّيهِ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَ ﷺ: "**أَنْزِلُوهُ**"، فَأَنْزَلُوهُ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**احْكُمْ فِيهِم**".

قَالَ سَعْدٌ ﷺ: فَإِنّي أَحْكُمُ فِيهِم أَنْ تُقْتَلَ مُقَاتِلَتُهُم، وَتُسْبَى ذَرَارِيُّهُم، وَتُقْسَمَ أَمْوَالُهُم.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِم بِحُكْمِ اللهِ ﷻ وَحُكْمِ رَسُولِهِ**"(٥٨).

وحينما طلبت اليهود الاحتكام إلى سعد بن معاذ ﷺ كانوا يريدون الوقيعة بين الأوس والخزرج وبين النَّبيّ ﷺ وأصحابه، فقد كان سعدٌ زعيمَ الأوس، وفي تجنبهم لرسول الله وعدم رضاهم بالنزول على حكمه واختيارهم لسعد بن معاذ محاولة منهم خاسرة لإيقاع الفرقة والضغينة بين المسلمين.

وقد كان عدد مَنْ طُبِّقَ عليهم عقوبةُ القتل جزاءً لما بيتوه من خيانة وغدر من الرجال سِتَّمِائَةٍ أَوْ سَبْعَمِائَةٍ، وَالْمُكْثِرُ لَهُم يَقُولُ: كَانُوا بَيْنَ الثَّمَانمِائَة وَالتِّسْعِمِائَة(٥٩).

ومن النساء امرأة واحدة وَقَدْ عَرَفَتْ أَنَّهَا تُقْتَلُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَهِيَ الَّتِي طَرَحَتِ الرَّحَا عَلَى خَلَّادِ بْنِ سُوَيْدٍ، فَقَتَلَتْهُ؛ فَقَدْ كَانَ قَتْلُهَا قِصَاصًا.

فهذا يعني أن يهود بني قريظة لم يكونوا متحصنين في الحصون فقط، بل كانوا يحاربون المسلمين من ورائها، فيقذفونهم بالحجارة والسهام وغير ذلك.

(٥٨) مسند الإمام أحمد، ٢٩/٤٢.

(٥٩) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢٤٠/٢.

ولقد نقض بنو قينقاع وبنو النضير عهدهم مع رسول الله وحاربوه فلما انتصر عليهم لم يأمر فيهم بمثل ما أمر في بني قريظة.

وما ذلك إلَّا لأن بني قريظة ارتكبوا جريمة زائدة وهي الخيانة العظمى، والتي كان من شأنها لو أحاطت بالمسلمين أن قضت عليهم جميعًا.

وفي وقت تطبيق العقوبة على بني قريظة كانت هناك حالات عفوٍ فردية، مثل:

أ. أَتَى ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِلزُّبَيْرِ عَلَيَّ مِنَّةٌ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا، فَهَبْ لِي دَمَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**هُوَ لَكَ**".

فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ، فَهُوَ لَك.

قَالَ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ فَمَا يَصْنَعُ بِالْحَيَاةِ؟

قَالَ: فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ هَبْ لِي امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ.

قَالَ ﷺ: "**هُمْ لَكَ**".

قَالَ: فَأَتَاهُ؛ فَقَالَ: قَدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ، فَهُم لَكَ.

قَالَ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالْحِجَازِ لَا مَالَ لَهُم فَمَا بَقَاؤُهُم عَلَى ذَلِكَ؟

فَأَتَى ثَابِتٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَالَهُ.

قَالَ ﷺ: "**هُوَ لَكَ**".

فَأَتَاهُ ثَابِتٌ فَقَالَ: قَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَالَكَ، فَهُوَ لَك.

قَالَ: أَيْ ثَابِتٌ مَا فَعَلَ الَّذِي كَأَنَّ وَجْهَهُ مِرْآةٌ صِينِيَّةٌ يَتَرَاءَى فِيهَا عَذَارَى الْحَيِّ، كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ؟

قَالَ: قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ؟

قَالَ: قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ مُقَدِّمَتُنَا إِذَا شَدَدْنَا، وَحَامِيَتُنَا إِذَا فَرَرْنَا، عَزَّالُ بْنُ سَمَوْأَلَ؟

قَالَ: قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ الْمُجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بْنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بْنِ قُرَيْظَةَ؟

قَالَ: ذَهَبُوا قُتِلُوا.

قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُك يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِالْقَوْمِ، فَوَاللهِ مَا فِي الْعَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أَنَا بِصَابِرٍ لِلهِ فَتْلَةَ دَلْوٍ نَاضِحٍ حَتَّى أَلْقَى الْأَحِبَّةَ.

فَقَدَّمَهُ ثَابِتٌ فَضُرِبَ عُنُقُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَوْلَهُ أَلْقَى الْأَحِبَّةَ؛ قَالَ: يَلْقَاهُم وَاللهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا.

فإن الزبير القرظي طلب أن يُلْحَقَ بأصحابه ممن قتل، مما يعكس أن بني قريظة قد سيطرت عليهم فكرة أنهم ضحايا مظلومون مضطهدون شهداء، وليس الأمر كذلك، فلم يكونوا إلَّا خونة وغادرين، ومَا كَان يُصِيبُ النَّبِيَّ وأصحابَه من جَراء خيانتهم لَهُوَ أَبْشَعُ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَصَابَهُم.

ويؤكد ذلك عبارة تكررت على لسان زعيم اليهودِ حُيَيّ بْنِ أَخْطَبَ والذي شهد ما فعله بنو النضير وما فعله بنو قريظة، وقال في الموطنين: فَأَيُّ غِرَّةٍ نُصِيبُ مِنْهُمْ؟ هِيَ مَلْحَمَةٌ وَبَلَاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا.

وعند قَتْلِهِ كرَّر نفس العبارة قال: مَلْحَمَةٌ كُتِبَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وذلك حينما طَلَبَ من بني قريظة أن يتربَّصوا للنبي وأصحابه فيصيبوهم على غِرَّة.

ب. وإن سَلْمَى بِنْتَ قَيْسٍ أُمَّ الْمُنْذِرِ ﷺ من بني النجار، وَكَانَتْ إِحْدَى خَالَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَدْ صَلَّتْ مَعَهُ الْقِبْلَتَيْنِ وَبَايَعَتْهُ بَيْعَةَ النِّسَاءِ، سَأَلَتْهُ رِفَاعَةَ بْنَ سَمَوْأَلَ الْقُرَظِيَّ، وَكَانَ رَجُلًا قَدْ بَلَغَ، فَلَاذَ بِهَا، وَكَانَ يَعْرِفُهُم قَبْلَ ذَلِكَ، فَقَالَتْ:

يَا نَبِيَّ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، هَبْ لِي رِفَاعَةَ، فَإِنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ سَيُصَلِّي وَيَأْكُلُ لَحْمَ الْجَمَلِ. قَالَ: فَوَهَبَهُ لَهَا؛ فَاسْتَحْيَتْهُ؛ فأسلم وله صحبة.

فإن سلمى بنت قيس من بني النجار كانت تعرف رفاعة، فلما أصابه ما أصابه واستحق القتل لاذ بها يطلب منها الحماية والجوار، وجملة "ويأكل لحم الجمل" يبدو أنها كناية عن أنّ رفاعة سيكون مواليًا للمسلمين ولن يغدر أو يخون.

ويُلاحظ أن رسول الله وهبه لها أولًا، ولم يطلب منها أن ترغمه على الإسلام أو تفاوضه على الحياة مقابل الإسلام، ولكن كل ما في الأمر أن سلمى قالت له:

استحي من رسول الله وقد عفا عنك، وأنت تعرف صدقه؛ فَأَسْلَمَ بعد نجاته من القتل، ولم يسلم لكي ينجو.

جـ. وأسلم منهم في تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم[٦٠].

ويلاحظ قوله "قبل النزول".

فلم يكن إسلامهم خوفًا من القتل؛ لأنهم أسلموا قبل معرفة حكم سعد بن معاذ فيهم بالقتل، ويدل على أنهم أسلموا قبل النزول على حكم سعد أن اليهود تشاوروا في حصنهم.

فقال كعب بن أسد وقد كان كارهًا لنقض العهد مع رسول الله: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ قَدْ نَزَلَ بِكُم مِنَ الْأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُم خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيُّهَا شِئْتُم.

قَالُوا: وَمَا هِيَ؟

(٦٠) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٢٩١.

قَالَ: نُتَابِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُم فَتَأْمَنُونَ عَلَى دِمَائِكُم وَأَمْوَالِكُم وَأَبْنَائِكُم وَنِسَائِكُم.

ويبدو أن إسلام من أسلم كان استجابة لدعوة كعب بن أسد، والتي عرض فيها لاختيارات تؤكد أن حكم سعد بن معاذ ﷺ لم يكن صَدَرَ في شأنهم.

د. وقد نزل من معسكر بني قريظة عَمْرُو بْنُ سُعْدَى الْقُرَظِيُّ فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سُعْدَى.

وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِم بِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا.

فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَة حِينَ عَرَفَهُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ.

ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ؛ فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَى بَابَ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ، ثُمَّ ذَهَبَ فَلَم يُدْرَ أَيْنَ تَوَجَّهَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ شَأْنُهُ، فَقَالَ: "**ذَاكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ**"(٦١).

هـ. ولما تجمَّع الرجال البالغون من بني قريظة عند رسول الله ينتظرون تنفيذ ما حكم به سعد؛ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَحْمَالِ التَّمْرِ فَنُثِرَتْ عَلَيْهِم.

و. وقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَحْسِنُوا إِسَارَهُم وَقَيِّلُوهُم وَاسْقُوهُم حَتَّى يُبْرِدُوا فَتَقْتُلُوا مَنْ بَقِيَ، لَا تَجْمَعُوا عَلَيْهِم حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السِّلَاحِ**"، وَكَانَ يَوْمًا صَائِفًا(٦٢).

ز. تَوْبَةُ أَبِي لُبَابَةَ: بعث بنو قريظة إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الْأَوْسِ؛ لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا.

(٦١) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٢٣٨.

(٦٢) الواقدي: المغازي، ٢/٥١٣-٥١٤.

فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِم، فَلَمّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ وَجَهَشَ إِلَيْهِ النّسَاءُ وَالصّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقَّ لَهُم.

وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمّدٍ؟

قَالَ: نَعَم، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ إِنَّهُ الذَّبْحُ.

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَوَاللهِ مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتّى عَرَفْتُ أني قد خنت الله ورسوله ﷺ.

ثُمّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَم يَأْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتّى ارْتَبَطَ فِي الْمَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ.

وَقَالَ: لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيّ مِمّا صَنَعْت.

وَعَاهَدَ اللهَ: أَنْ لَا أَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا أُرَى فِي بَلَدٍ خُنْتَ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمّا بَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَبَرُهُ وَكَانَ قَدِ اسْتَبْطَأَهُ قَالَ: **"أَمَا إِنّهُ لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فعَل فَمَا أَنَا بِالّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ"**.

فنزلت على رسول الله ﷺ توبته، فَثَارَ النّاسُ إلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ فَقَالَ: لَا وَاللهِ حَتّى يَكُونَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ.

فَلَمّا مَرّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَارِجًا إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ(٦٣).

٦- وأما **يهود خيبر**: فقد أصبحت حصون خيبر ملجأً ومعسكرًا يَعُدُّ فيه اليهود للهجوم على المسلمين في المدينة، فقد تجمعت في حصونها قبائل اليهود من بني النضير وبني قينقاع.

فأرسل إليهم النّبيّ ﷺ فانتزع بعض حصونهم عنوة وبعضها صلحًا، فأمَّا ما فتح صلحًا بأن استسلم أهله وطلبوا الأمان بعد بدء الحرب، فقد بقوا في حصونهم وأرضهم

(٦٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٢٣٧.

يزرعونها مناصفة مع المسلمين، ونعموا في أرضهم بالحرية والكرامة، فظلوا على دينهم ومعابدهم ويمارسون شعائرهم وعبادتهم.

وكان من غنائم خيبر صحائف متعددة من التوراة، طلبها اليهود، فأمر النَّبِيّ ﷺ بتسليمها لهم، وكانت من بين السبايا ابنة زعيمهم حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ السيدة صفية، فاصطفاها النَّبِيّ ﷺ لمَّا أسلمت فأعتقها وتزوجها وصارت أم المؤمنين(٦٤).

فالأصل الذي عامل به النَّبِيّ ﷺ اليهود هو السلام والتعايش بالرحمة والتعاون، وقد حَرص النَّبِيّ ﷺ طول الوقت على هذا المبدأ، والذي جعل النَّبِيّ يبدّل معاملته لليهود من السلم إلى الحرب أنهم بدؤوه بالغدر والخيانة ونقض العهود، وأبرزوا له الكراهية، وحرضوا المشركين على قتاله، بل وحاولوا الاعتداء على ذاته الشريفة.

فهم الذين حكموا باستحالة بقائهم في المدينة جنبًا إلى جنب مع المسلمين؛ لأنهم لم يقبلوا ويتفهَّوا دعوة النَّبِيّ إلى السلام والتعاون والمشاركة.

(٦٤) نور الدين الحلبي: السيرة الحلبية، ٦٢/٣.

مسألة: السلام على أهل الذمة

كيف يلتقي المسلم مع الذميّ أو الكتابيّ خاصة؟

كره بعض الفقهاء ابتداءهم بالسلام لما رواه مسلم في صحيحه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "**لَا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**"(٦٥).

وفي حديث وكيع: "**إِذَا لَقِيتُمُ الْيَهُودَ**".

وفي حديث ابن جعفر عن شعبة قال فيه: "**أَهْلَ الْكِتَابِ**".

وفي حديث جرير: "**إِذَا لَقِيتُمُوهُم**"، وَلَم يُسَمِّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، رُوِيَ ذلك عن ابن عباس، وأبي أمامة، وابن أبي محيريز، وهو وجه لبعض أصحابنا من الشافعية حكاه الماوردي(٦٦).

قال القرطبي: قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟

قال: نعم، قال الله تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ (سورة المُمْتَحَنَة: ٦٠/٨).

وقال: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ**﴾، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكَ**﴾.

قال القرطبي: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة، وفي الباب حديثان صحيحان:

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "**لَا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى بِالسَّلَامِ، فَإِذَا لَقِيتُم أَحَدَهُم فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُ إِلَى أَضْيَقِهِ**"(٦٧).

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد: أن النَّبِيّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ، وَذَلِكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ.

---

(٦٥) صحيح مسلم، السلام، ١٣.

(٦٦) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ١٤/١٤٥.

(٦٧) صحيح مسلم، السلام، ١٣.

حَتَّى مَرَّ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ، وَفِيهِم عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنِ سَلُولٍ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ.

فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا.

فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ... الحديث.

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء؛ لأن ذلك إكرام والكافر ليس أهله.

والحديث الثاني يُجَوّزُ ذلك.

قال الطبري: ولا يُعَارَضُ مَا رَوَاهُ أسامةُ بحديث أبي هريرة؛ فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر، وذلك أن حديث أبي هريرة مَخْرَجُهُ العمومُ، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص.

وقال النخعي: إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام.

فبان بهذا أن حديث أبي هريرة "لَا تَبْدَؤُوهُم بِالسَّلَامِ" إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسلام من قضاء ذمام أو حاجة تَعْرِضُ لكم قِبَلَهُم أو حَقِّ صُحْبَةٍ أو جِوَارٍ أو سَفَرٍ.

قال الطبري: وقد رُوِيَ عن السلف أنهم كانوا يسلِّمون على أهل الكتاب، وفعله ابن مسعود بِدُهْقَانٍ صَحِبَهُ في طَرِيقِهِ.

قال علقمة: فقلت له يا أبا عبد الرحمن: أليس يُكْرَهُ أن يُبْدَؤوا بالسلام؟

قال: نعم، ولكن حَقُّ الصحبة.

وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إِلَّا سلَّم عليه. فقيل له في ذلك، فقال: أُمِرْنَا أَنْ نُفْشِيَ السلامَ.

وسئل الأوزاعي عن مسلم مَرَّ بكافر فسلَّم عليه فقال: إنْ سلَّمتَ فقد سلَّم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلِّم عليهم[68].

وأرى أن قول النَّبِيّ ﷺ فيه خصوصية، فهو يخص اليهود فقط من بني قريظة.

فإنهم لما غدروا بالعهد وخانوا وهمُّوا بإدخال المشركين من أسفل المدينة في غزوة الخندق، ورأى النَّبِيّ معاقبتهم على هذه الخيانة، وفَسْخَ العهدِ الذي بينه وبينهم بمجرد أن يَرُدَّ خطر الأحزاب الذين أحاطوا بالمدينة.

وأراد النَّبِيّ ﷺ -خلال فترة الحصار- من أصحابه أن ينبذوا إليهم عهدهم ويشعروهم في صورة رمزية بدنوِّ الحرب عليهم، ولم يُؤْثَرْ عن رسول الله أنه غلظ لأهل الكتاب عامة أو اليهود أو حتى المشركين عبدة الأوثان، فقد كان رحمةً، قال عنه ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القَلَم: ٦٨/٤) وقال عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٥٩).

فكان ﷺ يُحْسن جوارهم، ويَعُود مرضاهم، ويعزيهم في مصائبهم، فمن يتصور أن رسول الله في المدينة أو في مكة كان يزور اليهود أو المشركين فلا يسلم عليهم.

فمسألة الامتناع عن إلقاء السلام على بني قريظة كان يُشْبِهُ الإعلان بالحرب، وليس فيه حُكْمٌ عام يشمل أهل الكتاب جميعًا أو اليهود جميعًا، ولكن ربما يشمل من كان من أهل الذمَّة أو أهل العهد أشبه حاله حال بني قريظة من خيانة للعهد.

ولم يكن رسول الله ﷺ لينهى عن السلام على أهل الكتاب أو أهل الذمَّة ثم هو يرد عليهم السلام، بل يرد عليهم وهو يعلم أنهم يدعون عليه ويسيئون القول، ويُعَلِّمُ السيدة

(٦٨) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١١/١١٢.

عائشة ﵂ أن الرفق ما كان في شيء إِلَّا زانه، وأن الفحش والغلظة والعنف ما كان في شيء إِلَّا شانه.

وفي صحيح البخاري عن عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ يَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُم.

فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: عَلَيْكُم، وَلَعَنَكُمُ اللهُ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْكُم.

قَالَ ﷺ: "**مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكِ وَالْعُنْفَ وَالْفُحْشَ**".

قَالَتْ ﵂: أَوَلَم تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟!

قَالَ ﷺ: "**أَوَلَم تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟! رَدَدْتُ عَلَيْهِم، فَيُسْتَجَابُ لِي فِيهِم، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُم فِيَّ**"(٦٩).

وما فعل النَّبِيّ ﷺ ذلك، وما فعلت السيدة عائشة ﵂ مع هؤلاء اليهود ما فعلت إِلَّا أنهم قوم ماكرون بذيئون يلحنون بالسلام ليجعلوه دعاء.

وعلى الرغم من ذلك ما وجدوا عند رسول الله إِلَّا حسن الرد وحسن الخلق والرأفة والرحمة، فما بالنا لو أنهم كانوا مسالمين، أو كانت أخلاقهم طيبة، هل يُتَوَقَّعُ من رسول الله أو من المسلمين أن يتجنبوهم أو يغلظوا عليهم، ولا يوصف الامتناع عن السلام إِلَّا بالشدة والجفاء.

ويؤيد ما ذهبت إليه من تخصيص النهي عن السلام ببني قريظة لنبذ عهدهم:

١- ما رواه ابن ماجه عن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: قال ﷺ: "**إِنِّي رَاكِبٌ غَدًا إِلَى الْيَهُودِ، فَلَا تَبْدَؤُوهُم بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُم فقُولُوا: وَعَلَيْكُم**"(٧٠).

٢- وما رواه أحمد في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن أبي بصرة الغفاري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّا غَادُونَ إِلَى يَهُودَ، فَلَا تَبْدَؤُوهُم بِالسَّلَامِ، فَإِذَا سَلَّمُوا عَلَيْكُم فَقُولُوا: وَعَلَيْكُم**"(٧١).

---

(٦٩) صحيح البخاري، الأدب، ٣٨.
(٧٠) سنن ابن ماجه، الأدب، ١٣.
(٧١) مسند الإمام أحمد، ٢١٠/٤٥. (وصحّحه شعيب الأرناؤوط)

وذلك يجعلنا نخصص نهي رسول الله السابق بحادثة بني قريظة، خاصة أنه في القرآن الكريم من العموم الذي يؤيد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزُّخرُف: ٤٣/٨٨-٨٩).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة القَصَص: ٢٨/٥٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (سورة الفُرقَان: ٢٥/٦٣).

وثبت عن ابن عباس ﷺ أن النّبي ﷺ قال: "مَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ فَرُدَّ عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ مَجُوسِيًّا".

وبه قال الشعبي وقتادة[٧٢].

أما عن كيفية الرد نقول: عليكم، أو وعليكم.

وهذا يختلف بطبيعة الحال الذي يكون عليه من نَرُدُّ عليهم من السلم أو العداء.

قال النووي: إثباتها -أي الواو- أجود، فمعناه بدونها: عليكم ما تستحقونه.

وبها: أنهم إن لم يقصدوا دعاء علينا فهو دعاء لهم بالإسلام؛ فإنه مناط السلامة في الدارين، وإن قصدوا التعريض بالدعاء علينا، فمعناه: ونقول لكم وعليكم ما تريدون بها أو تستحقونه[٧٣].

(٧٢) ابن حجر: فتح الباري، ٤٢/١١.
(٧٣) انظر: المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، ٤٨٣/١.

رابعًا: معاملة المنافقين في المدينة

يعد النفاق والمنافقون خطرًا داهمًا وشرًّا مستطيرًا على الإنسان والمجتمع، لذا حذر الإسلام من النفاق وأهله، وأنزل الله ﷻ سورة باسمهم، تسمى بسورة المنافقون، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة المُنَافِقُونَ: ٦٣/١-٤).

ووجه خطرهم الشديد على الإسلام أنهم منسوبون إليه وهم في الحقيقة أعداؤه، ويخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد، لذا كانوا أعظم خطرًا وضررًا من الكفار المجاهرين.

فالمنافقون هم أهل الجبن والدسيسة، وقد لعبوا دورًا في الوقيعة بين المسلمين بعضهم بعضًا، وفي تقليب أحزاب الكفر عليهم، وإيذاء رسول الله ﷺ والإساءة إلى عرضه، فصبر رسول الله عليهم وعَلِمَ أن عوامل الهدم والانقراض تعمل فيهم، وأنهم سرعان ما سينتهي أمرهم وسيبطل مفعول مكرهم وشرهم.

عن جَابِرٍ ؓ قال: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا، فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا، حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ.

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ**".

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "**مَا شَأْنُهُم**". فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيّ الأَنْصَارِيَّ.

قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**".

وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ ابْنُ سَلُولَ: أَقَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا، لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ.

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: أَلَا نَقْتُلُ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا الْخَبِيثَ، لِعَبْدِ اللهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**"(٧٤).

وعَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيّ بْنِ سَلُول، وَكَانَ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِلَيْهِ يَجْتَمِعُونَ، هُوَ الَّذِي قَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزّ مِنْهَا الْأَذَلّ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ.

وَفِي قَوْلِهِ ذَلِكَ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ بِأَسْرِهَا.

وكان ابن سلول من النفر الذين كَانُوا يَدُسّونَ إِلَى بَنِي النّضِيرِ حَيْنَ حَاصَرَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَنْ اُثْبُتُوا، فَوَاللهِ لَئِنْ أُخرِجْتُم لَنَخْرُجَنّ مَعَكُم وَلَا نُطِيعُ فِيكُم أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُم لَنَنْصُرَنّكُم.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِم ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ (سورة الحشر: ٥٩/١١).

وَأَتَى عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنّهُ بَلَغَنِي أَنّك تُرِيدُ قَتْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ فِيمَا بَلَغَك عَنْهُ، فَإِنْ كُنْت لَا بُدَّ فَاعِلًا فَمُرْنِي بِهِ فَأَنَا أَحْمِلُ إِلَيْك رَأْسَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ الْخَزْرَجُ مَا كَانَ لَهَا مِنْ رَجُلٍ أَبَرّ بِوَالِدِهِ مِنّي، وَإِنّي أَخْشَى أَنْ تَأْمُرَ بِهِ

(٧٤) صحيح البخاري، المناقب، ٨.

غَيْرِي فَيَقْتُلَهُ فَلَا تَدَعُنِي نَفْسِي أَنْظُرُ إِلَى قَاتِلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ يَمْشِي فِي النَّاسِ فَأَقْتُلَهُ، فَأَقْتُلَ رَجُلًا مُؤْمِنًا بِكَافِرٍ، فَأَدْخُلَ النَّارَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**بَلْ نَتَرَفَّقُ بِهِ وَنُحْسِنُ صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ مَعَنَا**"(٧٥).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيّ لَمَّا تُوُفِّيَ جَاءَ ابْنُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِي قَمِيصَكَ أُكَفِّنْهُ فِيهِ، وَصَلِّ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ، فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَمِيصَهُ فَقَالَ: "آذِنِّي أُصَلِّي عَلَيْهِ"، فَآذَنَهُ(٧٦).

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَثَبْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيّ وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا -أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ-.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: "**أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ**".

فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ ﷺ: "**إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ فَغُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا**".

قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ انْصَرَفَ.

فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ (بَرَاءَةٌ): ﴿**وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (سورة التَّوبة: ٩/٨٤)(٧٧).

---

(٧٥) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٢٩٢.

(٧٦) صحيح البخاري، الجنائز، ٢٢.

(٧٧) صحيح البخاري، الجنائز، ٨٤، التفسير، ٩..

خامسًا: المشركون في المدينة.

انتشر الإسلام في المدينة بين الأوس والخزرج قبل مجيء رسول الله إليها، وظل ينتشر فيها بعد مجيئه، داخل المدينة وخارجها، ولكن بقي بعض أهل المدينة على شركهم حتى حين.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ إِذْ قَدِمَهَا شَهْرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ إِلَى صَفَرٍ مِنَ السَّنَةِ الدَّاخِلَةِ حَتّى بُنِيَ لَهُ فِيهَا مَسْجِدُهُ وَمَسَاكِنُهُ وَاسْتَجْمَعَ لَهُ إِسْلَامُ هَذَا الْحَيّ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَم يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلّا أَسْلَمَ أَهْلُهَا، إِلّا مَا كَانَ مِنْ خَطْمَةَ وَوَاقِفٍ وَوَائِلٍ وَأُمَيَّةَ وَتِلْكَ أَوْسُ اللهِ وَهُم حَيٌّ مِنَ الْأَوْسِ، فَإِنّهُم أَقَامُوا عَلَى شِرْكِهِم(٧٨).

والمشركون في المدينة كانوا أقليَّةً لم يُؤْثَر أنها شاغبت أو آذت جماعة المسلمين، ولم تتكتل في محاربة رسول الله كما فعل المنافقون أو اليهود، ولذلك لم يُؤْثَر أن رسول الله أو أحدًا من أصحابه تعرض إليهم بسوء أو اضطهاد أو تضييق.

(٧٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ١/٤٩٩.

النموذج الرابع

المدينة في عهدها الأخير

ليس نموذج المدينة في عهدها الأخير نموذجًا للمدينة أحادية الدين الخالية من أي تنوع في سكانها من حيث الديانة، فهذا النموذج ليس له وجود في أرض الواقع الإسلامي، الذي لا يعرف الإكراه على الدين، ولا يعرف تطهير الأرض ونصب محاكم التفتيش لاختبار عقائد سكانها، ولا تعرف النظم الإسلامية تهجير الناس وطردهم من أرضهم وأوطانهم، فالذين عمّروا الحضارة الإسلامية في دمشق وبغداد ومصر هم أصحاب الأرض الأصليون.

ومدينة سيدنا رسول الله ﷺ في عهدها الأخير وحتى وفاته كان بها يهود وكان بها منافقون، وكان اليهود يملكون المتاجر يبيعون ويشترون ويعيشون بسلام حتى إن رسول الله توفي ودرعه مرهونة عند بقال يهودي مقابل طعام أخذه منه، ولكن اليهود في هذا النموذج لم يعودوا تكتلًا منفصلًا في حصون حربية أو مناطق منعزلة مغلقة، بل صاروا أفرادًا مدنيين ومواطنين يعيشون داخل المدينة ويسيرون في دروبها وسط أهلها متمتعين بالحرية والمساواة.

١- اليهود في المدينة في عهدها الأخير

أ. روي أن رسول الله ﷺ أَتَى غُلَامًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَرِضَ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: "أَسْلِمْ".

فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَأَسْلَمَ.

فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: "**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**"(٧٩).

الشاهد في الحديث أن الأُسر اليهودية كانت موجودة في المدينة في عهدها الأخير، مختلطة ومندمجة مع الأُسر المسلمة، وكان رسول الله ﷺ يحرص على حسن الجوار وعيادة المرضى وغير ذلك من الواجبات الاجتماعية، يؤديها إلى المواطنين سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك.

والذي يدل على أن هذه الواقعة كانت في عهد المدينة الأخير أنَّ اليهود في عهد المدينة الأول كانوا شبه منعزلين في حياتهم الاجتماعية عن المجتمع المدني، يعيشون داخل الحصون والقلاع ولا يخرجون إلَّا للتجارة أو الزراعة، مما لا يسمح غالبًا باطلاع المسلمين على أحوالهم من مرض أو صحة أو فقر أو غنى، ولكنا في هذه الواقعة نجد رسول الله ﷺ علم بمرض غلام يهودي فذهب ليواسيه ويواسي أباه، وعندما عرض عليه الإسلام، لم يتردد أبوه في أن أمره بطاعة رسول الله ﷺ، ولم يفكر الرجل بضغوط أو انتقادات أو معاقبة قد تفرضها عليه جماعة اليهود هنا أو هناك.

(٧٩) صحيح البخاري، الجنائز، ٧٩.

أمر الرجل اليهودي ابنه وهو مشرف على الهلاك أن يطيع رسول الله ويقرّ بالإسلام، لم يفعل ذلك لسلطان رسول الله أو كراهة، فإن ابنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، والعجيب أن الرجل نفسه لم يُسْلِم ولم يقر لرسول الله بالنبوة، ولكنه آثر لابنه النجاة في لحظته الأخيرة، ولو كان الأمر فيه إكراه لكان الرجل أسلم أيضًا، وَلَنَقَلَ لنا الرواة ذلك.

ب. عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ. فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ.

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ.

فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ الْيَهُودِيَّ؛ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **"لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ"**(٨٠).

وفي الحديث أن اليهودي اسْتَبَّ ومسلمًا، وأن اليهودي احتكم إلى رسول الله، وأن رسول الله نهى عن التفرقة بينه وبين موسى عليه السلام.

وكل ذلك يعكس أن هناك حياة اجتماعية بين المسلمين واليهود في المدينة.

فإن غير المسلم يعيش في المجتمع الإسلامي بأمان الله وأمان الحاكم المسلم وأفراد المسلمين جميعًا، يحميه سلطان الشرع.

والشاهد في الحديث أنه كان هناك أفراد من اليهود يحتكمون في قضاياهم لرسول الله ﷺ واثقين في عدله ورحمته، وأن رسول الله ﷺ احترم الأديان واحترم الأنبياء وحرص على عدم انتقاص حرية العقيدة أو المساس بكرامة الإنسان.

(٨٠) صحيح البخاري، التوحيد، ٣١.

فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَم يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"(٨١).

وروى أبو داود عن جَمْعٍ من الصحابة أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوِ انْتَقَصَهُ أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٨٢).

جـ. حاول بعض الصحابة في عهد رسول الله ﷺ أن يتستر على سارق مسلم وأن يُفَوّتَ العقابَ عليه، وأن يُقَدِّمَ شخصًا آخر يهوديًّا ليعاقب مكانه.

فنزلت آيات ستٌّ في سورة النساء تدافع عن حق اليهودي في أن ينال العدالة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۞ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۞ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (سورة النِّساء: ٤/١٠٥-١١٢)

﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، قال الطبري: ﴿وَلَا تَكُنْ﴾ لمن خان مسلمًا أو معاهدًا في نفسه أو ماله ﴿خَصِيمًا﴾ تخاصم عنه وتدفع عنه من طَالَبه بحقه الذي خانه فيه(٨٣).

وأُنْزِلَتْ كُلُّهَا فِي قِصَّةٍ وَاحِدَةٍ.

وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ أَحَدُ بَنِي ظَفَرِ بْنِ الْحَارِثِ سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَكَانَتِ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيهِ دَقِيقٌ، فَجَعَلَ

(٨١) صحيح البخاري، الجزية، ٥.
(٨٢) سنن أبي داود، الخراج، ٣٣.
(٨٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٩/١٧٦.

الدَّقِيقُ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْقٍ فِي الجِرَابِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّارِ وَفِيهَا أَثَرُ الدَّقِيقِ، ثُمَّ خَبَّأَهَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ.

فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ وَحَلَفَ لَهُمْ: وَاللهِ مَا أَخَذَهَا وَمَا لَهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ.

فَلَمَّا أَنْ حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقِيقِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، وَشَهِدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ(٨٤).

وفي هذه القصة يتبين لنا كيف أرسى الإسلام مبادئ التعايش السلمي وأسَّس الوئام والعدل والتسامح في التعامل مع غير المسلمين في ظل المجتمع الإسلامي، فالدولة الإسلامية قامت على أساس المواطنة التي لا تمييز فيها بين إنسان وغيره بالدين أو اللون أو العرق.

والإسلام جاء لإحقاق الحق، وإقامة العدل، وإخراج الإنسان من الظلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة المَائِدَة: ٥/٨). بل ويجب تحري العدالة ولو كان حكمها ضد النفس أو الأقارب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (سورة النِّسَاء: ٤/١٣٥).

وقال رسول الله ﷺ: **"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُم أَنَّهُم كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِم أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا"**(٨٥).

كما أكد الإسلام على أن المساواة سمة من سماته وأصل من أصوله، فالناس في حكمه سواسية، وفي ظله تتلاشى الفوارق، وتزول كل الاعتبارات عدا التقوى، فلا تفاضل بين الناس في إنسانيتهم.

(٨٤) الواحدي: أسباب النزول، ص ١٨٣.
(٨٥) صحيح البخاري، الحدود، ١٢.

قال رسول الله ﷺ في خطبة الوداع: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى"(٨٦).

وفي ظل دولة المدينة التي أسسها رسول الله ﷺ أكّد على قيمة العدل بين فئات المجتمع على اختلاف أعراقهم وأديانهم، حتى إن الرسول ﷺ تعامل بالعدل والإحسان مع غير المسلمين في المدينة.

د. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، فَأَهْدَتْ لَهُ يَهُودِيَّةٌ بِخَيْبَرَ (فتح خيبر كان في المحرم من العام السابع من الهجرة) شَاةً مَصْلِيَّةً سَمَّتْهَا، فَأَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْهَا وَأَكَلَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: "ارْفَعُوا أَيْدِيَكُم فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ". فَمَاتَ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ الأَنْصَارِيُّ فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ: "مَا حَمَلَكِ عَلَى الَّذِي صَنَعْتِ". قَالَتْ: إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَم يَضُرَّكَ الَّذِي صَنَعْتُ وَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ. فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقُتِلَتْ(٨٧).

ولم يأخذ رسول الله ﷺ اليهود جميعًا بجريرة هذه المرأة التي حاولت قتله وأصحابه بالسّم، ولم يطرد يهود خيبر وقد أبقاهم في أرضهم يزرعونها بعد فتح حصنهم.

ويقال: إن هذه المرأة هي أخت مَرْحَب وياسر اليهوديين اللَّذَيْنِ قُتِلَا في مبارزة في فتح خيبر.

وقد دبَّرت الأمر فسألت: أَيّ عُضْوٍ مِنَ الشّاةِ أَحَبّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

فَقِيلَ لَهَا: الذّرَاعُ. فَأَكْثَرَتْ فِيهَا مِن السّمّ.

وسَمّتْ سَائِرَ الشّاةِ ثُمّ جَاءَتْ بِهَا؛ فَلَمّا وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَنَاوَلَ الذّرَاعَ فَلَاكَ مِنْهَا مُضْغَةً فَلَم يُسِغْهَا، وَمَعَهُ بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، قَدْ أَخَذَ مِنْهَا كَمَا أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

(٨٦) مسند الإمام أحمد، ٣٨/٤٧٤.
(٨٧) سنن أبي داود، الديات، ٦.

فَأَمّا بِشْـرٌ فَأَسَـاغَهَا؛ وَأَمّا رَسُـولُ اللهِ ﷺ فَلَفَظَهَا، ثُمّ قَالَ ﷺ: "**إنّ هَذَا الْعَظْمَ لَيُخْبِرُنِي أَنّهُ مَسْمُومٌ**"، ثُمّ دَعَا بِهَا، فَاعْتَرَفَتْ.

فَقَالَ ﷺ: "**مَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ؟**"

قَالَت: بَلَغْتَ مِنْ قَوْمِي مَا لَم يَخْفَ عَلَيْك، فَقُلْت إنْ كَانَ مَلِكًا اسْتَرَحْتُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيُخْبَرُ.

قَالَ: فَتَجَاوَزَ عَنْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَمَاتَ بِشْرٌ مِنْ أَكْلَتِهِ الّتِي أَكَلَ(٨٨).

فقد عفا عنها رسول الله ﷺ وتجاوز عن محاولتها قتله، ولكنها أُخِذَتْ بعد ذلك قصاصًا ببشر بن البراء الذي مات من فوره بسبب السّمّ.

ولم يكن لهذا السّمِّ تأثير على رسول الله أبدًا، ومن رَوَى أن رسول الله حُمَّ بتأثير السّمِّ أو مات بسببه، فهو ظنٌّ منه خاطئ.

وذلك أن الله تعالى قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾ (سورة المائدة: ٥/٦٧).

وقـد عـاش رسـول الله ﷺ من بعد هذه الأكلة أربـع سـنوات وشـهرين، ولـم يظهر عليه بسـبب الأكلة أيّ أثر، ولـم يُرْوَ أن رسـول الله ﷺ كان يعاني في هذه السـنوات الأربـع التي خاض خلالها الوقائـع أي مرض أو تعب، فكيف يُؤَثِّرُ فيه السّمُّ فجأة بعد هذه السنوات؟!

هـ. وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ(٨٩).

فحتى وفاة رسول الله ﷺ كان هناك يهودي في المدينة يعمل بالتجارة، ولم يجد حرجًا فـي أن يأخـذ مـن رسـول الله ﷺ درعه رهنًا، ولم يجد رسـول الله حرجًـا في أن يعطيه إياه، فالحق أحق أن يتبـع.

(٨٨) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣٣٧/٢.
(٨٩) صحيح البخاري، الجهاد، ٨٩.

من كل ما سبق يتبين لنا جليًا أن المدينة في عهدها الأخير كان يعيش فيها اليهود أفرادًا وجماعات أيضًا، فقد أبقى الرسول ﷺ على يهود خيبر وهم أكبر تجمعات اليهود، أبقى عليهم يزرعون أرضهم وصالحهم على النصف من خراجها.

٢- جماعات المنافقين والمرتدين في المدينة في عهدها الأخير

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة المُمتحنَة: ١/٦٠).

كان المنافقون في هذه الفترة يمثّلون أكبر معارضة سياسية ودينية في المدينة، فقد كانوا يتآمرون على رسول الله ﷺ وأصحابه ليلًا ونهارًا، في أوقات السلم وأوقات الحرب، ولكن على الرغم من ذلك آثر رسول الله في معاملته معهم العفو والحلم والصبر.

قال ابن الطّلاع في أحكامه:

لم يقع في شيء من المصنفات المشهورة أنه ﷺ قَتَلَ مرتدًّا ولا زنديقًا[٩٠].

والأمثلة كثيرة على صبر النَّبِيّ ﷺ على أذى المنافقين وعدم توقيعه العقوبة عليهم، رغم كفرهم وردتهم، ورغم ما أتوا به من دسائس وخيانات.

من ذلك:

أ. مِرْبَعُ بْنُ قَيْظِيٍّ: وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْنَ أَجَازَ فِي حَائِطِهِ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ عَامِدٌ إِلَى أُحُدٍ:

لَا أُحِلُّ لَكَ يَا مُحَمَّدُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا، أَنْ تَمُرَّ فِي حَائِطِي، وَأَخَذَ فِي يَدِهِ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ: وَاللهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصِيبُ بِهَذَا التُّرَابِ غَيْرَكَ لَرَمَيْتُكَ بِهِ؛ فَابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ.

(٩٠) بدر الدين العيني: عمدة القاري، ٨٠/٢٤. (وابن الطلاع: محمد بن فرج أبو جعفر القرطبي مولى محمد بن يحيى البكري المالكي ولد سنة ٤٠٤هـ وتوفي سنة ٤٩٧هـ، له أحكام النَّبِيّ ﷺ ويسمى أيضًا أقضية رسول الله ﷺ).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "دَعُوهُ فَهَذَا الْأَعْمَى، أَعْمَى الْقَلْبِ، أَعْمَى الْبَصِيرَةِ".

وَأَخُوهُ أَوْسُ بْنُ قَيْظِيّ هُوَ الَّذِي قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ؛ فَأْذَنْ لَنَا فَلْنَرْجِعْ إِلَيْهَا.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (سورة الأحزاب: ١٣/٣٣).

مربع بن قيظي هو أحد المنافقين الذين أظهروا الإيمان بأفواههم وأضمروا الكفر، وفِعْلُه مع رسول الله ﷺ كُفر صَرَاح ورِدَّة ظاهرة لا تأويل فيها، ولم يقتله رسول الله ﷺ ولم يأمر بقتله، بل ولم يسمح لأصحابه أن يقتلوه، واكتفى بأن وَسَمَهُ بعمى القلب والبصيرة.

ب. ورُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ فَأَصَابَهُ وَعَكٌ، فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي؛ فَأَبَى، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي؛ فَأَبَى، فَخَرَجَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَتَنْصَعُ طِيبَهَا".

ظَاهِرُهُ أَنَّهُ سَأَلَ الْإِقَالَةَ مِنَ الْإِسْلَامِ وَبِهِ جَزَمَ عِيَاضٌ(٩١).

تركه رسول الله ﷺ يَرْحَل دون أن يأمر أصحابه أن يقتلوه أو يتتبعوه أو يراقبوه حتى إنْ أصرَّ على الرّدة قتلوه.

جـ. ويحكي القرآن الكريم عن جماعة من اليهود، كانوا يترددون بين الكفر والإسلام ليفتنوا المؤمنين عن دينهم ويردوهم عن الإسلام.

فقال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٧٢/٣).

وقد كانت هذه الردة الجماعية في المدينة، والدولة الإسلامية قائمة ورسول الله ﷺ حاكمها، ومع ذلك لم يعاقب هؤلاء المرتدين الذين يَرُومُون فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عنه.

(٩١) ابن حجر: فتح الباري، ٢٠٠/١٣. (والحديث في صحيح البخاري، الأحكام، ٤٥)

د. وكان رسول الله ﷺ يتعايش مع أشرِّ الناس ويلطف بهم ويبشّ لهم حتى يتجنب فحشهم وأذاهم، وهذا من باب وأد الشر داخل صاحبه قبل أن يُظْهِره ويُعْلِنَهُ.

فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: "**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**".

فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إِلَيْهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَحَّاشًا، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**"(٩٢).

هـ. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ لَم تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا.

قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ وَأَقْرَعَ بْنِ حَابِسٍ وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعُ إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ.

فَقَالَ ﷺ: "**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**".

قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ.

قَالَ ﷺ: "**وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ**".

قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ.

قَالَ ﷺ: "**لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي**".

فَقَالَ خَالِدٌ ﷺ: وَكَم مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ.

(٩٢) صحيح البخاري، الأدب، ٣٨.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنِّي لَم أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ، وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُم".

ثـم قَـالَ: ثُـمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهْوَ مُقَفٍّ فَقَـالَ: "إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِيءِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُم، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ"[٩٣].

و. وعلـى الرغـم مـن علمه ﷺ بأسـماء المنافقين عن طريق الوحي؛ لأنـه أُمِرَ ألّا يصلي عليهـم أو يسـتغفر لهـم، وأمـر بمجاهدتهم والغلظـة معهم، فلا بد أنـه كان يعلمهم وأُخْبِرَ بحالهم وأسمائهم من قِبل الوحي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة التوبة: ٩/٧٣).

إلَّا أنَّ رسـول الله ﷺ لم يصرِّح بأسـمائهم ولم يفضح شـأنهم ولم يُشَـهِّرْ بهم طمعًا منه وأملًا فـي أن يعـودوا إلـى حظيرة الإسـلام، وهـذا أيضًا من هدي القـرآن الكريم الذي لم يصرح بأعيان المنافقين بل كان يقول: "وَمِنْهُمْ مَنْ"، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ (سورة التوبة: ٩/٤٩).

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْـتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُـوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ (سورة مُحَمَّد: ٤٧/١٦).

وأَسَـرَّ النَّبِـيّ ﷺ بعـد موتـه إلـى حافـظ سـرِّه حذيفـة بـن اليمـان بأسـماء المنافقين حتى لا يُصَلَّى عليهم ولا يُدْفَنُوا في مقابر المسلمين.

وكذلـك مـات رسـول الله ﷺ، وكان فـي المدينـة منافقون، وقد أعلمه الله ﷻ بأسـمائهم جميعًـا، ولكنـه لـم يأمر بقتلهم أو نفيهم، ولم يُشِـعْ أسـماءهم، بل أَسَـرَّ بهـا؛ وذلك حتى لا يتعرضوا إلى الاضطهاد أو التضييق.

وهكذا تعامل الرسول ﷺ مـع جميـع رعايا الدولة الإسلامية في المدينة، رغم ما يكنّه له بعضهم من عداء وكراهية، وما يبطنونه من حقد دفين.

(٩٣) صحيح البخاري، المغازي، ٦٢؛ صحيح مسلم، الزكاة، ١٤٢.

عاملهم بالرفق واللين حينًا وبالغلظة والشدة حينًا آخر؛ مقدمًا نموذجًا فريدًا للعالم أجمع على التعايش السلمي مع جميع أفراد المجتمع دون تأجيج للفتنة، وتنكيل بالخصوم.

وهو الأمر الذي يجب على المسلمين اتباعه كي لا يشقّوا وحدة صفِّ الأمة في وقت هي في أمسّ الحاجة إلى الوحدة، وفي وقت يحاول أعداؤها زرع الفتنة وبثّ الوهن بين أبنائها.

تلك هي الأسوة الحسنة في هذه النماذج التي قدمها الرسول ﷺ في التعامل مع الآخر، إنه التعايش والحذر، وحفظ وحدة الأمة وحماية أمنها واستقرارها.

٣- سياسة رسول اللَّه ﷺ في التعايش مع الآخر خارج المدينة

أ. سياسته ﷺ مع المشركين المحاربين من قريش بعد الخندق

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه قاصدين مكة محرمين يسوقون هديهم إلى البيت الحرام يبتغون العمرة، لا يحملون سلاحًا، ولا يرومون حربًا.

فبأي شيء قابلتهم قريش وكيف قابلهم رسول الله ﷺ؟

١- صلح الحديبية

خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي آخِرِ سَنَةِ سِتٍّ فِي ذِي الْقِعْدَةِ مُعْتَمِرًا، لَا يُرِيدُ حَرْبًا، وَسَاقَ مَعَهُ الهدي سبعين بَدَنَةً، وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَمِائَة رَجُلٍ، فَكَانَتْ كُلّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشَرَةِ نَفَرٍ.

وَاسْتَنْفَرَ رسولُ الله ﷺ الْعَرَبَ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَوَادِي مِنَ الْأَعْرَابِ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ، وَهُوَ يَخْشَى مِنْ قُرَيْشٍ الَّذِي صَنَعُوا، أَنْ يَعْرِضُوا لَهُ بِحَرْبٍ أَوْ يَصُدُّوهُ عَنِ الْبَيْتِ؛ فَأَبْطَأَ عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ لَحِقَ بِهِ مِنَ الْعَرَبِ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ وَأَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ لِيَأْمَنَ النَّاسُ مِنْ حَرْبِهِ، وَلِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهُ إِنَّمَا خَرَجَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ وَمُعَظِّمًا لَهُ.

وَتَجَنَّبَ الرَّسُولُ لِقَاءَ قُرَيْشٍ، حتى إذا كان بعسفان لقيه بسر بن سفيان الكعبي، فقال:

يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قدموها إلى كراع الغميم.

فقال رسـول الله ﷺ: "يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمْ الْحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ؛ فَإِنْ هُم أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ؛ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشٌ! وَاللهِ إِنِّي لَا أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ".

ثم قال ﷺ: "مَنْ رَجُلٌ يَخْرُجُ بِنَا عَلَى غَيرِ طَرِيقِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا".

فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله.

فسلك بهم طريقًا وعرًا بين شِعاب شقّ على المسلمين السير فيه، حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي.

ورأى النَّبِيّ ﷺ أن من الضرورة إرسال مبعوث خاص من جانبه إلى قريش يبلغهم نواياه السلميَّة وعدم رغبته في القتال، وأنه جاء معظمًا للبيت، سائقًا للهدي، راغبًا في أداء العمرة، ثم الرجوع إلى المدينة.

فأرسل رسول الله ﷺ خراشَ بن أمية الخزاعي، وحمله على جمل يقال له: "الثعلب". فلما دخل مكة عقرت قريش بعيره وهمّت بقتله فمنعهم الأحابيش، فعاد خراش بن أمية إلى رسول الله ﷺ.

فأرسل عثمان بن عفان ﷺ؛ لأن له قبيلة تحميه من أذى المشركين، فَاحْتَبَسَتْهُ قُرَيْشٌ عِنْدَهَا، فَبَلَغَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ قَدْ قُتِلَ.

فَقَالَ ﷺ: "لَا نَبْرَحُ حَتَّى نُنَاجِزَ الْقَوْمَ".

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْبَيْعَةِ، فَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنَّ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَمْرِ عُثْمَانَ بَاطِلٌ.

فقَالَ ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُم إِيَّاهَا".

وَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ، اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم كِتَابًا.

فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**".

قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ. كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ.

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**".

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "**هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**".

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**".

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "**عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ**".

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَكَتَبَ.

فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ، إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا.

قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا.

فَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ.

فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "**إِنَّا لَم نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ**".

قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَم أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**فَأَجِزْهُ لِي**".

قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ.

قَالَ ﷺ: "**بَلَى، فَافْعَلْ**".

قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ.

قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ.

قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ، وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟

قَالَ ﷺ: "**بَلَى**".

قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟

قَالَ ﷺ: "**بَلَى**".

قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟

قَالَ ﷺ: "**إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهْوَ نَاصِرِي**".

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَصْحَابِهِ: "**قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا**". قَالَ: فَوَاللهِ مَا قَامَ مِنْهُم رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَم يَقُم مِنْهُم أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ.

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ ﷺ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّم أَحَدًا مِنْهُم كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ.

فَخَرَجَ فَلَم يُكَلِّم أَحَدًا مِنْهُم، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ.

فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ؛ قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُم يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُم يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَهْدَى عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ فِي هَدَايَاهُ جَمَلًا لِأَبِي جَهْلٍ فِي رَأْسِهِ بَرَّةٌ مِنْ فِضَّةٍ يَغِيظُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ(٩٤).

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَهَاجَرَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعِيطٍ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فَخَرَجَ أَخَوَاهَا عِمَارَةُ وَالْوَلِيدُ ابْنَا عُقْبَةَ حتى قدما على رسول الله ﷺ يَسْأَلَانِهِ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيْهِمَا بِالْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ فِي الْحُدَيْبِيَةِ، فَلَم يَفْعَلْ، أَبَى اللهُ ذَلِكَ(٩٥).

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ حُسْن التفاوض والتفكير المستقبلي، فقد وافق على صلح الحديبية على ما فيه من تنازلات؛ ليفكَّ الحصار الجنوبي عن المدينة؛ حيث اتفق المشركون في الجنوب واليهود في الشمال في حصن خيبر على سحق المدينة المنورة بالزحف عليها من كل جهة، فكان صلح الحديبية خطوة لتنحية المشركين وإبطال اتفاقهم مع اليهود.

فهل يجلس المسلمون في المدينة في انتظار توحد طرفي الكماشة في الهجوم عليهم، أم يخرجون لملاقاة طرف، فيهبّ الطرف الآخر عليهم، فيحاصرهم؟

فكانت حكمة النَّبِيّ ﷺ وعبقريته العسكرية في أن بادر بالتوجه إلى مكة راغبًا في سلمها راغبًا في العمرة إلى بيت الله الحرام، فإن تصدت له قريش وهجمت عليه تكون سبَّة لها وعارًا عليها بين العرب، ويكون له طريق العودة إلى المدينة، وكان النَّبِيّ يعلم أن جبن اليهود سيمنعهم على أيّ حال أن يتركوا حصونهم ويهبوا للاشتراك في المعركة أو الإغارة على المدينة؛ ولذلك فإنه ﷺ حين همَّ بالخروج إلى مكة عام الحديبية وَرَّى عن ذلك بخيبر؛ فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر.

(٩٤) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ١/٦٣٩.
(٩٥) صحيح البخاري، الشروط، ١٥. (بزيادة بعض الأحداث من سيرة ابن هشام)

وإن هادنت قريش رسول الله ﷺ تحقق له مراده وفُكَّ الحصار عن المدينة، وأصبحت خيبر مقر تجمع اليهود عزلاء بلا معين، فإن أبدت خيرًا كان خيرًا، وإن ناوشت أو اعتدت أو أظهرت غدرًا وتربُّصًا كان لها من جموع المسلمين ما تستحق من النكال والخزي.

وقد حدث ما حذَّر منه رسول الله ﷺ، فإن يهود خيبر وحلفاءهم من أسد وغطفان همُّوا وجهَّزوا للهجوم على المدينة أثناء غياب رسول الله ﷺ والصحابة في الحديبية.

ولكنهم تراجعوا لمَّا علموا أن رسول الله عقد هدنة مع قريش وأنه عائد إلى المدينة.

فأنزل تعالى قوله: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٠)، أي كفَّ أهل مكة عن قتالكم في الحديبية.

وقيل: كفَّ اليهود وغيرهم عن إضرار نسائكم وأولادكم بينما خرجتم إلى الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٠)، أيْ تكون هذه الفعلة وهي كفُّ أيدي الناس عنكم آية للمؤمنين، يستدلون بها على النصر.

وعن قتادة ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾: عن بيوتهم، وعن عيالهم بالمدينة، حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر، وكانت خيبر في ذلك الوجه.

وهو اختيار الطبري؛ لأن كفَّ أيدي المشركين بالحديبية مذكور في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٤).

بينما يرى ابن القيم أن الآية تتناول وتشمل جميع من كان يتربّص بالنَّبِيّ وأصحابه حينئذ قَالَ: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾.

قِيلَ: أَيْدِيَ أَهْلِ مَكّةَ أَنْ يُقَاتِلُوهُم.

وَقِيلَ: أَيْدِيَ الْيَهُودِ حِينَ هَمُّوا بِأَنْ يَغْتَالُوا مَنْ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ الصّحَابَةِ مِنْهَا.

وَقِيلَ: هَمُّ أَهْلِ خَيْبَرَ وَحُلَفَاؤُهُمُ الّذِينَ أَرَادُوا نَصْرَهُم مِنْ أَسَدٍ وَغَطَفَانَ.

وَالصّحِيحُ تَنَاوُلُ الْآيَةِ لِلْجَمِيعِ.

وَقَوْلُهُ ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

قِيلَ: هَذِهِ الْفِعْلَةُ الَّتِي فَعَلَهَا بِكُم وَهِيَ كَفُّ أَيْدِي أَعْدَائِكُم عَنْكُم مَعَ كَثْرَتِهِم، فَإِنَّهُم حِينَئِذٍ كَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَهْلُ خَيْبَرَ وَمَنْ حَوْلَهَا، وَأَسَدٌ وَغَطَفَانُ وَجُمْهُورُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، أَعْدَاءً لَهُم، وَهُم بَيْنَهُم كَالشَّامَةِ، فَلَم يَصِلُوا إِلَيْهِم بِسُوءٍ.

فَمِنْ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَفُّ أَيْدِي أَعْدَائِهِم عَنْهُم فَلَم يَصِلُوا إِلَيْهِم بِسُوءٍ مَعَ كَثْرَتِهِم وَشِدَّةِ عَدَاوَتِهِم، وَتَوَلِّي حِرَاسَتِهِم وَحِفْظِهِم فِي مَشْهَدِهِم وَمَغِيبِهِم.

وقال ابن عباس ﷺ في ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾:

يعني عيينة بن حصن الفزاري، وعوف بن مالك النضري ومن كان معهما، إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر، والنبيّ ﷺ محاصر لهم، فألقى الله ﷻ في قلوبهم الرعب وكفهم عن المسلمين.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أيْ ولتكون هزيمتهم وسلامتكم آية للمؤمنين، فيعلموا أن الله يحرسهم في مشهدهم ومغيبهم.

ولذلك فإن صلح الحديبية كان نصرًا للمسلمين على كل حال.

قال تعالى: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٠)، وَفِيهَا قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ الصُّلْحُ الَّذِي جَرَى بَيْنَهُم وَبَيْنَ عَدُوِّهِم.

وَالثَّانِي: أَنَّهَا فَتْحُ خَيْبَرَ وَغَنَائِمُهَا، جَعَلَهَا اللهُ آيَةً لِمَا بَعْدَهَا وَجَزَاءً لِصَبْرِهِم وَرِضَاهُم يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَلِهَذَا خَصَّ بِهَا وَبِغَنَائِمِهَا مَنْ شَهِدَ الْحُدَيْبِيَةَ.

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ما كنَّا نعد الفتح إلَّا يوم الحديبية.

وعن البراء بن عازب ﷺ قال: تعدّون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعدُّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

يقول الإمام الزُّهري: فَمَا فُتِحَ فِي الْإِسْلَامِ فَتْحٌ قَبْلَهُ كَانَ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْقِتَالُ حَيْثُ الْتَقَى النَّاسُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ وَوُضِعَتِ الْحَرْبُ وَأَمِنَ النّاسُ بَعْضُهُم بَعْضًا، وَالْتَقَوْا فَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، فَلَم يُكَلَّمْ أَحَدٌ بِالْإِسْلَامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا دَخَلَ فِيهِ، وَلَقَدْ دَخَلَ فِي تِينِك السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرَ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَالدّلِيلُ عَلَى قَوْلِ الزُّهْرِيّ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فِي قَوْلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، ثُمّ خَرَجَ عَامَ فَتْحِ مَكّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسَنَتَيْنِ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ.

ولذلك فسّر العلماء قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (سورة الفتح: ٤٨/٢٧).

فَجَعَلَ قَبْلَ دُخُولِ الرَّسُولِ وَالمسلِمِينَ مَكَّةَ فَتْحًا قَرِيبًا، يُحَقِّقُهُ اللهُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ صُلْحُ الحُدَيْبِيَةِ وَفَتْحُ خَيْبَرَ.

٢- فتح خيبر

وتظهر خطة الرسول ﷺ جليَّة في أن يَحْرِم اليهود من المؤامرات التي حيكت بينهم وبين قريش في الكيد بالمسلمين والإغارة عليهم، في أنه ﷺ شَرَطَ على قريش في صلح الحديبية أن لا يتفقوا مع أحد يحارب رسول الله ﷺ، وهذا هو مفهوم الهدنة المنصوص عليها في الصلح.

ففي السنة السادسة للهجرة وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ إلى الحديبية، جمع سلّام بن أبي الحقيق، وهو من زعماء بني النضير وقد آلت إليه رئاسة يهود خيبر، وقد كان فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي النّضِيرِ وَنَفَرٍ مِنْ بَنِي وَائِلٍ وَهُمُ الّذِينَ حَزّبُوا الْأَحْزَابَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، خَرَجُوا حَتّى قَدِمُوا عَلَى قُرَيْشٍ مَكّةَ، فَدَعَوْهُم إِلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالُوا: إِنّا سَنَكُونُ مَعَكُم عَلَيْهِ حَتّى نَسْتَأْصِلَهُ.

جمع قبيلة غطفان وقبائل أخرى من المشركين، وأعد جيشًا قويًّا لمحاربة المسلمين.

وأثار الفتن والقلاقل وناوش المسلمين، فَقُتِلَ، فاختار أهل خيبر أسير بن زارم رئيسًا لهم فسعى إلى الحرب وحرض القبائل العربية ضد المسلمين.

فبادر رسول الله ﷺ إلى عمل يستميله به ويكف عن المسلمين عداوته فوجّه إليه وفدًا على رأسهم عبد الله بن رواحة، وبعد أن كلَّموه وافق على السير معهم إلى المدينة ومعه جماعة من اليهود، ولكن أسير ندم في الطريق وحاول الغدر بعبد الله بن رواحة وقتله، وبعدما اشتبك الفريقان قتله المسلمون هو وجماعته.

ولقد أرسلت خيبر إلى قبيلة غطفان، التي هبَّت لقتال النَّبِيّ ﷺ، يعرضون عليهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

وَلذلك بمجرد أن قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، مَكَثَ بِهَا عِشْرِينَ لَيْلَةً أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا، ثُمّ خَرَجَ غَازِيًا إِلَى خَيْبَرَ، وَكَانَ اللهُ ﷻ وَعَدَهُ إيّاهَا وَهُوَ بِالْحُدَيْبِيَةِ.

ولَم يَغِبْ عَنْ خَيْبَرَ مِنْ أَهْلِ الْحُدَيْبِيَةِ إِلَّا جَابِرٌ فَقَسَمَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَسَهْمِ مَنْ حَضَرَهَا.

"ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين -اليهود وقبائل نجد- حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء في المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامي المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولًا.

أمَّا كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي وبغطفان وأعراب البادية -الجناح الثالث

من الأحزاب- وكانوا هم أنفسهم يتهيؤون للقتال؛ فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النَّبِيّ ﷺ.

وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم -وهي قريش- كانت مجابهة للمسلمين.

فلما انتهت هذه المجابهة صفَا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب"[٩٦].

وَلمَّا أَرَادَ الرَّسُولُ ﷺ الخُرُوجَ إِلى خَيْبَر تَقَدَّمَ الأَعْرَابُ الذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ السَّيرِ مَعَ الرَّسُولِ إلى الحُدَيْبِيَةِ، يَطْلُبُونَ الإِذْنَ لَهُم بِالخُرُوجِ مَعَهُ إِلى خَيْبَرَ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَه ﷺ بِألَّا يَأْذَنَ لَهُم بِالخُرُوجِ مَعَهُ، لأَنَّهُم قَعَدُوا حِينَما كَانَتْ هُنَاكَ مَخَاطِرُ حَرْبٍ شَدِيدَةٍ، وَهُم يُرِيدُونَ الخُرُوجَ الآنَ لِيَحُوزُوا المَغَانِمَ السَّهْلَةَ.

قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (سورة الفتح: ٤٨/١٥).

وَهُم بِذلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ الرَّسُولَ وأَصْحَابَهُ، الذِينَ سَارُوا مَعَهُ إِلى الحُدَيْبِيَةِ، بِأَنَّ يَكُونَ لَهُم مَغْنَمُ خَيْبَرَ خَالِصًا لَا يُشَارِكُهُم فِيهِ أَحَدٌ.

٣- فتح مكة

إذًا جاء فتح خيبر ليفكَّ الحصار عن شمال المدينة، ثم جاء فتح مكة بعد نقض قريش لعهدها مع رسول الله ليفكَّ عن المدينة الحصار الجنوبي.

(٩٦) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص ٣٣٤.

سبب خروج النَّبِيّ ﷺ إلى مكة بجيشه فاتحًا

خَرَجَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ فِي نَفَرٍ مِنْ خُزَاعَةَ حَتّى قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، فَأَخْبَرُوهُ بما أصابهم من اعتداء بني بكر عليهم وما أعملوه فيهم من قتل ونهب -وكانت بنو خزاعة قد دخلت في حلف النَّبِيّ ﷺ في صلح الحديبية ودخلت بنو بكر في حلف قريش- وأخبروه كذلك بِمُظَاهَرَةِ قُرَيْشٍ بَنِي بَكْرٍ عَلَيْهِم. ثُمّ انْصَرَفُوا رَاجِعِينَ إِلَى مَكّةَ.

ورفض رسول الله ﷺ ما قَدِمَ به أبو سفيان بن حرب من سعي للاعتذار ومحاولته إثناء رسول الله عن عزمه على نصرة حلفائه من خزاعة؛ وذلك أنه تأكد لرسول الله ﷺ أن قريشًا لا تعرف للسلم قيمة وغلب على أهلها الحقد على الإسلام ودولته، وصارت مكة بما فيها غير مأمونة الجانب على دولة الإسلام، فجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة.

خروج النَّبِيّ ﷺ إلى مكة

خَرَجَ رسول الله لِعَشْرٍ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ سنة ثمان من الهجرة، فِي عَشَرَةِ آلَافٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ.

خرج رسول الله ﷺ متواضعًا لله ﷻ، ولم يظهر أي رغبة في الانتقام من أهل مكة الذين أمعنوا في إيذائه ومحاربته ومناهضة دعوته.

ولَمّا انْتَهَى إِلَى ذِي طُوًى وَقَفَ عَلَى رَاحِلَتِهِ مُعْتَجِرًا (ملتحفًا) بِشُقّةِ بُرْدٍ حِبَرَةٍ حَمْرَاءَ، وَإِنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيَضَعُ رَأْسَهُ تَوَاضُعًا لِلهِ حِينَ رَأَى مَا أَكْرَمَهُ اللهُ بِهِ مِنْ الْفَتْحِ، حَتّى إنّ عُثْنُونَهُ (لحيته) لَيَكَادُ يَمَسّ وَاسِطَةَ الرّحْلِ.

ولَمّا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَكّةَ وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ أَتَى أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ أبي قحافة يَقُودُهُ، فَلَمّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: "**هَلّا تَرَكْت الشّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتّى أَكُونَ أَنَا آتِيَهُ فِيهِ؟**"

شفقة منه ﷺ لكبر سنه وصعوبة سيره.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ هُوَ أَحَقّ أَنْ يَمْشِيَ إلَيْك مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إلَيْهِ أَنْتَ.

فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمّ مَسَحَ صَدْرَهُ ثُمّ قَالَ لَهُ: أَسْلِمْ؛ فَأَسْلَمَ.

تَخَوّفُ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ سَعْدٍ وَمَا أَمَرَ بِهِ الرّسُولُ

قَالَ سعد بن عبادة ﷺ وكان قائد جيش الفتح: الْيَوْمُ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ، الْيَوْمُ تُسْتَحَلّ الْحُرْمَةُ، الْيَوْمَ أَذَلّ اللهُ قُرَيْشًا.

فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْمَعْ مَا قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، مَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قُرَيْشٍ صَوْلَةٌ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: **"أَدْرِكْهُ فَخُذِ الرّايَةَ مِنْهُ فَكُنْ أَنْتَ الّذِي تَدْخُلُ بِهَا"**.

وقال رسول الله ﷺ: **"بَلِ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ، الْيَوْمَ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ قُرَيْشًا"**.

دور المرأة ومكانتها في فتح مكة

إن المرأة المسلمة لا يستطيع أحد أن يزايد على ما منحها الإسلام إياه من مكانة رفيعة واحترام، قَدَّرَ الإسلام ذمتها الخاصة وإرادتها السياسية الكاملة.

قَالَتْ أُمُّ هَانِئٍ ابْنَةُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أجَرْتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَحْمَائِي، فَأَدْخَلْتُهُمَا بَيْتًا، وَأَغْلَقْتُ عَلَيْهِمَا بَابًا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَتَفَلَّتَ عَلَيْهِمَا بِالسَّيْفِ.

قَالَتْ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمْ أَجِدْهُ، وَوَجَدْتُ فَاطِمَةَ، فَكَانَتْ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ زَوْجِهَا. قَالَتْ: فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَلَيْهِ أَثَرُ الْغُبَارِ، فَأَخْبَرْتُهُ.

فَقَالَ ﷺ: **"يَا أُمَّ هَانِئٍ، قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ، وَأَمَّنَّا مَنْ أَمَّنْتِ، فَلَا يَقْتُلْهُمَا"**.

ملاحظة:

ويُلاحظ في فتح مكة أمر مهم وهو أن رسول الله ﷺ لم يخرج إلى الناس من أهل مكة حتى اطمأنوا أنه لم يأمر فيهم بمكروه أو قتل أو انتقام، بل ذهب إلى بيته واغتسل ثم خرج إلى الناس، ولم يخاطبهم حتى أتى البيت فطاف به سبعًا.

قال ابن هشام: عَنْ صَفِيّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمّا نَزَلَ مَكّةَ، وَاطْمَأَنّ النّاسُ؛ خَرَجَ، حَتّى جَاءَ الْبَيْتَ فَطَافَ به سَبْعًا عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرّكْنَ بِمِحْجَنٍ فِي يَدِهِ.

فَلَمّا قَضَى طَوَافَهُ دَعَا عُثْمَانَ بْنَ طَلْحَةَ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ؛ فَفُتِحَتْ لَهُ فَدَخَلَهَا.

ثم قَامَ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ، فَقَالَ ﷺ: لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا كُلّ مَأْثُرَةٍ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدّعَى فَهُوَ تَحت قَدَمَيّ هَاتَيْنِ.

يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إنّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُم نَخْوَةَ الْجَاهِلِيّةِ وَتَعَظّمَهَا بِالْآبَاءِ، النّاسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣/٤٩).

ثُمّ قَالَ ﷺ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟"

قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

قَالَ ﷺ: "اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطّلَقَاءُ".

وقال رسول الله ﷺ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ".

فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِم وَإِلَى الْمَسْجِدِ.

فمنهم من آمن ومنهم من بقي على شركه، فراح رسول الله ﷺ يتألفهم ويحسن إليهم.

ثُمّ جَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ إلَيْهِ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَمِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ فِي يَدِهِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السّقَايَةِ صَلّى اللهُ عَلَيْك.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟"

فَدُعِيَ لَهُ، فَقَالَ ﷺ: "هَاكَ مِفْتَاحَك يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمُ يَوْمُ بِرّ وَوَفَاءٍ".

وكان رسول الله ﷺ يُقَدِّرُ حال من آمن من قريش، وكان حديث عهد بجاهلية، ومَن بقي على شركه.

فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**إِنِّي أُعْطِي قُرَيْشًا أَتَأَلَّفُهُم، لأَنَّهُم حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ**"(٩٧).

وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: "**يَا عَائِشَةُ لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ وَأَلْزَقْتُهُ بالأَرْضِ، وَجعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ**"(٩٨).

وروى مَالِكٌ في موطأه عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ نِسَاءً كُنَّ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُسْلِمْنَ بِأَرْضِهِنَّ وَهُنَّ غَيْرُ مُهَاجِرَاتٍ، وَأَزْوَاجُهُنَّ حِينَ أَسْلَمْنَ كُفَّارٌ، مِنْهُنَّ بِنْتُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَكَانَتْ تَحْتَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، فَأَسْلَمَتْ يَوْمَ الْفَتْحِ، وَهَرَبَ زَوْجُهَا صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ مِنَ الإِسْلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنَ عَمِّهِ وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ بِرِدَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَانًا لِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الإِسْلَامِ وَأَنْ يَقْدمَ عَلَيْهِ، فَإِنْ رَضِيَ أَمْرًا قَبِلَهُ، وَإِلَّا سَيَّرَهُ شَهْرَيْنِ.

فَلَمَّا قَدِمَ صَفْوَانُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِرِدَائِهِ نَادَاهُ عَلَى رُؤوسِ النَّاسِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ هَذَا وَهْبَ بْنَ عُمَيْرٍ جَاءَنِي بِرِدَائِكَ، وَزَعَمَ أَنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى الْقُدُومِ عَلَيْكَ فَإِنْ رَضِيتُ أَمْرًا قَبِلْتُهُ وَإِلَّا سَيَّرْتَنِي شَهْرَيْنِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ**".

فَقَالَ: لَا وَاللهِ لَا أَنْزِلُ حَتَّى تُبَيِّنَ لِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**بَلْ لَكَ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**".

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ هَوَازِنَ بِحُنَيْنٍ؛ فَأَرْسَلَ إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ يَسْتَعِيرُهُ أَدَاةً وَسِلَاحًا عِنْدَهُ فَقَالَ صَفْوَانُ: أَطَوْعًا أَم كَرْهًا؟

فَقَالَ ﷺ: "**بَلْ طَوْعًا**".

---

(٩٧) صحيح البخاري، فرض الخمس، ١٩.

(٩٨) صحيح البخاري، الحج، ٤٢.

فَأَعَارَهُ الأَدَاةَ وَالسِّلَاحَ الَّتِي عِنْدَهُ ثُمَّ خَرَجَ صَفْوَانُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ كَافِرٌ فَشَهِدَ حُنَيْنًا وَالطَّائِفَ، وَهُوَ كَافِرٌ وَامْرَأَتُهُ مُسْلِمَةٌ، وَلَم يُفَرِّق رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، حَتَّى أَسْلَمَ صَفْوَانُ وَاسْتَقَرَّتْ عِنْدَهُ امْرَأَتُهُ بِذَلِكَ النِّكَاحِ.

أَعْطَى رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ مِائَةً مِنَ النَّعَمِ ثُمَّ مِائَةً ثُمَّ مِائَةً.

قَالَ صَفْوَانُ: وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي، حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ(٩٩).

ويستفاد من أحداث الحديبية جميعها حتى فتح مكة؛ كيف نتعامل مع الأحداث، ونترك التسرع في الحكم على الأمور؛ لئلا ننزلق في مهاوي الفتنة؛ فتؤدي بنا إلى ما لا تحمد عقباه، في حين أنه يمكننا التغلب على ما يعتري المجتمع من مشكلات وأزمات بدراستها والوقوف على أسبابها، والصبر على غصص معالجتها، والنظر إلى مآلاتها، وهذا أحرى بأن نتغاضى عن صغائر الأمور وما يتبع ذلك من محاولات لإثارة الفتنة وإشاعة البلبلة في المجتمعات الآمنة، خاصة في أوقات ضعف الأمة وكثرة المتربصين بها.

ولقد ظهر في هذا النموذج المدني الثاني مبادئ للعلاقات الدولية في حال السلم، منها:

الانفتاح: ونقصد به التواصل والدعوة إلى التعاون والمشاركة في عمارة الأرض، وهذا المبدأ الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ (سورة المَائِدَةِ: ٥/٢).

مراعاة الجوار: إن العلاقات الدولية كالعلاقات الإنسانية يجب مراعاة الجوار فيها، فإن للجوار حقوقًا، وكل جسور تبنى للحوار والتعارف تبدأ من الجار.

(٩٩) صحيح مسلم، الفضائل، ٥٩.

دعم السلام: إن الأصل في تعامل المسلمين مع غيرهم هو السلم، ولذلك حرص النَّبِيّ ﷺ على دوام السلم والالتزام بالعهود فيه، فقد بَدَر من قريش عدةُ أمور دفعته لنبذ السلم ولكن تمسك به وما حدث في صلح الحديبية خير نموذج على ذلك.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

(سورة الْمُمْتَحَنَة: ٦٠/٨-٩).

ب. سياسته ﷺ في التعايش مع أهل الكتاب خارج المدينة

لقد عقد رسول الله ﷺ معاهدات كثيرة مع اليهود والنصارى خارج حدود دولة المدينة، سواء المقيمين داخل الجزيرة العربية أو خارجها.

فقد عقد ﷺ اتفاقية سلميَّة مع نصارى نجران عام (١٠هـ/٦٣١م)، ومع يهود فدك ودومة وأيلة وتيماء، ومع بني ضمرة من كنانة(١٠٠).

وكانت تلك الاتفاقيات تضمن لهم حكمًا إداريًّا ذاتيًّا، واستقلالًا عن دولة المدينة، وبمقتضاها كان بإمكانهم الاستمرار بتطبيق قوانينهم على أراضيهم، ولم يَرِدْ للجزية أيّ ذكر في هذه المعاهدات أو الاتفاقيات السلميَّة مع أهل الكتاب.

وكانت حياة الرسول ﷺ نموذجًا وقدوة في التعايش السلمي الذي يحفظ على الإنسان كرامته الإنسانية وحريته الدينية الكاملة.

فقد صَالَحَ رسولُ الله ﷺ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَقَامَهُم فِي شَطْرِ مَسْجِدِهِ يُؤَدُّونَ شَعَائِرَ دِينِهِم وَكَتَبَ لَهُم عَهْدًا جَاءَ فِيهِ:

"وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهِم جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللهِ عَلَى أَنْفُسِهِم وَمِلَّتِهِم وَأَرْضِهِم وَأَمْوَالِهِم وَغَائِبِهِم وَشَاهِدِهِم وَبِيَعِهِم، لَا يُغَيَّرُ أُسْقُفٌ عَنْ أَسْقُفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٌ عَنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وَلَا وَاقِفٌ عَنْ وَقْفَانِيَّتِهِ".

[وَيُرْوَى: وَلَا وَافِهٌ عَنْ وَفْهِيَّتِهِ، وَهُوَ الْقَيِّمُ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ صَلِيبُ النَّصَارَى].

وَأَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ شُهُودًا مِنْهُم أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَالأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

---

(١٠٠) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/٢٨٩، ٢/٨.

وكذلك نَصَّ فِي مُعَاهَدَتِهِ مَعَهُمْ:

"إِنَّ لَهُـم مَـا تَحْـتَ أَيْدِيهِـم مِـنْ قَلِيـلٍ وَكَثِيرٍ مِـنْ بِيَعِهِـم وَصَلَوَاتِهِـم وَرَهْبَانِيَّتِهِم، لَا يُحْشَـرُونَ وَلَا يُعْشَـرُونَ وَلَا يَطَـأُ أَرْضَهُـم جَيْشٌ، وَلَا يُغَيَّـرُ حَقٌّ مِـنْ حُقُوقِهِـم وَلَا سُـلْطَانِهِم وَلَا شَـيْءٌ مِمَّـا كَانُـوا عَلَيْـهِ مَا نَصَحُـوا وَأَصْلَحُوا فِيمَـا عَلَيْهِم غَيْرَ مُثْقَلِينَ بِظُلْمٍ وَلَا ظَالِمِينَ"(١٠١).

وأما العلاقات السّلميَّة مع الحبشة -الدولة المسيحية- فقد استمرت قرونًا دون معاهدة مكتوبة، وكان موقف المسلمين من الحبشة موقف الشكر والعرفان بالجميل لما قدمت للمسلمين في مهد الدعوة من إيواء للمضطهدين في مكة؛ واعتبر المسلمون الحبشة مصونةً فلم يتعرضوا لها حتى في أوج قوة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، وذلك لأنها دولة سالمت المسلمين. نعم، لم تقبل دعوته ولكنها لم تقف أمام دعوة الإسلام ولم تضطهد أهله، ولم تُغزْ على دولته أو تُناصرْ أعداءه(١٠٢).

(١٠١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ١/٢٦٦، ٣٥٨.

(١٠٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/٥٨٨.

ج. سياسته ﷺ في مقابلة الوفود العربية بعد الحديبية

إن تدبُّر فقه النَّبيّ ﷺ في التعاملِ مع الناس من مختلف القبائل ذوي الطبائع المختلفة، والمشارب المتباينة، والأحوال المتعددة في السلوك والفهم؛ ليمدنا بسيل من النقاط التي يمكن أن يبنى عليها الكثير في نماذج التعايش والتعامل مع الآخر، وكذلك يطلعنا على حكمة النَّبيّ، وسنته في التربية والتوجيه والدعوة والإصلاح، للصغير والكبير، للضعيف والقوي، للغني والفقير.

كان يقول لأصحابه: "**فَقِّهُوا إِخْوَانَكُمْ**".

وكان يتودد للوفود بالسؤال عن أرضهم وعن شرفائهم.

وإن تتبع الوفود من القبائل العربية على المدينة بعد صلح الحديبية، ودراسة أحوال تلك الوفود التي وفدتْ على النَّبيّ ﷺ؛ يُمكنها أنْ تمدَّنا بكمٍّ كبير من الفهم للعلاقات البينية التي تكونت داخل النموذج المدني الذي نَعِمَ فيه المجتمع بالاستقرار والأمن.

فإنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة، ثم انتصر على الروم في مؤتة، وأسلمت ثقيف وبايعت في حنين، جاءت الوفود إلى رسول الله ﷺ من كل حدب وصوب في الجزيرة العربية تعلن ولاءها وإيمانها.

ولقد تركت لنا تلك الأخبار والقصص منهجًا نبويًّا في تعامله ﷺ مع الوفود ومراعاته للنفسية البشرية وتربيته وتنظيمه؛ ما يفيدنا كثيرًا في النواحي السياسية والاجتماعية والتربوية...

كان النَّبيّ ﷺ يجيب على أسئلة كثيرة حول سلوكيات وتصرفات شائعة بين الوفود في أرضهم وقبائلهم، فكان رسول الله يحدد لهم الحلال من الحرام فيها.

وكان يتودد إليهم بالسؤال عن أرضهم وعن شرفائهم.

وأقبلت على النَّبِيّ ﷺ بعض الوفود وهي مشركة أو كتابية، ومن الوفود من رحلت عن المدينة وهي مُؤْثِرة الشرك على الإيمان، كوفد نجران الذي آثر البقاء على النصرانية، وكذلك امتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدخول في الإسلام.

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية، ويتعلمون ما شاء الله أن يتعلموه في المدينة قبل رجوعهم إلى مواطنهم.

١- وفد عبد القيس

وعبد القيس قبيلة عظيمة، تنتسب إلى عبد القيس بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان.

كانت مواطنهم بتهامة، ثم خرجوا إلى البحرين وبها بشر كثير من بكر بن وائل وتميم، فلما نزل بها عبد القيس زاحموهم في تلك الديار وقاسموهم في المواطن، وكانت غالبيتهم على النصرانية.

تحدث ابن عباس ﷺ عن قدومهم فقال: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ.

فَقَالَ ﷺ: "مَنِ الْوَفْدُ - أَوْ مَنِ الْقَوْمُ".

قَالُوا: رَبِيعَةُ.

فَقَالَ ﷺ: "مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ -أَوْ بِالْوَفْدِ- غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى".

ففي بداية لقائه ﷺ بالوفد يسألهم عن أنفسهم؛ حتى يتيح لهم الفرصة للتعريف عن أنفسهم بالكيفية التي يريدون، وسيتكرر هذا الأمر مع الوفود في بداية لقائهم بالنَّبِيّ ﷺ يسألهم عن أنفسهم.

ثم يأتي ترحيب النَّبِيّ ﷺ بهم على كل حال؛ فإن وفد عبد القيس عرَّفوا أنفسهم على أنهم ربيعة أي من بني ربيعة، يريدون أن يعرفوا رد النَّبِيّ ﷺ وقد كان مضريًّا، فكان

ترحيب النَّبيّ ﷺ بهم نهجًا نبويًّا سوف يتكرر مع كل الوفود، ويبشرهم النَّبيّ ﷺ ويعلي قدرهم ومكانتهم عندهم بقوله: "**غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**".

قَالُوا: إِنَّا نَأْتِيكَ مِنْ شُقَّةٍ بَعِيدَةٍ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إِلَّا فِي شَهْرٍ حَرَامٍ فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا؛ نَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ.

ويظهر هنا أن النَّبيّ ﷺ سألهم عن أحوالهم وعن طريق رحلتهم إليه كيف كانت وكيف تركوا قومهم من ورائهم، فأخبروه بعدة أمور:

أولًا المشقة التي تحمَّلوها في الطريق، وبعد المسافة بينهم وبينه؛ وهذا إن يكشف يكشف عن عزمهم ورغبتهم الأكيدة في الوصول إلى الرسول ﷺ بعد أن آمنوا به ولم يكونوا رأوه.

ومن المؤكد أنهم لم تأت بهم رهبة ولا رغبة، فإن بعدهم عن المدينة يجعلهم لا يتأثرون بما فيها، ولم يَرِدْ أنَّ رسول الله شدَّ جيوشًا أو توعَّد أيًّا من القبائل التي جاءته وفودُها.

ثم يؤكدون له أنهم تعرَّضوا للمخاطر في طريقهم إليه؛ فإن بينهم وبينه حيًّا من كفار مضر، ويلاحظ أنهم يؤكدون على مسألة مضر وربيعة، نحن مؤمنو بني ربيعة وهم كفار بني مضر؛ ليتأكدوا أن مؤمني بني ربيعة أحب وأقرب إلى رسول الله ﷺ من كفار بني مضر.

ثم يصرحون للنبي ﷺ بهدفهم من المجيء ورغبتهم في لقائه فقالوا: ندخل به الجنة.

فهم لم يأتوا يرغبون في ذهب أو فضة وعدهم النَّبيّ ﷺ به، ولكن جاؤوا لأنهم آمنوا أنّ اتباعهم محمدًا يدخلهم الجنة.

فَأَمَرَهُم بِأَرْبَعٍ، وَنَهَاهُم عَنْ أَرْبَعٍ أَمَرَهُم بِالإِيمَانِ بِاللهِ ﷻ وَحْدَهُ.

قَالَ ﷺ: "**هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ وَحْدَهُ؟**".

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ ﷺ: "شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ".

وَنَهَاهُم عَنِ الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالْمُزَفَّتِ والْمُقَيَّرِ.

قَالَ ﷺ: "احْفَظُوهُ وَأَخْبِرُوهُ مَنْ وَرَاءَكُم"(١٠٣).

وبعدما أنهى ﷺ تعاليمه وأوامره إليهم، والتي نوَّع فيها رسول الله بين الأساليب التربوية فكان تارة يستثير أذهانهم بالسؤال ويكشف عن معارفهم وتصوراتهم، ثم يأتيهم بالإجابة على شكلها التام الصحيح، وتارة يُجمِل إليهم الإجابة ثم يفصّلها إليهم ويشرحها، وفي النهاية يأمرهم ﷺ بحفظ وصاياه وتبليغها لمن وراءهم من قومهم.

٢- وفد بني تميم

عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: جَاءَتْ بَنُو تَمِيمٍ بِشَاعِرِهِم وَخَطِيبِهِم إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَنَادَوْا: يَا مُحَمَّدُ اخْرُجْ إِلَيْنَا، فَإِنَّ مَدْحَنَا زَيْنٌ، وَإِنَّ سَبَّنَا شَيْنٌ.

فَسَمِعَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخَرَجَ عَلَيْهِم يَقُولُ: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ اللهُ ﷻ، فَمَا تُرِيدُونَ؟"

قَالُوا: نَحْنُ نَاسٌ مِنْ تَمِيمٍ، جِئْنَاكَ بِشَاعِرِنَا وَخَطِيبِنَا لِنُشَاعِرَكَ وَلِنُفَاخِرَكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا بِالشِّعْرِ بُعِثْنَا، وَلَا بِالْفَخَارِ أُمِرْنَا، وَلَكِنْ هَاتُوا".

فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ لِشَابٍّ مِنْ شَبَابِهِمْ: قُم فَاذْكُرْ فَضْلَكَ، وَفَضْلَ قَوْمِكَ.

فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَنَا خَيْرَ خَلْقِهِ، وَآتَانَا أَمْوَالًا نَفْعَلُ فِيهَا مَا نَشَاءُ، فَنَحْنُ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَكْثَرُهُم عَدَدًا، وَأَكْثَرُهُم سِلَاحًا، فَمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْنَا قَوْلَنَا فَلْيَأْتِ بِقَوْلٍ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِنَا، وَبِفِعَالٍ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ فِعَالِنَا.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ﷺ، وَكَانَ خَطِيبَ النَّبِيِّ ﷺ: "قُمْ فَأَجِبْهُ".

(١٠٣) صحيح البخاري، العلم، ٢٥.

قَالَ: فَقَامَ ثَابِتٌ ﷺ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، وَأُؤْمِنُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَدَعَا الْمُهَاجِرِينَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أَحْسَنَ النَّاسِ وُجُوهًا، وَأَعْظَمَ النَّاسِ أَحْلَامًا، فَأَجَابُوهُ.

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلْنَا أَنْصَارَهُ وَوُزَرَاءَ رَسُولِهِ، وَعِزًّا لِدِينِهِ، فَنَحْنُ نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَنَفْسَهُ، وَمَنْ أَبَاهَا قَاتَلْنَاهُ، وَكَانَ رَغْمُهُ فِي اللهِ عَلَيْنَا هَيِّنًا، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

قَالَ: فقَالَ الزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ: قُم فَقُلْ أَبْيَاتًا تَذْكُرُ فِيهَا فَضْلَكَ، وَفَضْلَ قَوْمِكَ، فَقَالَ:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... نَحْنُ الرُّؤوسُ وَفِينَا تُقْسَمُ الرُّبُعُ
وَنُطْعِمُ النَّاسَ عِنْدَ الْمَحْلِ كُلَّهُمُ ... مِنَ السَّدِيفِ إِذَا لَم يُؤْنِسِ الْقَزَعُ
إِذَا أَبَيْنَا فَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ ... إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِعُ

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "يَا حَسَّانُ قُم فَأَجِبْهُ".

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مُرْهُ فَلْيُسْمِعْنِي مَا قَالَ.

فَقَالَ ﷺ: "أَسْمِعْهُ مَا قُلْتَ"، فَأَسْمَعَهُ.

فَقَالَ حَسَّانُ:

نَصَرْنَا رَسُولَ اللهِ وَالدِّينَ عَنْوَةً ... عَلَى رَغْمِ عَاتٍ مِنْ مَعَدٍّ وَحَاضِرِ
بِضَرْبٍ كَإِيزَاعِ الْمَخَاضِ مُشَاشَهُ ... وَطَعْنٍ كَأَفْوَاهِ اللِّقَاحِ الصَّوَادِرِ
وَسَلْ أُحُدًا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ شِعَابُهُ ... بِضَرْبٍ لَنَا مِثْلِ اللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ
أَلَسْنَا نَخُوضُ الْمَوْتَ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى ... إِذَا طَابَ وِرْدُ الْمَوْتِ بَيْنَ الْعَسَاكِرِ
وَنَضْرِبُ هَامَ الدَّارِعِينَ وَنَنْتَمِي ... إِلَى حَسَبٍ مِنْ جِذْمِ غَسَّانَ قَاهِرِ
فَأَحْيَاؤُنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى ... وَأَمْوَاتُنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَقَابِرِ
فَلَوْلَا حَيَاءُ اللهِ قُلْنَا تَكَرُّمًا ... عَلَى النَّاسِ بِالْخِيفَيْنِ: هَلْ مِنْ مُنَافِرِ؟

فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: إِنِّي وَاللهِ يَا مُحَمَّدُ جِئْتُ لِأَمْرٍ مَا جَاءَ لَهُ هَؤُلَاءِ، إِنِّي قَدْ قُلْتُ شِعْرًا، فَاسْمَعْهُ.

قَالَ ﷺ: "**هَاتِ**".

فَقَالَ:

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْرِفَ النَّاسُ فَضْلَنَا ... إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ

وَإِنَّا رُؤُوسُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مَعْشَرٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ

وَإِنَّ لَنَا الْمِرْبَاعَ فِي كُلِّ غَارَةٍ ... تَكُونُ بِنَجْدٍ أَوْ بِأَرْضِ التَّهَائِمِ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**يَا حَسَّانُ فَأَجِبْهُ**".

قَالَ: فَقَامَ فَقَالَ:

بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْرَكُم ... يَعُودُ وَبَالًا بَعْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ

هَبِلْتُم عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمُ ... لَنَا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وَخَادِمِ

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَقَدْ كُنْتَ غَنِيًّا يَا أَخَا بَنِي دَارِمٍ أَنْ يُذْكَرَ مِنْكَ مَا قَدْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ النَّاسَ قَدْ نَسُوهُ مِنْكَ**".

قَالَ: فَكَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِ حَسَّانَ.

ثُمَّ رَجَعَ حَسَّانُ إِلَى قَوْلِهِ:

وَأَفْضَلُ مَا نِلْتُم مِنَ الْمَجْدِ وَالْعُلَى ... رِدَافَتُنَا مِنْ بَعْدِ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ

فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُم لِحَقْنِ دِمَائِكُم ... وَأَمْوَالِكُم أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ

فَلَا تَجْعَلُوا للهِ نِدًّا وَأَسْلِمُوا ... وَلَا تَفْخَرُوا عِنْدَ النَّبِيِّ بِدَارِمِ

وَإِلَّا وَرَبِّ الْبَيْتِ مَالَتْ أَكُفُّنَا ... عَلَى رَأْسِكُم بِالْمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ

قَالَ: فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ، فَقَالَ: يَا هَؤُلَاءِ، مَا أَدْرِي مَا هَذَا الْأَمْرُ، تَكَلَّمَ خَطِيبُنَا فَكَانَ خَطِيبُهُم أَرْفَعَ صَوْتًا، وَأَحْسَنَ قَوْلًا، وَتَكَلَّمَ شَاعِرُنَا فَكَانَ شَاعِرُهُم أَرْفَعَ صَوْتًا، وَأَحْسَنَ قَوْلًا، ثُمَّ دَنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**لَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا**"(١٠٤).

فحاز السبق في إسلامه قبل قومه، ثم تبعوه بعد ذلك، وكان فأل خير لهم حين سيقت له ولهم البشرى في قوله ﷺ: "**لَا يَضُرُّكَ مَا كَانَ قَبْلَ هَذَا**".

٣- وفد ضمامة بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكر

قال أنس بن مالك ﷺ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ، دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُم مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِم.

فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ.

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: "**قَدْ أَجَبْتُكَ**".

فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**".

فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ، آللهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اللَّهُمَّ نَعَم**".

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اللَّهُمَّ نَعَم**".

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟

(١٠٤) أبو نعيم: معرفة الصحابة، ١/٣٣٦.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اللَّهُمَّ نَعَم**".

قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللهِ، آللهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "**اللَّهُمَّ نَعَم**".

فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ(١٠٥).

وفي رواية الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَسَأُؤَدِّي هَذِهِ الْفَرَائِضَ وَأَجْتَنِبُ مَا نَهَيْتَنِي عَنْهُ ثُمَّ لَا أَزِيدُ وَلَا أَنْقُصُ.

قَالَ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَاجِعًا إِلَى بَعِيرِهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ وَلَّى: "**إِنْ يَصْدُقْ ذُو الْعَقِيصَتَيْنِ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**"(١٠٦).

فضمام بن ثعلبة رضي الله عنه لم يتح للنبي ﷺ فرصة إلَّا أن يجيبه تلك الإجابات المختصرة التي تشفي غليله وتثبت أو تنفي ما جمعه من معلومات عن رسول الله ﷺ.

ويظهر في لقاء النَّبِيّ ﷺ به حلم النَّبِيّ وعفوه وكرمه، وتحمله جفاء الناس وغلظتهم.

ثُمَّ أَتَى ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بَعِيرَهُ فَأَطْلَقَ عِقَالَهُ ثُمّ خَرَجَ حَتّى قَدِمَ عَلَى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ أَوّلَ مَا تَكَلّمَ بِهِ أَنْ قَالَ: بِئْسَتِ اللّاتُ وَالْعُزّى.

فَقَالُوا: مَهْ يَا ضِمَامُ اتّقِ الْبَرَصَ وَالْجُنُونَ وَالْجُذَامَ.

قَالَ: وَيْلَكُم إنّهُمَا مَا يَضُرّانِ وَلَا يَنْفَعَانِ إنّ اللهَ قَدْ بَعَثَ رَسُولًا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُم بِهِ مِمّا كُنْتُم فِيهِ، وَإِنّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلّا اللهُ وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنّي قَدْ جِئْتُكُم مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُم بِهِ وَنَهَاكُم عَنْهُ، فَوَاللهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي حَاضِرَتِهِ رَجُلٌ وَلَا امْرَأَةٌ إلّا مُسْلِمًا.

(١٠٥) صحيح البخاري، العلم، ٦.

(١٠٦) مسند الإمام أحمد، ١١٨/٤.

٤- وفد نصارى نجران

قدموا على النَّبيّ ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، دَخَلُوا عَلَيْهِ مَسْجِدَهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، فَحَانَتْ صَلَاتُهُم فَقَامُوا يُصَلُّونَ فِي مسجده نحو المشرق، فأراد الناس منعهم.

فقال رسول الله ﷺ: "دَعُوهُمْ"، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ فَصَلَّوْا صَلَاتَهُم.

استقبل رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران في المسجد وهم على نصرانيتهم، وهم يلبسون ما يألفون من الحرير والذهب، أرادهم أن يروا صلاة المسلمين وسمت المسلمين ودين الإسلام، فلما حانت صلاتهم اتجهوا نحو المشرق وهمّوا بالصلاة، فلم يكن ﷺ ليزجرهم أو يطردهم من المسجد بعد أن سمح لهم بالدخول والجلوس فيه، فيكون طرده لهم صادًّا لهم عن الدخول في الإسلام.

ولقد استدل الفقهاء من هذه الواقعة على جَوَازِ دُخُولِ أَهْلِ الْكِتَابِ مَسَاجِدَ الْمُسْلِمِينَ، وتَمْكِينهم مِنْ صَلَاتِهِم بِحَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي مَسَاجِدِهِم أَيْضًا إذَا كَانَ ذَلِكَ عَارِضًا، وَلَا يُمَكَّنُونَ مِنِ اعْتِيَادِ ذَلِكَ.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: اجْتَمَعَتْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَأَحْبَارُ يَهُودَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَتَنَازَعُوا عِنْدَهُ.

فَقَالَتِ الْأَحْبَارُ: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا يَهُودِيًّا.

وَقَالَتِ النَّصَارَى: مَا كَانَ إِلَّا نَصْرَانِيًّا.

فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِيهِم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾

(سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/٦٥-٦٨).

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَحْبَارِ: أَتُرِيدُ مِنّا يَا مُحَمّدُ أَنْ نَعْبُدَك كَمَا تَعْبُدُ النّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؟

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ: أَوَذَلِكَ تُرِيدُ يَا مُحَمّدُ وَإِلَيْهِ تَدْعُونَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ أَوْ آمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي وَلَا أَمَرَنِي". فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ فِي ذَلِكَ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عِمْرَانَ: ٣/٧٩-٨٠).

ثُمّ ذَكَرَ مَا أُخِذَ عَلَيْهِم وَعَلَى آبَائِهِم مِنَ الْمِيثَاقِ بِتَصْدِيقِهِ وَإِقْرَارِهِم بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِم فَقَالَ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (سورة آل عِمْرَانَ: ٣/٨١).

وقد صَالَحَ رسولُ اللهِ ﷺ نَصَارَى نَجْرَانَ، وَأَقَامَهُم فِي شَطْرِ مَسْجِدِهِ يُؤَدُّونَ شَعَائِرَ دِينِهِم وَكَتَبَ لَهُم عَهْدًا[١٠٧] كما أسلفنا[١٠٨].

٥- وَفْد تُجِيب

وتجيب: بطن من كندة، وهو أشرس بن شبيب بن السكون بن كندة، كانوا يسكنون الكسر في وسط حضرموت، وكانت لهم خُطّة بمصر تُعرف باسمهم.

وَقَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفْدُ تُجِيبَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا قَدْ سَاقُوا مَعَهُم صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِم الّتِي فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِم.

وهذا يعني أنهم آمنوا بالله ورسوله وأنهم علموا الفرائض وأدُّوها بكل عزيمة وحب، فَسُرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِم وَأَكْرَمَ مَنْزِلَهُم.

(١٠٧) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ١/٢٦٦، ٣٥٨.
(١٠٨) انظر: ص ١١٨-١١٩.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ سُقْنَا إِلَيْك حَقّ اللهِ فِي أَمْوَالِنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**رُدُّوهَا فَاقْسِمُوهَا عَلَى فُقَرَائِكُم**".

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا قَدِمْنَا عَلَيْك إِلَّا بِمَا فَضَلَ عَنْ فُقَرَائِنَا.

فرح النَّبِيّ ﷺ بقدوم هذا الوفد المؤمن وأكرمهم، قالوا له: سقنا إليك حق الله في أموالنا. مما يكشف أنهم قوم يفقهون جيدًا أن ما ساقوه إنما هو حق الله وليس جباية أو ضريبة عليهم يؤدونها إلى المدينة، ويطلب رسول الله منهم أن يردوا هذه الأموال لتقسم على فقرائهم؛ ليفهموا جيدًا أن إيمانهم لا يفرض عليهم في أموالهم إِلَّا حقًّا للفقراء والمساكين من قومهم يُعطى إليهم، فأعلموه أنهم إنما أتوه بما فضل عن حاجة فقرائهم.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا وَفَدَ مِنَ الْعَرَبِ بِمِثْلِ مَا وَفَدَ بِهِ هَذَا الْحَيُّ مِنْ تُجِيبَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إِنّ الْهُدَى بِيَدِ اللهِ ﷻ فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا شَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ**".

ولم يترك النَّبِيّ ﷺ مثل هذه الفرصة التربويَّة حتى يوجه صاحبه ويعلمه أن ما وفد به القوم من مال ليس مقياسًا أو معيارًا لِمَا وَقَرَ في صدورهم من الهدى، إنما من يشرح الله صدره للإيمان فهو المهتدي لا من جاء بالمال.

وَسَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَشْيَاءَ، فَكَتَبَ لَهُم بِهَا، وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسّنَنِ، فَازْدَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِم رَغْبَةً.

وسؤال الوفد رسول الله ﷺ عن أمور الدين والقرآن والسنة أمر يتكرر، فكل وفد كان يهتم أن يحصل المعرفة بالدين من رسول الله، ولكن الجديد في وفد تجيب أنهم أكثروا السؤال حتى كتب لهم رسول الله ﷺ الإجابات، وزاد إعجابه بهم وسروره بطلبهم العلم.

وَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُحْسِنَ ضِيَافَتَهُم، فَأَقَامُوا أَيَّامًا وَلَم يُطِيلُوا اللّبْثَ، فَقِيلَ لَهُمْ: مَا يُعْجِبُكُمْ؟

يحسن رسول الله ﷺ ضيافة من يفد إليه، فإن همّوا بالرحيل لا يتركهم حتى يسألهم عن السبب ويتأكد أنهم لم يضرهم أو يَسُؤْهم شيء في ضيافته.

فَقَالُوا: نَرْجِـعُ إِلَى مَنْ وَرَاءَنَا فَنُخْبِرُهُم بِرُؤْيَتِنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَكَلَامِنَا إِيّاهُ وَمَا رَدّ عَلَيْنَا.

ثُمّ جَاؤوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُوَدّعُونَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِم بِلَالًا فَأَجَازَهُم بِأَرْفَعَ مَا كَانَ يُجِيزُ بِهِ الْوُفُودَ.

قَالَ ﷺ: "**هَلْ بَقِيَ مِنْكُم أَحَدٌ؟**"

قَالُوا: نَعَم، غُلَامٌ خَلّفْنَاهُ عَلَى رِحَالِنَا هُوَ أَحْدَثُنَا سِنًّا.

قَالَ ﷺ: "**أَرْسِلُوهُ إِلَيْنَا**".

فَأَقْبَلَ الْغُلَامُ حَتّى أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنّي امْرُؤٌ مِنْ بَنِي أَبْذَى مِنَ الرّهْطِ الّذِينَ أَتَوْكَ آنِفًا فَقَضَيْتَ حَوَائِجَهُم، فَاقْضِ حَاجَتِي يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ ﷺ: "**وَمَا حَاجَتُكَ؟**"

قَالَ: إنّ حَاجَتِي لَيْسَتْ كَحَاجَةِ أَصْحَابِي وَإِنْ كَانُوا قَدِمُوا رَاغِبِينَ فِي الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا مَا سَاقُوا مِنْ صَدَقَاتِهِم، وَإِنّي وَاللهِ مَا أَعْمَلَنِي مِنْ بِلَادِي إِلّا أَنْ تَسْأَلَ اللهَ ﷻ أَنْ يَغْفِرَ لِي وَيَرْحَمَنِي وَأَنْ يَجْعَلَ غِنَايَ فِي قَلْبِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَقْبَلَ إِلَى الْغُلَامِ: "**اللَّهُمّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَاجْعَلْ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ**"، ثُمّ أَمَرَ لَهُ بِمِثْلِ مَا أَمَرَ بِهِ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَانْطَلَقُوا رَاجِعِينَ إِلَى أَهْلِيهِم ثُمّ وَافَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي الْمَوْسِمِ بِمِنًى سَنَةَ عَشْرٍ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**مَا فَعَلَ الْغُلَامُ الّذِي أَتَانِي مَعَكُمْ؟**"

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ قَطّ، وَلَا حُدّثْنَا بِأَقْنَعَ مِنْهُ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ لَوْ أَنّ النّاسَ اقْتَسَمُوا الدّنْيَا مَا نَظَرَ نَحْوَهَا وَلَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا.

فإن رسول الله ﷺ كان رحيمًا رفيقًا لم يهمل ضعيفًا أو صغيرًا، ولكنه كان يهتم بمن يفد إليه، فإن تجيب همَّشتِ الغلام وتركته على رحالها، وراحوا يودعون رسول الله، فسألهم

رسـول الله عنـه وأرسـل فـي طلبـه، فلما جـاءه دعا له وأمـر له بعطاء مثل مـا أعطى الرجل من قومه، وأثمرت دعوة النَّبِيّ ﷺ في الغلام، فلما جاء قومه بعد ذلك شهدوا له بالتقوى والصلاح.

٦- وَفْدُ ذِي مُرَّةَ

قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفْدُ ذِي مُرَّةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا رَأْسُهُمُ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا قَوْمُك وَعَشِيرَتُك نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي لُؤَيّ.

وقد سبق أن رسول الله ﷺ يسأل الوفد عن أنفسهم، وهنا يتضح أن وفد ذي مرة أجابوا بـأن عرفـوا أنفسـهم بقرابتهـم لرسـول الله ﷺ، فهـم من بنـي لؤي، ولؤي بـن غالب بن فهر من أجداد النَّبِيّ ﷺ.

فقال ﷺ لِلْحَارِثِ: "**أَيْنَ تَرَكْت أَهْلَك؟**"

قَالَ: بِسِلَاحٍ وَمَا وَالَاهَا.

قَالَ ﷺ: "**وَكَيْفَ الْبِلَادُ؟**"

قَالَ: وَاللهِ إنّا لَمُسْنِتُونَ، مَا فِي الْمَالِ مُخّ، فَادْعُ اللهَ لَنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**اللهُمّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ**".

وقد سبق أيضًا أن رسـول الله ﷺ يسـأل من يفد إليه عن أحوال بلادهم وقومهم، كيف هم، وكيف تركوهم، مسلمون أم لا، فقراء أم أغنياء، مسالمون أم محاربون.

وسـبق أيضًـا أن رسـول الله يدعـو لمـن يفـد إليـه وإلـى أهلهـم وذويهـم بالخيـر والنماء والبركة والإيمان.

فَأَقَامُوا أَيّامًا ثُمّ أَرَادُوا الِانْصِرَافَ إلَى بِلَادِهِم، فَجَاؤوا رَسُـولَ اللهِ ﷺ مُوَدّعِينَ لَهُ، فَأَمَرَ بِلَالًا أَنْ يُجِيزَهُم، فَأَجَازَهُم بِعَشْرِ أَوَاقٍ فِضّةً، وَفَضَّلَ الْحَارِثَ بْنَ عَوْفٍ أَعْطَاهُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيّةً.

وسبق أن رسول الله ﷺ يجيز من يفد إليه بما استطاع من مؤن وخير وهدايا حينما يأتي لوداعه، والجديد هنا أن رسول الله ﷺ أكرم رئيسهم وسيدهم بأن زاده في العطاء، وذلك ليس تمييزًا ولكن لما استشعره النَّبِيّ ﷺ من تحمل هذا السيد بواجبات ومسؤوليات ستضطره أن ينفق ضعف ما يأخذ.

وَرَجَعُوا إِلَى بِلَادِهِم فَوَجَدُوا الْبِلَادَ مَطِيرَةً، فَسَأَلُوا: مَتَى مُطِرْتُمْ؟

فَإِذَا هُوَ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ، وَأَخْصَبَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَادُهُم.

٧- وَفْدُ خَوْلَانَ

خَوْلَان مخلاف من مخاليف اليمن، منسوب إلى خولان بن عمر بن الحاف بن قضاعة ابن مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ، فتح هذا المخلاف في سنة ثلاث أو أربع عشرة في أيام عمر بن الخطاب ﷺ وأميره يعلى بن منية، وفي خولان كانت النار التي تعبدها اليمن.

قَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ فِي شَهْرِ شَعْبَانَ سَنَةَ عَشْرٍ وَفْدُ خَوْلَانَ وَهُم عَشَرَةٌ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ نَحْنُ عَلَى مَنْ وَرَاءَنَا مِنْ قَوْمِنَا، وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﷻ، وَمُصَدِّقُونَ بِرَسُولِهِ.

يظهر هنا أن رسول الله ﷺ سألهم عن هويتهم وطلب منهم أن يعرفوا أنفسهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم سفراء قومهم إلى رسول الله وأنهم مؤمنون بالله وبرسوله.

وقالوا: وَقَدْ ضَرَبْنَا إِلَيْكَ آبَاطَ الْإِبِلِ وَرَكِبْنَا حُزُونَ الْأَرْضِ وَسُهُولَهَا، وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ عَلَيْنَا، وَقَدِمْنَا زَائِرِينَ لَكَ.

ويظهر هنا أن رسول الله ﷺ سألهم عن رحلتهم وما واجهوه في طريقهم إليه، ومِنْ أدبِهم وإيمانِهم أنهم بعد أن بيَّنوا له صعوبة الرحلة ومشقة الطريق أقرُّوا أن المنَّة لله ولرسوله عليهم وأنهم مسرورون راغبون في زيارته ﷺ وفي سبيل ذلك تهون كلُّ الصعاب.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَمَّا مَا ذَكَرْتُم مِنْ مَسِيرِكُم إِلَيّ فَإِنّ لَكُم بِكُلّ خطْوَةٍ خَطَاهَا بَعِيرُ أَحَدِكُم حَسَنَةٌ، وَأَمَّا قَوْلُكُم زَائِرِينَ لَكَ، فَإِنّهُ مَنْ زَارَنِي بِالْمَدِينَةِ كَانَ فِي جِوَارِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا السّفَرُ الّذِي لَا تَوَى عَلَيْهِ.

فبشرهم ﷺ بالخير وأن مسيرهم إليه زاد حسناتهم وبرهم، وزيارتهم له تجعلهم في جواره في الجنة.

ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا فَعَلَ عَمُّ أَنَسٍ"، -وَهُوَ صَنَمُ خَوْلَانَ الّذِي كَانُوا يَعْبُدُونَهُ-.

قَالُوا: أَبْشِرْ بَدّلَنَا اللهُ بِهِ مَا جِئْت بِهِ، وَقَدْ بَقِيَتْ مِنّا بَقَايَا -مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَعَجُوزٍ كَبِيرَةٍ- مُتَمَسّكُونَ بِهِ وَلَوْ قَدِمْنَا عَلَيْهِ لَهَدَمْنَاهُ إنْ شَاءَ اللهُ، فَقَدْ كُنّا مِنْهُ فِي غُرُورٍ وَفِتْنَةٍ.

فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ: "وَمَا أَعْظَمَ مَا رَأَيْتُم مِنْ فِتْنَتِهِ؟"

قَالُوا: لَقَدْ رَأَيْتنَا أَسْنَتْنَا حَتّى أَكَلْنَا الرِّمَّةَ؛ فَجَمَعْنَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ وَابْتَعْنَا بِهِ مِائَةَ ثَوْرٍ وَنَحَرْنَاهَا لِعَمّ أَنَسٍ قُرْبَانًا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ، وَتَرَكْنَاهَا تَرِدُهَا السّبَاعُ وَنَحْنُ أَحْوَجُ إلَيْهَا مِنَ السّبَاعِ، فَجَاءَنَا الْغَيْثُ مِنْ سَاعَتِنَا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا الْعُشْبَ يُوَارِي الرّجَالَ، وَيَقُولُ قَائِلُنَا: أَنْعَمَ عَلَيْنَا عَمُّ أَنَسٍ.

وَذَكَرُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانُوا يَقْسِمُونَ لِصَنَمِهِم هَذَا مِنْ أَنْعَامِهِم وَحُرُوثِهِم، وَأَنّهُم كَانُوا يَجْعَلُونَ مِنْ ذَلِكَ جُزْءًا لَهُ وَجُزْءًا لِلّهِ بِزَعْمِهِم.

قَالُوا: كُنّا نَزْرَعُ الزّرْعَ فَنَجْعَلُ لَهُ وَسَطَهُ فَنُسَمّيهِ لَهُ، وَنُسَمّي زَرْعًا آخَرَ حُجْرَةً لِلّهِ، فَإِذَا مَالَتِ الرّيحُ فَالّذِي سَمّيْنَا لِلّهِ جَعَلْنَاهُ لِعَمّ أَنَسٍ، وَإِذَا مَالَتِ الرّيحُ فَالّذِي جَعَلْنَاهُ لِعَمّ أَنَسٍ لَم نَجْعَلْهُ لِلّهِ.

فَذَكَرَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنّ اللهَ أَنْزَلَ عَلَيّ فِي ذَلِكَ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة الأنعام: ١٣٦/٦).

قَالُوا: وَكُنَّا نَتَحَاكَمُ إِلَيْهِ فَيَتَكَلَّمُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**تِلْكَ الشَّيَاطِينُ تُكَلِّمُكُم**".

ثم سألهم رسول الله ﷺ عما كانوا عليه من عقائد فاسدة وعبادات منحرفة، حيث كانوا يعبدون صنمًا يقدمون له ذبائحهم وحرثهم وهو لا ينفع ولا يضر، فبيَّن لهم ﷺ فساد ما كانوا عليه وضلاله.

وَسَأَلُوهُ عَنْ فَرَائِضِ الدّينِ فَأَخْبَرَهُم، وَأَمَرَهُم بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ لِمَنْ جَاوَرُوا، وَأَنْ لَا يَظْلِمُوا أَحَدًا.

قَالَ ﷺ: "**فَإِنّ الظّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**".

ثُمّ وَدّعُوهُ بَعْدَ أَيّامٍ وَأَجَازَهُم، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِم فَلَم يَحُلّوا عُقْدَةً حَتّى هَدَمُوا عَمَّ أَنَسٍ.

وفي النهاية لا يفوتهم أن يسألوا رسول الله ﷺ كما سألته الوفود من قبلهم عن الدين وعن الفرائض، فأخبرهم بجوامع كلمه كليات قَصَدَ الشرعُ إلى تحقيقها وهي العدل والأمانة والوفاء وحسن الجوار والتعايش.

٨- وَفْدُ مُحَارِبٍ

قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفْدُ مُحَارِبٍ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَكَانُوا أَغْلَظَ الْعَرَبِ وَأَفَظَّهُم عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْمَوَاسِمِ أَيّامَ عَرْضِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ يَدْعُوهُم إِلَى اللهِ، فَجَاءَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْهُم عَشَرَةٌ نَائِبِينَ عَمّنْ وَرَاءَهُم مِنْ قَوْمِهِم فَأَسْلَمُوا، وَكَانَ بِلَالٌ يَأْتِيهِم بِغَدَاءٍ وَعَشَاءٍ إِلَى أَنْ جَلَسُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا مِنَ الظّهْرِ إِلَى الْعَصْرِ، فَعَرَفَ رَجُلًا مِنْهُم فَأَمَدَّهُ النّظَرَ؛ فَلَمّا رَآهُ الْمُحَارِبِيّ يُدِيمُ النّظَرَ إِلَيْهِ قَالَ: كَأَنّك يَا رَسُولَ اللهِ تُوهِمُنِي؟

قَالَ: "**لَقَدْ رَأَيْتُك**".

قَالَ الْمُحَارِبِيّ: أَيْ وَاللهِ لَقَدْ رَأَيْتنِي وَكَلّمْتنِي وَكَلّمْتُك بِأَقْبَحِ الْكَلَامِ، وَرَدَدْتُك بِأَقْبَحِ الرّدّ بِعُكَاظٍ، وَأَنْتَ تَطُوفُ عَلَى النّاسِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "نَعَم".

ثُـمّ قَـالَ الْمُحَارِبِيّ: يَا رَسُـولَ اللهِ مَـا كَانَ فِي أَصْحَابِي أَشَـدُّ عَلَيْك يَوْمَئِـذٍ وَلَا أَبْعَدُ عَنِ الْإِسْلَامِ مِنّـي، فَأَحْمَـدُ اللهَ الّـذِي أَبْقَانِـي حَتّى صَدّقْتُ بِـك، وَلَقَدْ مَاتَ أُولَئِـكَ النّفَرُ الّذِينَ كَانُوا مَعِي عَلَى دِينِهِم.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إنّ هَذِهِ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللهِ ﷻ**".

فَقَالَ الْمُحَارِبِيّ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَغْفِرْ لِي مِنْ مُرَاجَعَتِي إيّاكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إنّ الْإِسْلَامَ يَجُبّ مَا كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ**".

ثُمّ انْصَرَفُوا إِلَى أَهْلِيهِم.

وفي واقعة هذا الوفد نموذج لعفو رسـول الله وحلمه وحسـن خلقه ﷺ، فإنه رأى فيمن وفد عليه رجلًا أساء إليه واعتدى عليه وردّ دعوته بأقبح الرد ولكنه لم يبدأه بالكلام ولم يقل له: إنك أنت من فعل كذا وكذا، وقد عرفه النَّبِيّ ﷺ.

فلما أقرَّ الرجل بذنبه وسوء خلقه مع رسول الله، وأقرَّ بنعمة الله ومنَّتِه عليه أن هداه للإسلام بينما مات من كان معه على الشرك؛ أخبره رسول الله بأن إسلامه مَحَا ما كان عليه من الكفر، وأن الإسلام يفتح لك صفحة جديدة بيضاء مع الله ﷻ، فهدأت نفس المحاربي وسكن.

٩- وَفْدُ سَلَامَانِ

وهو وفد سلامان بن سعد؛ بطن من قضاعة، من القحطانية.

قَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفْدُ سَلَامَانِ سَبْعَةُ نَفَرٍ فِيهِم حَبِيبُ بْنُ عَمْرٍو فَأَسْلَمُوا.

إذًا فمن الوفود من وفدت مشركة ثم أسلمت بين يدي رسول الله ﷺ كوفد سلامان، ومنها من وفدت عليه مسلمة ومؤمنة كوفد تجيب، ومنها من وفدت عليه وهي مشركة ورحلت عنه وهي مشركة، رحلت بعهد للأمان والتعايش السلمي.

قَالَ حَبِيبٌ: فانتهينا إلى باب المسجد فصادفنا رسول الله ﷺ خارجًا منه إلى جنازة دعي إليها، فلما رأيناه قلنا: يا رسول الله السلام عليك.

فقال رسول الله ﷺ: "وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ، مَنْ أَنْتُمْ؟"

قلنا: نحن قوم من سلامان، قدمنا عليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا.

فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال ﷺ: "أَنْزِلْ هَؤُلَاءِ حَيْثُ يَنْزِلُ الْوَفْدُ".

فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجَّارِيَّة.

وفي الواقعة أنه ﷺ خَصَّصَ دارًا ينزل فيها الوفود القادمة إليه، وصفة هذه الدار واسعة، وفيها نخل، أيْ دار تبيّن للوفد تقدير النَّبِيّ ﷺ وإكرامه له.

فلما سمعنا أذان الظهر خرجنا إلى الصلاة، فقمنا على باب رسول الله ﷺ حتى خرج إلى المسجد فصلَّى بالناس، وهو يتصفحنا، ودخل بيته فلم يلبث أن خرج فجلس في المسجد بين المنبر وبين بيته، وجلست عليه أصحابه عن يمينه وعن شماله، فرأيت رجلًا هو أقرب القوم منه يكثر ما يلتفت إليه ويحدثه، فسألت عنه، فقيل: أبو بكر بن أبي قحافة. وجئنا فجلسنا تجاه وجهه وجعل الوفد يسألونه عن شرائع الإسلام، فلم يكد سائلهم يقطع حتى خشيت أن يقوم رسول الله ﷺ.

فقلت: إنا نريد ما تريد.

فتبسَّم رسول الله ﷺ، وأسكت السائل فَقُلْت: أَيْ رَسُول اللهِ مَا أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ؟

قَالَ ﷺ: "الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا". ثُمّ ذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا.

والحوار يعكس فطنته ﷺ، فقد تبسَّم وفهم قصد حبيب؛ فأسكت السائل، وأعطى الفرصة لحبيب أن يسأل عن شرائع الدين وأفضل الأعمال. وَصَلَّوْا مَعَهُ يَوْمَئِذٍ الظّهْرَ وَالْعَصْرَ.

قَالَ: فَكَانَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ أَخَفَّ مِنَ الْقِيَامِ فِي الظُّهْرِ، ثُمَّ شَكَوْا إِلَيْهِ جَدْبَ بِلَادِهِم.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ: "**اللَّهُمَّ اسْقِهِمُ الْغَيْثَ فِي دَارِهِم**".

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ارْفَعْ يَدَيْك فَإِنَّهُ أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبطَيْهِ، ثُمَّ قَامَ وَقُمْنَا عَنْهُ، فَأَقَمْنَا ثَلَاثًا، وَضِيَافَتُهُ تَجْرِي عَلَيْنَا، ثُمَّ وَدَّعْنَاهُ وَأَمَرَ لَنَا بِجَوَائِزَ فَأَعْطَيْنَا خَمْسَ أَوَاقٍ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنَّا، وَاعْتَذَرَ إِلَيْنَا بِلَالٌ، وَقَالَ: لَيْسَ عِنْدَنَا الْيَوْمَ مَالٌ.

فَقُلْنَا: مَا أَكْثَرَ هَذَا وَأَطْيَبَهُ.

ثُمَّ رَحَلْنَا إِلَى بِلَادِنَا فَوَجَدْنَاهَا قَدْ مُطِرَتْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي دَعَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ.

قَالَ الْوَاقِدِيّ: وَكَانَ مَقْدَمُهُم فِي شَوَّالٍ سَنَةَ عَشْرٍ.

١٠- وَفْدُ الْأَزْدِ

ذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي كِتَابِ "مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ" عَنْ سُوَيْدِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ: وَفَدْتُ سَابِعَ سَبْعَةٍ مِنْ قَوْمِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ وَكَلَّمْنَاهُ أَعْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ سَمْتِنَا وَزِيِّنَا.

فَقَالَ ﷺ: "**مَا أَنْتُمْ؟**"

قُلْنَا: مُؤْمِنُونَ.

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: "**إِنَّ لِكُلِّ قَوْلٍ حَقِيقَةً فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكُم وَإِيمَانِكُمْ؟**"

قُلْنَا: خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلَةً، خَمْسٌ مِنْهَا أَمَرَتْنَا بِهَا رُسُلُك أَنْ نُؤْمِنَ بِهَا، وَخَمْسٌ أَمَرَتْنَا أَنْ نَعْمَلَ بِهَا، وَخَمْسٌ تَخَلَّقْنَا بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَنَحْنُ عَلَيْهَا الْآنَ إِلَّا أَنْ تَكْرَهَ مِنْهَا شَيْئًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**وَمَا الْخَمْسُ الَّتِي أَمَرَتْكُم بِهَا رُسُلِي أَنْ تُؤْمِنُوا بِهَا؟**"

قُلْنَا: أَمَرَتْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ.

قَالَ ﷺ: "وَمَا الْخَمْسُ الّتِي أَمَرْتُكُم أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؟"

قُلْنَا: أَمَرْتَنَا أَنْ نَقُولَ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَنُقِيمَ الصّلَاةَ وَنُؤْتِيَ الزّكَاةَ وَنَصُومَ رَمَضَانَ وَنَحُجّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

فَقَالَ ﷺ: "وَمَا الْخَمْسُ الّتِي تَخَلّقْتُم بِهَا فِي الْجَاهِلِيّةِ؟"

قَالُوا: الشّكْرُ عِنْدَ الرّخَاءِ، وَالصّبْرُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالرّضَا بِمُرّ الْقَضَاءِ، وَالصّدْقُ فِي مَوَاطِنِ اللّقَاءِ، وَتَرْكُ الشّمَاتَةِ بِالْأَعْدَاءِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِم أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ".

ثُمّ قَالَ ﷺ: "وَأَنَا أَزِيدُكُم خَمْسًا فَتَتِمّ لَكُم عِشْرُونَ خَصْلَةً، إِنْ كُنْتُم كَمَا تَقُولُونَ فَلَا تَجْمَعُوا مَا لَا تَأْكُلُونَ، وَلَا تَبْنُوا مَا لَا تَسْكُنُونَ، وَلَا تَنَافَسُوا فِي شَيْءٍ أَنْتُم عَنْهُ غَدًا تَزُولُونَ، وَاتّقُوا اللهَ الّذِي إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَعَلَيْهِ تُعْرَضُونَ، وَارْغَبُوا فِيمَا عَلَيْهِ تقْدمُونَ وَفِيهِ تَخْلُدُونَ".

فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَحَفِظُوا وَصِيّتَهُ وَعَمِلُوا بِهَا.

١١- وفد ثقيف

ثقيف: قبيلة منازلها في جبل الحجاز، بين مكة والطائف، وعلى الأصح هي حلقةُ وصلٍ بين جبال الحجاز وسهول تهامة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمّا هَلَكَ أَبُو طَالِبٍ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الْأَذَى مَا لَم تَكُنْ تَنَالُ مِنْهُ فِي حَيَاةِ عَمّهِ أَبِي طَالِبٍ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الطّائِفِ، يَلْتَمِسُ النّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ، وَالْمَنَعَةَ بِهِم مِنْ قَوْمِهِ وَرَجَاءَ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُ مَا جَاءَهُم بِهِ مِنَ اللهِ ﷻ فَخَرَجَ إِلَيْهِم وَحْدَهُ.

فلَمّا انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الطّائِفِ، عَمَدَ إِلَى نَفَرٍ مِنْ ثَقِيفٍ، هُم يَوْمَئِذٍ سَادَةُ ثَقِيفٍ وَأَشْرَافُهُم، وَهُم إِخْوَةٌ ثَلَاثَةٌ: عَبْدُ يَالَيْل بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَمَسْعُودُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَحَبِيبُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَعِنْدَ أَحَدِهِمُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي جُمَحٍ، فَجَلَسَ إِلَيْهِم

رَسُولُ اللهِ ﷺ فَدَعَاهُم إِلَى اللهِ وَكَلّمَهُم بِمَا جَاءَهُم لَهُ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ.

فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: هُوَ يَمْرُطُ ثِيَابَ الْكَعْبَةِ إِنْ كَانَ اللهُ أَرْسَلَك.

وَقَالَ الْآخَرُ: أَمَا وَجَدَ اللهُ أَحَدًا يُرْسِلُهُ غَيْرَك.

وَقَالَ الثَّالِثُ: وَاللهِ لَا أُكَلّمُك أَبَدًا، لَئِنْ كُنْتَ رَسُولًا مِنَ اللهِ كَمَا تَقُولُ لَأَنْتَ أَعْظَمُ خَطَرًا مِنْ أَنْ أَرُدّ عَلَيْك الْكَلَامَ، وَلَئِنْ كُنْت تَكْذِبُ عَلَى اللهِ مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أُكَلّمَك.

فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ عِنْدِهِم وَقَدْ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ، فَأَغْرَوْا بِهِ سُفَهَاءَهُم وَعَبِيدَهُم يَسُبّونَهُ وَيَصِيحُونَ بِهِ حَتّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النّاسُ.

قال ابن عقبة: وقفوا له صفين على طريقه، فلما مرَّ رسول الله ﷺ بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلَّا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

زاد سليمان التيمي أنه ﷺ كان إذا أذلقته الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه ويقيمونه، فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ: وَقَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ مِنْ تَبُوكَ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ تِسْعٍ، وَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ الشّهْرِ وَفْدُ ثَقِيفٍ.

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِم أَنّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمّا انْصَرَفَ عَنْهُمُ اتّبَعَ أَثَرَهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثّقَفِيّ، حَتّى أَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَى الْمَدِينَةِ، فَأَسْلَمَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ إلَى قَوْمِهِ بِالْإِسْلَامِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا يَتَحَدّثُ قَوْمُهُ: "**إنّهُم قَاتِلُوك**"، وَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنّ فِيهِم نَخْوَةَ الِامْتِنَاعِ الّذِي كَانَ مِنْهُم.

فَقَالَ عُرْوَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَا أَحَبُّ إلَيْهِم مِنْ أَبْكَارِهِم أو أَبْصَارِهِم.

وَكَانَ فِيهِم كَذَلِكَ مُحَبَّبًا مُطَاعًا؛ فَخَرَجَ يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ رَجَاءَ أَنْ لَا يُخَالِفُوهُ لِمَنْزِلَتِهِ فِيهِم، فَلَمّا أَشْرَفَ لَهُم عَلَى عِلِّيَّةٍ لَهُ وَقَدْ دَعَاهُم إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَظْهَرَ لَهُم دِينَهُ رَمَوْهُ بِالنَّبْلِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ.

ثُمّ أَقَامَتْ ثَقِيفٌ بَعْدَ قَتْلِ عُرْوَةَ أَشْهُرًا، ثُمّ إِنّهُمُ ائْتَمَرُوا بَيْنَهُم وَرَأَوْا أَنّهُ لَا طَاقَةَ لَهُم بِحَرْبِ مَنْ حَوْلَهُم مِنَ الْعَرَبِ وَقَدْ بَايَعُوا وَأَسْلَمُوا.

فَأْتَمَرُوا بَيْنَهُم وَأَجْمَعُوا أَنْ يُرْسِلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلًا، كَمَا أَرْسَلُوا عُرْوَةَ، فَكَلّمُوا عَبْدَ يَالِيلَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ، وَكَانَ سِنّ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ وَعَرَضُوا ذَلِكَ عَلَيْهِ؛ فَأَبَى أَنْ يَفْعَلَ، وَخَشِيَ أَنْ يُصْنَعَ بِهِ إِذَا رَجَعَ كَمَا صُنِعَ بِعُرْوَة.

فَقَالَ: لَسْت فَاعِلًا حَتّى تُرْسِلُوا مَعِي رِجَالًا؛ فَأَجْمَعُوا أَنْ يَبْعَثُوا مَعَهُ رَجُلَيْنِ مِنَ الْأَحْلَافِ، وَثَلَاثَةً مِنْ بَنِي مَالِكٍ فَيَكُونُوا سِتّةً.

فَخَرَجَ بِهِم عَبْدُ يَالِيلَ، فَلَمّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَنَزَلُوا قَنَاةً أَلْفُوا بِهَا الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، يَرْعَى فِي نَوْبَتِهِ رِكَابَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ رِعْيَتُهَا نُوَبًا عَلَى أَصْحَابِهِ ﷺ، فَلَمّا رَآهُم تَرَكَ الرّكَابَ عِنْدَ الثّقَفِيّينَ وَضَبَرَ يَشْتَدّ؛ لِيُبَشّرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِقُدُومِهِم عَلَيْهِ، فَلَقِيَهُ أَبُو بَكْرٍ الصّدّيقُ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ عَنْ رَكْبِ ثَقِيفٍ أَنْ قَدْ قَدِمُوا يُرِيدُونَ الْبَيْعَةَ وَالْإِسْلَامَ بِأَنْ يَشْرُطَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ شُرُوطًا، وَيَكْتَتِبُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ كِتَابًا فِي قَوْمِهِم وَبِلَادِهِم وَأَمْوَالِهِم.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِلْمُغِيرَةِ: أَقْسَمْتُ عَلَيْك بِاللهِ لَا تَسْبِقْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَتّى أَكُونَ أَنَا أُحَدّثُهُ؛ فَفَعَلَ الْمُغِيرَةُ.

فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِقُدُومِهِم عَلَيْهِ، ثُمّ خَرَجَ الْمُغِيرَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَرَوّحَ الظّهْرَ مَعَهُم، وَعَلّمَهُم كَيْفَ يُحَيّونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَلَم يَفْعَلُوا إِلَّا بِتَحِيّةِ الْجَاهِلِيّةِ، وَلَمّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ضَرَبَ عَلَيْهِم قُبّةً فِي نَاحِيَةِ مَسْجِدِهِ.

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ أَنَّ وَفْدَ ثَقِيفٍ لَمَّا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْزَلَهُمُ الْمَسْجِدَ لِيَكُونَ أَرَقَّ لِقُلُوبِهِم، فَاشْتَرَطُوا عَلَيْهِ أَنْ لَا يُحْشَرُوا وَلَا يُعْشَرُوا وَلَا يُجَبُّوا.

فَقَالَ ﷺ: "**لَكُم أَنْ لَا تُحْشَرُوا وَلَا تُعْشَرُوا، وَلَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَيْسَ فِيهِ رُكُوعٌ**"[(١٠٩)].

فَقَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ يَدْخُلُونَ الْمَسْجِدَ وَهُم مُشْرِكُونَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**إِنَّ الْأَرْضَ لَا يُنَجِّسُهَا شَيْءٌ**".

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْزِلْ قَوْمِي عَلَيَّ فَأُكْرِمُهُم فَإِنِّي حَدِيثُ الْجُرْمِ فِيهِم.

وَكَانَ جُرْمُ الْمُغِيرَةِ أَنَّهُ خَرَجَ فِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ فَقَدِمُوا عَلَى الْمُقَوْقَسِ، فَحَيَّا بَنِي مَالِكٍ وَجَفَاهُ وَهُوَ مِنَ الْأَحْلَافِ، حتى إذا كانوا ببساق عدا عليهم وهم نيام فقتلهم، ثم أقبل بأموالهم حتى أتى رسول الله ﷺ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ.

فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أُخْمُسْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَسْنَا نَغْدِرُ وَلَا يَنْبَغِي لَنَا الْغَدْرُ**"، فَأَبَى أَنْ يَخْمُسَ أَمْوَالَهُم.

وَأَنْزَلَ الْمُغِيرَةُ ثَقِيفًا فِي دَارِهِ بِالْبَقِيعِ، وَهِيَ خُطَّةٌ خَطَّهَا النَّبِيّ ﷺ لَهُ.

وَأَمَرَ النَّبِيّ ﷺ بِخَيْمَاتٍ ثَلَاثٍ مِنْ جَرِيدٍ فَضُرِبَتْ لهم فِي الْمَسْجِدِ، فَكَانُوا يَسْمَعُونَ الْقِرَاءَةَ بِاللَّيْلِ، وَتَهَجُّدَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى الصُّفُوفِ فِي الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ، وَيَرْجِعُونَ إِلَى مَنْزِلِ الْمُغِيرَةِ فَيُطْعَمُونَ وَيَتَوَضَّؤُونَ، وَيَكُونُونَ فِيهِ مَا أَرَادُوا، وَهُم يَخْتَلِفُونَ إِلَى الْمَسْجِدِ.

فَمَكَثُوا عَلَى هَذَا أَيَامًا يَغْدُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كُلَّ يَوْمٍ، ويُخَلِّفُونَ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ عَلَى رِحَالِهِم، وَكَانَ أَصْغَرَهُم، فَكَانَ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِ وَنَامُوا بِالْهَاجِرَةِ خَرَجَ فَعَمَدَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الدِّينِ، وَاسْتَقْرَأَهُ الْقُرْآنَ؛ وَأَسْلَمَ سِرًّا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَاخْتَلَفَ إِلَى النَّبِيّ ﷺ مِرَارًا حَتَّى فَقِهَ وَسَمِعَ الْقُرْآنَ، وَقَرَأَ مِنَ الْقُرْآنِ سُوَرًا مِنْ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا وَجَدَ

(١٠٩) سنن أبي داود، الخراج، ٢٥.

رَسُولَ اللهِ ﷺ نَائِمًا عَمَدَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَسَأَلَهُ وَاسْتَقْرَأَهُ، وَكَتَمَ ذَلِكَ عُثْمَانُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأُعْجِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِهِ وَأَحَبَّهُ.

فَمَكَثَ الْوَفْدُ أَيَّامًا يَخْتَلِفُونَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّبِيُّ يَدْعُوهُم إِلَى الْإِسْلَامِ.

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ يَالَيْل: هَلْ أَنْتَ مُقَاضِينَا حَتَّى نَرْجِعَ إِلَى أَهْلِنَا وَقَوْمِنَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"نَعَم، إِنْ أَنْتُم أَقْرَرْتُم بِالْإِسْلَامِ قَاضَيْتُكُم، وَإِلَّا فَلَا قَضِيَّةَ وَلَا صُلْحَ بَيْنِي وَبَيْنَكُم"**.

قَالَ عَبْدُ يَالَيْل: أَرَأَيْت الزِّنَا؟ فَإِنَّا قَوْمٌ عُزَّابٌ بِغَرْبٍ لَا بُدّ لَنَا مِنْهُ وَلَا يَصْبِرُ أَحَدُنَا عَلَى الْعُزْبَةِ.

قَالَ ﷺ: **"هُوَ مِمَّا حَرّمَ اللهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ"**، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: **﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾** (سورة الإسراء: ١٧/٣٢).

قَالَ: أَرَأَيْت الرِّبَا؟

قَالَ ﷺ: **"الرِّبَا حَرَامٌ"**.

قَالَ: فَإِنّ أَمْوَالَنَا كُلّهَا رِبًا.

قَالَ ﷺ: **"لَكُم رُؤُوسُ أَمْوَالِكُم"**، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** (سورة البقرة: ٢/٢٧٨).

قَالَ: أَفَرَأَيْت الْخَمْرَ؟ فَإِنّهَا عَصِيرُ أَعْنَابِنَا، لَا بُدّ لَنَا مِنْهَا.

قَالَ ﷺ: **"فَإِنّ اللهَ قَدْ حَرّمَهَا"**، ثُمّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ **﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾** (سورة المائدة: ٥/٩٠).

قَالَ: فَارْتَفَعَ الْقَوْمُ وَخَلَا بَعْضُهُم بِبَعْضٍ.

فَقَالَ عَبْدُ يَالَيْل: وَيْحَكُم! نَرْجِعُ إِلَى قَوْمِنَا بِتَحْرِيمِ هَذِهِ الْخِصَالِ الثّلَاثِ، وَاللهِ لَا تَصْبِرُ ثَقِيفٌ عَنِ الْخَمْرِ أَبَدًا، وَلَا عَنِ الزِّنَا أَبَدًا.

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: أَيّهَا الرّجُلُ إنْ يُرِدِ اللهُ بِهَا خَيْرًا تَصْبِرْ عَنْهَا، قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الّذِينَ مَعَهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فَصَبَرُوا وَتَرَكُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ، مَعَ أَنّا نَخَافُ هَذَا الرّجُلَ قَدْ أَوْطَأَ الْأَرْضَ غَلَبَةً، وَنَحْنُ فِي حِصْنٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْإِسْلَامُ حَوْلَنَا فَاشٍ، وَاللهِ لَوْ قَامَ عَلَى حِصْنِنَا شَهْرًا لَمُتْنَا جُوعًا؛ وَمَا أَرَى إلّا الْإِسْلَامَ، وَأَنَا أَخَافُ يَوْمًا مِثْلَ يَوْمِ مَكّةَ.

وَكَانَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ هُوَ الّذِي يَمْشِي بَيْنَهُم وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتّى اكْتَتَبُوا كِتَابَهُم، وأَسْلَمُوا وَفَرَغُوا مِنْ كِتَابِهِم، وَقَدْ كَانَ فِيمَا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَدَعَ لَهُمُ الطّاغِيَةَ، وَهِيَ اللّاتُ، لَا يَهْدِمُهَا ثَلَاثَ سِنِينَ، فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَلِكَ عَلَيْهِم، فَمَا بَرِحُوا يَسْأَلُونَهُ سَنَةً سَنَةً وَيَأْبَى عَلَيْهِم، حَتّى سَأَلُوا شَهْرًا وَاحِدًا بَعْدَ مَقْدَمِهِم فَأَبَى عَلَيْهِم أَنْ يَدَعَهَا شَيْئًا مُسَمًّى.

وَإِنّمَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ فِيمَا يُظْهِرُونَ أَنْ يَتَسَلّمُوا بِتَرْكِهَا مِنْ سُفَهَائِهِم وَنِسَائِهِم وَذَرَارِيّهِم، وَيَكْرَهُونَ أَنْ يُرَوّعُوا قَوْمَهُم بِهَدْمِهَا حَتّى يَدْخُلَهُمُ الْإِسْلَامُ؛ فَأَبَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إلّا أَنْ يَبْعَثَ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَالْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ فَيَهْدِمَاهَا.

وَقَدْ كَانُوا سَأَلُوهُ مَعَ تَرْكِ الطّاغِيَةِ أَنْ يُعْفِيَهُم مِنَ الصّلَاةِ، وَأَنْ لَا يَكْسِرُوا أَوْثَانَهُم بِأَيْدِيهِم.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **"أَمّا كَسْرُ أَوْثَانِكُم بِأَيْدِيكُم فَسَنُعْفِيكُم مِنْهُ، وَأَمّا الصّلَاةُ فَإِنّهُ لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ"**.

وعن غطيف بن أبي سفيان قال: أتت الأنصار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف.

فقال ﷺ: **"اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا"**.

قالوا: يا رسول الله ادعُ عليهم.

فقال ﷺ: **"اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا"**.

فعـادوا فأسـلموا، فَوُجِدُوا من صالحي الناس إسـلامًا، وَوُجِـدَ منهـم أئمة وقادة، وكانوا في بداية إسلامهم لا يأتون الصلاة.

فقال عمر ﷺ: يا رسول الله إنهم لا يصلون.

فقال النَّبِيّ ﷺ: "**دَعْهُمْ يَا عُمَرُ، فَإِنَّهُم سَيَسْتَحْيُونَ أَلَّا يُصَلُّوا**".

فمكثوا يومهم لا يصلون والغد حتى إذا كان عند العصر صلّوا بغير وضوء.

فقال عمر ﷺ: يا رسول الله صلوا بلا وضوء.

فقال ﷺ: "**دَعْهُم فَإِنَّهُم سَيَتَوَضَّؤُونَ**".

حتى إذا كان اليوم الثالث غسلوا وجوههم ورؤوسهم وأعناقهم وأيديهم إلى المناكب وتركوا الأرجل.

فقال عمر ﷺ: إنهم فعلوا كذا وكذا.

فقال ﷺ: "**دَعْهُـم فَإِنَّهُم سَيَتَوَضَّؤُونَ**".

وغدوا اليوم الخامس فغسلوا البطون والظهور.

قَـالَ ابْـنُ إِسْـحَاقَ: وَحَدّثَنِـي عِيسَـى بْـنُ عَبْـدِ اللهِ بْنِ عَطِيّـةَ بْنِ سُـفْيَانَ بْنِ رَبِيعَـةَ الثّقَفِيّ، عَنْ بَعْضِ وَفْدِهِم.

قَالَ: كَانَ بِلَالٌ يَأْتِينَا حِينَ أَسْـلَمْنَا وَصُمْنَا مَـعَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ مَا بَقِيَ مِنْ رَمَضَانَ بِفِطْرِنَا وَسَحُورِنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيَأْتِينَا بِالسّحُورِ وَإِنّا لَنَقُولُ: إنّا لَنَرَى الْفَجْرَ قَدْ طَلَـعَ.

فَيَقُـولُ: قَـدْ تَرَكْت رَسُـولَ اللهِ ﷺ يَتَسَـحّرُ؛ لِتَأْخِيرِ السّـحُورِ، وَيَأْتِينَا بِفِطْرِنَـا، وَإِنّا لَنَقُولُ: مَا نَرَى الشّمْسَ كُلّهَا ذَهَبَتْ بَعْدُ.

فَيَقُولُ: مَا جِئْتُكُم حَتّى أَكَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمّ يَضَـعُ يَدَهُ فِي الْجَفْنَةِ فَيَلْتَقِمُ مِنْهَا.

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ ﷺ قَالَ: كَانَ مِنْ آخِرِ مَا عَهِدَ إِلَيّ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ بَعَثَنِي على ثقيف أن قال ﷺ: "يَا عُثْمَانُ تَجَاوَزْ فِي الصَّلَاةِ، وَاقْدُرِ النَّاسَ بِأَضْعَفِهِم؛ فَإِنَّ فِيهِمُ الْكَبِيرَ وَالصَّغِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ".

فلما عاد الوفد إلى قومهم قالوا: فَإِنَّنَا قَدْ قَاضَيْنَاهُ وَأَعْطَانَا مَا أَحْبَبْنَاهُ وَشَرَطَ لَنَا مَا أَرَدْنَا، وَوَجَدْنَاهُ أَتْقَى النَّاسِ وَأَبَرَّ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ وَأَوْفَى النَّاسِ وَأَصْدَقَ النَّاسِ وَأَرْحَمَ النَّاسِ، وَقَدْ تَرَكْنَا مِنْ هَدْمِ الرَّبَّةِ، وَأَبَيْنَا أَنْ نَهْدِمَهَا.

فَقَالَ ﷺ: "أَبْعَثُ مَنْ يَهْدِمُهَا"، وَهُوَ يَبْعَثُ مَنْ يَهْدِمُهَا.

فقال شَيْخٌ مِنْ ثَقِيفٍ قَدْ بَقِيَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الشِّرْكِ بَعْدُ بَقِيَّةٌ: فَذَاكَ وَاللهِ مِصْدَاقُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، إِنْ قَدَرَ عَلَى هَدْمِهَا فَهُوَ مُحِقّ وَنَحْنُ مُبْطِلُونَ، وَإِنِ امْتَنَعَتْ فَفِي النَّفْسِ مِنْ هَذَا بَعْدُ شَيْءٌ.

فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ الْعَاصِ: مَنَّتْك نَفْسُك الْبَاطِلَ وَغَرّتْك الْغُرُورَ، وَمَا الرّبّةُ؟

وَمَا تَدْرِي الرّبّةُ مَنْ عَبَدَهَا وَمَنْ لَم يَعْبُدْهَا؟ كَمَا كَانَتِ الْعُزّى مَا تَدْرِي مَنْ عَبَدَهَا وَمَنْ لَم يَعْبُدْهَا، جَاءَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ وَحْدَهُ فَهَدَمَهَا؛ وَكَذَلِك إِسَافُ وَنَائِلَةُ وَهُبَلُ وَمَنَاةُ خَرَجَ إِلَيْهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَهَدَمَهَا.

ومِن فِقْهِ وفد ثقيف:

أ. جَوَازُ إِنْزَالِ الْمُشْرِكِ فِي الْمَسْجِدِ، وَلَا سِيّمَا إِذَا كَانَ يَرْجُو إِسْلَامَهُ، وَتَمْكِينَهُ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، وَمُشَاهَدَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ وَعِبَادَتِهِم[١١٠].

ب. الْمُسْتَحِقّ لِإِمْرَةِ الْقَوْمِ وَإِمَامَتِهِم أَفْضَلُهُم وَأَعْلَمُهُم بِكِتَابِ اللهِ وَأَفْقَهُهُم فِي دِينِهِ[١١١].

١٢- وَفْدُ طَيِّئٍ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَفْدُ طَيِّئٍ وَفِيهِم زَيْدُ الْخَيْلُ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمُوا وَحَسُنَ إِسْلَامُهُم.

(١١٠) انظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ٣/٦٥٢.
(١١١) المرجع السابق، ٣/٦٥٢.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "مَا ذُكِرَ لِي رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ ثُمّ جَاءَنِي إِلَّا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا يُقَالُ فِيهِ إِلّا زَيْدَ الْخَيْلِ، فَإِنّهُ لَم يَبْلُغْ كُلَّ مَا فِيهِ، ثُمّ سَمّاهُ زَيْدٌ الْخَيْرُ، وَقطَعَ لَهُ فَيْدًا وَأَرَضِينَ مَعَهُ، وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ".

١٣- وَفْدُ الْأَشْعَرِيّينَ وَأَهْلِ الْيَمَنِ

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "يَقْدَمُ قَوْمٌ هُمْ أَرَقُّ مِنْكُمْ قُلُوبًا"، فَقَدِمَ الْأَشْعَرِيّونَ فَجَعَلُوا يَرْتَجِزُونَ غَدًا نَلْقَى الْأَحِبّةَ مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "جَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ هُم أَرَقُّ أَفْئِدَةً وَأَضْعَفُ قُلُوبًا الإِيمَانُ يَمَانٍ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ وَالْفَخْرُ وَالْخُيَلَاءُ فِي الْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ قِبَلَ مَطْلِعِ الشَّمْسِ"(١١٢).

١٤- وَفْدُ مُزَيْنَةَ

عَنِ النّعْمَانِ بْنِ مُقَرّنٍ ﷺ قَالَ: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَرْبَعمِائَةِ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، فَلَمّا أَرَدْنَا أَنْ نَنْصَرِفَ قَالَ ﷺ: "يَا عُمَرُ زَوّدِ الْقَوْمَ".

فَقَالَ: مَا عِنْدِي إِلّا شَيْءٌ مِنْ تَمْرٍ مَا أَظُنّهُ يَقَعُ مِنَ الْقَوْمِ مَوْقِعًا.

قَالَ ﷺ: "انْطَلِقْ فَزَوِّدْهُمْ".

قَالَ: فَانْطَلَقَ بِهِم عُمَرُ فَأَدْخَلَهُم مَنْزِلَهُ ثُمّ أَصْعَدَهُم إِلَى عُلّيّةٍ، فَلَمّا دَخَلْنَا إِذَا فِيهَا مِنَ التّمْرِ مِثْلُ الْجَمَلِ الْأَوْرَقِ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ مِنْهُ حَاجَتَهُم.

قَالَ النّعْمَانُ: فَكُنْتُ فِي آخِرِ مَنْ خَرَجَ، فَنَظَرْتُ فَمَا أَفْقِدُ مَوْضِعَ تَمْرَةٍ مِنْ مَكَانِهَا.

١٥- وفد دَوْس

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَ الطّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدّوْسِيّ يُحَدّثُ أَنّهُ قَدِمَ مَكّةَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِهَا، فَمَشَى إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكَانَ الطّفَيْلُ رَجُلًا شَرِيفًا شَاعِرًا لَبِيبًا.

(١١٢) صحيح مسلم، الإيمان، ٨٩.

قَالُوا لَهُ: إنَّك قَدِمْتَ بِلَادَنَا وَإِنَّ هَذَا الرّجُلَ -وَهُوَ الّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا- فرّق جَمَاعَتَنَا، وَشَتّتَ أَمْرَنَا، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ يُفَرّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَابْنِهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ، وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَإِنَّمَا نَخْشَى عَلَيْك وَعَلَى قَوْمِك مَا قَدْ حَلَّ عَلَيْنَا، فَلَا تُكَلّمْهُ وَلَا تَسْمَعْ مِنْهُ.

قَالَ: فَوَاللهِ مَا زَالُوا بِي حَتّى أَجْمَعْت أَنْ لَا أَسْمَعَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا أُكَلّمَهُ حَتّى حَشَوْتُ فِي أُذُنَيّ حِينَ غَدَوْتُ إلَى الْمَسْجِدِ كُرْسُفًا؛ فَرَقًا مِنْ أَنْ يَبْلُغَنِي شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ.

قَالَ: فَغَدَوْتُ إلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ يُصَلّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ فَقُمْتُ قَرِيبًا مِنْهُ فَأَبَى اللهُ إلّا أَنْ يُسْمِعَنِي بَعْضَ قَوْلِهِ، فَسَمِعْتُ كَلَامًا حَسَنًا.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَا ثُكْلَ أُمّيَاهُ، وَاللهِ إنّي لَرَجُلٌ لَبِيبٌ شَاعِرٌ مَا يَخْفَى عَلَيَّ الْحَسَنُ مِنَ الْقَبِيحِ، فَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَسْمَعَ مِنْ هَذَا الرّجُلِ مَا يَقُولُ؟ فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ حَسَنًا قَبِلْت، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا تَرَكْتُ.

قَالَ: فَمَكَثْتُ حَتّى انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَى بَيْتِهِ فَتَبِعْتُهُ حَتّى إذَا دَخَلَ بَيْتَهُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ: يَا مُحَمّدُ إنَّ قَوْمَك قَدْ قَالُوا لِي كَذَا وَكَذَا، فَوَاللهِ مَا بَرِحُوا يُخَوّفُونِي أَمْرَك حَتّى سَدَدْت أُذُنَيّ بِكُرْسُفٍ لِئَلّا أَسْمَعَ قَوْلَك، ثُمّ أَبَى اللهُ إلّا أَنْ يُسْمِعَنِيهِ فَسَمِعْتُ قَوْلًا حَسَنًا، فَاعْرِضْ عَلَيّ أَمْرَك.

فَعَرَضَ عَلَيّ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْإِسْلَامَ، وَتَلَا عَلَيّ الْقُرْآنَ، فَلَا وَاللهِ مَا سَمِعْتُ قَوْلًا قَطّ أَحْسَنَ مِنْهُ وَلَا أَمْرًا أَعْدَلَ مِنْهُ، فَأَسْلَمْت وَشَهِدْتُ شَهَادَةَ الْحَقّ.

وَقُلْتُ: يَا نَبِيّ اللهِ إنّي امْرُؤٌ مُطَاعٌ فِي قَوْمِي، وَإِنّي رَاجِعٌ إلَيْهِم فَدَاعِيهِم إلَى الْإِسْلَامِ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ يَجْعَلَ لِي آيَةً تَكُونُ عَوْنًا لِي عَلَيْهِم فِيمَا أَدْعُوهُم إلَيْهِ.

فَقَالَ ﷺ: "**اللهُمّ اجْعَلْ لَهُ آيَةً**".

قَالَ: فَخَرَجْتُ إلَى قَوْمِي حَتّى إذَا كُنْتُ بِثَنِيّةٍ تُطْلِعُنِي عَلَى الْحَاضِرِ؛ وَقَعَ نُورٌ بَيْنَ عَيْنَيّ مِثْلَ الْمِصْبَاحِ.

قُلْتُ: اللهُمّ فِي غَيْرِ وَجْهِي إنّي أَخْشَى أَنْ يَظُنّوا أَنّهَا مُثْلَةٌ وَقَعَتْ فِي وَجْهِي لِفِرَاقِي دِينِهِم.

قَالَ: فَتَحوّلَ فَوَقَعَ فِي رَأْسِ سَوْطِي كَالْقِنْدِيلِ الْمُعَلّقِ، وَأَنَا أَنْهَبِطُ إِلَيْهِم مِنَ الثَّنِيّةِ حَتّى جِئْتهم وَأَصْبَحْتُ فِيهِم، فَلَمّا نَزَلْت أَتَانِي أَبِي وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا.

فَقُلْتُ: إلَيْك عَنّي يَا أَبَتِ فَلَسْتَ مِنّي وَلَسْتُ مِنْك.

قَالَ: لِمَ يَا بُنَيّ؟

قُلْتُ: قَدْ أَسْلَمْت وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمّدٍ.

قَالَ: يَا بُنَيّ فَدِينِي دِينُك.

قَالَ: فَقُلْت: اذْهَبْ فَاغْتَسِلْ وَطَهّرْ ثِيَابَك ثُمّ تَعَالَ حَتّى أُعَلّمَك مَا عَلِمْتُ.

قَالَ: فَذَهَبَ فَاغْتَسَلَ وَطَهّرَ ثِيَابَهُ ثُمّ جَاءَ فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ.

ثُمّ أَتَتْنِي صَاحِبَتِي فَقُلْتُ لَهَا: إلَيْكِ عَنّي فَلَسْتُ مِنْكِ وَلَسْتِ مِنّي.

قَالَتْ: لِمَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمّي؟

قُلْتُ: فَرّقَ الْإِسْلَامُ بَيْنِي وَبَيْنَك، أَسْلَمْتُ وَتَابَعْتُ دِينَ مُحَمّدٍ.

قَالَتْ: فَدِينِي دِينُك.

قَالَ قُلْتُ: فَاذْهَبِي فَاغْتَسِلِي.

فَفَعَلَتْ ثُمّ جَاءَتْ فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَتْ، ثُمّ دَعَوْتُ دَوْسًا إلَى الْإِسْلَامِ فَأَبْطَؤُوا عَلَيّ.

فَجِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنّهُ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى دَوْسٍ الزّنَا، فَادْعُ اللهَ عَلَيْهِم.

فَقَالَ ﷺ: "اللهُمّ اهْدِ دَوْسًا".

ثُمّ قَالَ ﷺ: "ارْجِعْ إلَى قَوْمِك فَادْعُهُم إلَى اللهِ وَارْفُقْ بِهِم".

فَرَجَعْتُ إِلَيْهِم فَلَم أَزَلْ بِأَرْضِ دَوْسٍ أَدْعُوهُم إِلَى اللهِ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بِخَيْبَرَ فَنَزَلْتُ الْمَدِينَةَ بِسَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ بَيْتًا مِنْ دَوْسٍ، ثُمَّ لَحِقْنَا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِخَيْبَرَ فَأَسْهَمَ لَنَا مَعَ الْمُسْلِمِينَ.

د. سياسته ﷺ في إرسال الرسائل الدعويَّة إلى العالمين

جاءت رسالة الإسلام عالميَّة، لم تتوقف عند حدود مكة أو العرب فقط بل شملت العالم كله، تصديقًا لقول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ١/٢٥)، وتحقيقًا لعالمية الإسلام، التي تأكدت في آيات الذكر الحكيم، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سورة سبأ: ٢٨/٣٤).

وقال ﷺ: "**إِنَّ اللهَ ﷻ بَعَثَنِي رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً**"[١١٣].

١- رسالته ﷺ إلى ملك اليمن

بعد مرجع النَّبيّ ﷺ من تبوك قَدِمَ كتابُ ملوكِ حِمْيَر، وهم الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرَّهَاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله.

فكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بَيَّنَ فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيه المعاهدين ذمةَ الله وذمةَ رسوله إذا أَعْطوْا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجالًا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل، وجعله على الكورة العلياء من جهة عَدَن بين السَّكُون والسَّكَاسِك، وكان قاضيًا وحاكمًا في الحروب، وعاملًا على أخذ الصدقة والجزية، ويصلِّي بهم الصلوات الخمس.

وبعث أبا موسى الأشعري ﷺ على الكورة السفلى: زُبَيْد ومأرب وَزَمَع والساحل، وقال ﷺ: "**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**".

(١١٣) الطبراني: المعجم الكبير، ٨/٢٠.

وقد مكث معاذ باليمن حتى توفي رسول الله ﷺ، أما أبو موسى الأشعري ﷺ فقدم عليه ﷺ في حجة الوداع.

٢- رسالته ﷺ إلى هِرَقْلَ

أرسل النَّبيّ ﷺ كتابًا يحمله دحية بن خليفة الكلبي، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى هرقل ملك الروم، وقال فيه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمِ، وَأَسْلِمِ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الأَرِيسِيِّينَ و﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٣/٦٤)(١١٤).

وبعدها أَرْسَلَ هرقل إِلَى أبي سفيان بن حرب وهو فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ -وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ- فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُم بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُم فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُم وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ.

فَقَالَ: أَيُّكُم أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَنَا أَقْرَبُهُم نَسَبًا.

فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُم عِنْدَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُم إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ.

(١١٤) ابن سيد الناس: عيون الأثر، ٢/٣٣٤.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُم أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟

قَالَ أَبُو سُفيَانَ: لَا.

قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَم ضُعَفَاؤُهُمْ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهم.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَم يَنْقُصُونَ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُم سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُم تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟

قال أَبُو سُفْيَانَ: نَعَم.

قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُم إِيَّاهُ؟

قال أَبُو سُفْيَانَ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ.

قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُم؟

قال أَبُو سُفْيَانَ: يَقُولُ: اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُم، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ هرقل لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُم ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُم هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لا، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لا، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُم تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَم يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَم ضُعَفَاؤُهُم فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُم أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَم يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُم يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُم، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُم أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُم عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُم بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ.

فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَم أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُم، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ(١١٥).

٣- رسالته ﷺ إلى كِسْرَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ اللَّهِ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، أَسْلِمِ تَسْلَمِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْمَجُوسِ.

فَلَمَّا قُرِئَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مَزَّقَهُ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: "**مَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ**".

وقد كان كما قال.

(١١٥) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١.

٤- رسالته ﷺ إلى النّجاشيّ

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ إِلَى النّجَاشِيّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ أَسْلِم أَنْتَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللّهَ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطّيّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ اللّهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنّي أَدْعُوكَ إِلَى اللّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي؛ فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ، وَإِنّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللّهِ ﷻ، وَقَدْ بَلّغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسّلَامُ عَلَى مَنِ اتّبَعَ الْهُدَى.

وَبَعَثَ بِالْكِتَابِ مَعَ عَمْرِو بْنِ أُمَيّةَ الضّمْرِيّ، فَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنّ عَمْرًا قَالَ لَهُ: يَا أَصْحَمَةُ إِنّ عَلَيّ الْقَوْلَ وَعَلَيْكَ الِاسْتِمَاعَ، إِنّك كَأَنّك فِي الرّقّةِ عَلَيْنَا وَكَأَنّا فِي الثّقَةِ بِك مِنْك؛ لِأَنّا لَم نَظُنّ بِك خَيْرًا قَطّ إِلّا نِلْنَاهُ، وَلَم نَخَفْك عَلَى شَيْءٍ قَطّ إِلّا أَمِنّاهُ، وَقَدْ أَخَذْنَا الْحُجّةَ عَلَيْك مِنْ فِيك، الْإِنْجِيلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَك شَاهِدٌ لَا يُرَدّ وَقَاضٍ لَا يَجُورُ، وَفِي ذَلِكَ مَوْقِعُ الْحَزّ وَإِصَابَةُ الْمُفَصّلِ، وَإِلّا فَأَنْتَ فِي هَذَا النّبِيّ الْأُمّيّ كَالْيَهُودِ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدْ فَرّقَ النّبِيُّ ﷺ رُسُلَهُ إِلَى النّاسِ فَرَجَاك لِمَا لَم يَرْجُهُم لَهُ، وَأَمّنَك عَلَى مَا خَافَهُم عَلَيْهِ بِخَيْرٍ سَالِفٍ وَأَجْرٍ يُنْتَظَرُ.

فَقَالَ النّجَاشِيّ: أَشْهَدُ بِاللهِ أَنّهُ النّبِيُّ الْأُمّيُّ الّذِي يَنْتَظِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ، وَأَنّ بِشَارَةَ مُوسَى بِرَاكِبِ الْحِمَارِ كَبِشَارَةِ عِيسَى بِرَاكِبِ الْجَمَلِ، وَأَنّ الْعِيَانَ لَيْسَ بِأَشْفَى مِنَ الْخَبَرِ.

ثُمّ كَتَبَ النّجَاشِيّ جَوَابَ كِتَابِ النّبِيّ ﷺ:

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

إِلَى مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ مِنَ النّجَاشِيّ أَصْحَمَةَ سَلَامٌ عَلَيْك يَا نَبِيّ اللّهِ مِنَ اللّهِ وَرَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ، أَمّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُك يَا رَسُولَ اللّهِ فِيمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ

عِيسَــى، فَوَرَبِّ السَّــمَاءِ وَالْأَرْضِ إنّ عِيسَى لَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ ثُفْرُوقًا[116]، إنّهُ كَمَا ذَكَرْت، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بُعِثْت بِهِ إِلَيْنَا، وَقَدْ قَرّبْنَا ابْنَ عَمّك وَأَصْحَابَهُ، فَأَشْهَدُ أَنّك رَسُولُ اللّهِ صَادِقًا مُصَدّقًا، وَقَدْ بَايَعْتُك وَبَايَعْتُ ابْنَ عَمّك وَأَسْلَمْتُ عَلَى يَدَيْهِ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ.

وتوفي النَّجَاشِيُّ سَنَةَ تِسْعٍ، وَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَوْتِهِ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَخَرَجَ بِالنّاسِ إِلَى الْمُصَلَّى فَصَلَّى عَلَيْهِ وَكَبّرَ أَرْبَعًا.

٥- رسالته ﷺ إلى الْمُقَوْقِسِ

وَكَتَبَ إِلَى الْمُقَوْقِسِ مَلِكِ مِصْرَ وَالْإِسْكَنْدَرِيّةِ:

بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ

مِــنْ مُحَمّدٍ عَبْدِ اللّهِ وَرَسُــولِهِ إِلَى الْمُقَوْقِــسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ، سَــلَامٌ عَلَى مَنِ اتّبَعَ الْهُدَى، أَمّا بَعْدُ فَإِنّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمِ تَسْلَمِ، وَأَسْلِمِ يُؤْتِكَ اللّهُ أَجْرَكَ مَرّتَيْنِ؛ فَإِنْ تَوَلّيْت فَإِنّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْـرِكَ بِهِ شَــيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: ٣/ ٦٤).

وَبَعَثَ بِهِ مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ ؓ، فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: إِنّهُ كَانَ قَبْلَك رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنّهُ الرّبّ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، فَانْتَقَمَ بِهِ ثُمّ انْتَقَمَ مِنْهُ، فَاعْتَبِرْ بِغَيْرِك وَلَا يَعْتَبِرْ غَيْرُك بِك.

فَقَالَ: إِنّ لَنَا دِينًا لَنْ نَدَعَهُ إِلّا لِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.

فَقَالَ حَاطِبٌ ؓ: نَدْعُوكَ إِلَى دِينِ اللهِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ الْكَافِي بِهِ اللهُ فَقْدَ مَا سِوَاهُ، إِنّ هَذَا النّبِيّ دَعَا النّاسَ فَكَانَ أَشَدّهُم عَلَيْهِ قُرَيْشٌ وَأَعْدَاهُم لَهُ الْيَهُودُ وَأَقْرَبَهُم مِنْهُ النّصَارَى، وَلَعَمْرِي مَا بِشَارَةُ مُوسَى بِعِيسَى إِلّا كَبِشَارَةِ عِيسَى بِمُحَمّدٍ، وَمَا دُعَاؤُنَا إِيّاكَ إِلَى الْقُرْآنِ

(١١٦) ثُفْرُوق: عِلَاقَة مَا بَيْنَ النّوَاةِ وَالْقِشْرِ.

إِلَّا كَدُعَائِك أَهْلَ التَّوْرَاةِ إِلَى الْإِنْجِيلِ، وَكُلُّ نَبِيٍّ أَدْرَكَ قَوْمًا فَهُم مِنْ أُمَّتِهِ، فَالْحَقّ عَلَيْهِم أَنْ يُطِيعُوهُ، وَأَنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَهُ هَذَا النَّبِيّ، وَلَسْنَا نَنْهَاك عَنْ دِينِ الْمَسِيحِ وَلَكِنَّا نَأْمُرُك بِهِ.

فَقَالَ الْمُقَوْقِسُ: إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ هَذَا النَّبِيِّ فَوَجَدْتُهُ لَا يَأْمُرُ بِمَزْهُودٍ فِيهِ، وَلَا يَنْهَى عَنْ مَرْغُوبٍ فِيهِ، وَلَم أَجِدْهُ بِالسَّاحِرِ الضَّالِّ، وَلَا الْكَاهِنِ الْكَاذِبِ، وَوُجِدَتْ مَعَهُ آيَةُ النُّبُوَّةِ بِإِخْرَاجِ الْخَبْءِ وَالْإِخْبَارِ بِالنَّجْوَى، وَسَأَنْظُرُ.

وَأَخَذَ كِتَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَهُ فِي حُقّ مِنْ عَاجٍ وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَى جَارِيَةٍ لَهُ، ثُمّ دَعَا كَاتِبًا لَهُ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيّةِ، فَكَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِمُحَمّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ مِنَ الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَيْك، أَمّا بَعْدُ فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَك وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فيهِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنّ نَبِيّا بَقِيَ وَكُنْتُ أَظُنّ أَنّهُ يَخْرُجُ بِالشّامِ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَك وَبَعَثْتُ إِلَيْك بِجَارِيَتَيْنِ لَهُمَا مَكَانٌ فِي الْقِبْطِ عَظِيمٌ، وَبِكِسْوَةٍ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْك بَغْلَةً لِتَرْكَبَهَا وَالسّلَامُ عَلَيْك.

وَلَم يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَم يُسْلِم.

وَالْجَارِيَتَانِ هما مَارِيَةُ وَسِيرِينُ، وَالْبَغْلَةُ دُلْدُلُ بَقِيَتْ إِلَى زَمَنِ مُعَاوِيَةَ.

٦- رسالته ﷺ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى عَامِلِ الْبَحْرَيْنِ

ذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: وَجَدْت هَذَا الْكِتَابَ فِي كُتُبِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما بَعْدَ مَوْتِهِ فَنَسَخْته فَإِذَا فِيهِ: بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيّ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى، وَكَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَكَتَبَ الْمُنْذِرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ:

أَمّا بَعْدُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنّي قَرَأْتُ كِتَابَكَ عَلَى أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ، فَمِنْهُم مَنْ أَحَبَّ الْإِسْلَامَ وَأَعْجَبَهُ وَدَخَلَ فيهِ، وَمِنْهُم مَنْ كَرِهَهُ، وَبِأَرْضِي مَجُوسٌ، وَيَهُودُ، فَأَحْدِثْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ أَمْرَك.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُذَكِّرُكَ اللَّهَ ﷻ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُم فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ نَصَحَ لَهُم فَقَدْ نَصَحَ لِي، وَإِنَّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيْرًا، وَإِنِّي قَدْ شَفَّعْتُكَ فِي قَوْمِكَ فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ فَاقْبَلْ مِنْهُم، وَإِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ مَجُوسِيَّةٍ فَعَلَيْهِ الْجِزْيَةُ(١١٧).

وقال المنذر بن ساوى للعلاء بن الحضرمي: قَدْ نَظَرْت فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي فِي يَدِي، فَوَجَدْته لِلدُّنْيَا دُونَ الْآخِرَةِ، وَنَظَرْت فِي دِينِكُم فَوَجَدْته لِلْآخِرَةِ وَالدُّنْيَا، فَمَا يَمْنَعُنِي مِنْ قَبُولِ دِينٍ فِيهِ أُمْنِيَّةُ الْحَيَاةِ وَرَاحَةُ الْمَوْتِ، وَلَقَدْ عَجِبْت أَمْسِ مِمَّنْ يَقْبَلُهُ وَعَجِبْت الْيَوْمَ مِمَّنْ يَرُدُّهُ، وَإِنَّ مِنْ إعْظَامِ مَنْ جَاءَ بِهِ أَنْ يُعَظَّمَ رَسُولُهُ، وَسَأَنْظُرُ(١١٨).

ولقد كان النَّبِيّ ﷺ يخاطب كل ملك أو أمير قبيلة بما يتناسب معه، وبما يعرف عند علماء البلاغة بمراعاة مقتضى الحال، فيختار كلماته المفعمة باللين والرحمة، فتقع من عقل المتلقي بمكان قبل قلبه، فينجذب بتأثير الرفق والحكمة مع نور النبوة.

(١١٧) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد، ٣/٦٠٠.

(١١٨) السهيلي: الروض الأنف، ٤/٣٩٠.

هـ. سياسته ﷺ في تجنب الحروب وسرعة إنهائها

فقد أمرنا الشرع الإسلامي بالأخذ بالظاهر وعدم التفتيش عن قلوب الناس، ففي أثناء الجهاد لو أظهر أحد المقاتلين الشهادة عصم دمه وأمن، ودليل ذلك:

١- عَنِ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ﷺ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَا تَقْتُلْهُ**".

قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ قَدْ قَطَعَ يَدِي، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ قَطَعَهَا، أَفَأَقْتُلُهُ؟

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**لَا تَقْتُلْهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ**"(١١٩).

٢- وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَأَدْرَكْتُ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ**".

قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ.

قَالَ ﷺ: "**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَم لَا**".

فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ.

(١١٩) صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٥.

قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللهِ لَا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ. يَعْنِي أُسَامَةَ.

قَالَ: قَالَ رَجُلٌ أَلَم يَقُلِ اللهُ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (سورة الأنفال: ٣٩/٨). فَقَالَ سَعْدٌ ﷺ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ[١٢٠].

٣- قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ (سورة النِّساء: ٩٤/٤) فقد قرأه نافع وابن عامر وحمزة وخلف: "السَّلَمَ"، بدون ألف بعد اللام وهو ضدُّ الحرْبِ، ومعنى أَلْقَى السَّلَمَ أَظْهَرَهُ بينكم كأنَّهُ رماه بينهم.

وقرأ البقية "السَّلام" بالألف، وهو مشترك بين معنى السلم ضِدِّ الْحَرْبِ ومعنى تحية الإسلام، فهي قول: السلام عليكم[١٢١].

ومقتضى الإطلاق أن من قال: لا إله إِلَّا الله محمد رسول الله أو قال إني مسلم يحكم له بحكم الإسلام.

وإذا فُسِّرَ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بالتحية، فلا مانع أيضًا؛ لأن سلامه بتحية الإسلام مُؤْذِنٌ بطاعته وانقياده، ويحتمل أن يراد به الانحياز والترك، فإن قال: سلام عليكم، فلا ينبغي أن يُقتل أيضًا حتى يعلم ما وراء هذا؛ لأنه موضع إشكال.

ولا يكفي في رأي مالك أن يقول: أنا مسلم أو أنا مؤمن، أو أن يصلِّي، حتى يتكلّم بالكلمة العاصمة التي علّق النّبيّ ﷺ الحكم بها عليه في قوله ﷺ: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**"[١٢٢].

وقال الإمام الشافعي: إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم؛ لأن ما يظهرونه يجبُّ ما قبله، ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة

(١٢٠) المصدر السابق.
(١٢١) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ١٦٧/٥.
(١٢٢) وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ٢١٩/٥.

والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ ﷻ**".

ومعنى هذا: أنَّ من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا.

وقال ابن العربي في "أحكامِه": روى الترمذيُّ وغيرُهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَقُولُوا: لَا إله إِلَّا الله، فإذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دَمَاءَهُم وأَمْوَالَهُم إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُم عَلَى اللهِ**"، ثم قرأ: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾ (سورة الغَاشِيَة: ٨٨/٢١-٢٢) مفسِّرًا معنى الآيةِ وكاشفًا خفاءَ الخفاءِ عنها، المعنى: إذا قال الناسُ: لا إله إلَّا الله فَلَسْتَ بمسلَّطٍ على سَرَائِرِهم وإنما عَلَيْكَ الظاهِرُ، وَكِلْ سرائرَهم إلى الله تعالى، وهذا الحديثُ صحيحُ المعنى، والله أعلم، انتهى.

ويرى ابن عاشور أن الآية ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/٢٥٦) فيها نفي الإكراه، خبر في معنى النهي، والمراد نفي أسباب الإكراه في حكم الإسلام، أي لا تُكرِهوا أحدًا على اتباع الإسلام قسرًا، وجِيءَ بنفي الجنس لقصد العموم نصًّا.

وهو يرى أنه قد تقرر في صدر الإسلام قتال المشركين على الإسلام، ويستدل على ذلك بالحديث: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا**".

فهو يرى أن الحديث فيه أمر في صدر الإسلام بقتال المشركين على الإسلام.

وهو يرى أن الآية ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ نزلت بعد فتح مكة واستخلاص بلاد العرب، فهي ناسخة، نسخت حكم القتال على قبول الكافرين الإسلام، وكذلك فهي ناسخة للحديث.

يقول: كَمَا نُسِخَ حَدِيثُ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ"، هَذَا مَا يَظْهَرُ لَنَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ(١٢٣).

وليس في الحديث أمر بقتال المشركين لأجل إكراههم على الإسلام، ولا يمكن القول أنه في زمنٍ كان هناك إكراه في دين الله ثم نُسِخَ، وآيات القتال لم تَنْسَخ آية النهي عن الإكراه ولا العكس، بل الإكراه ممتنع في كل وقت وكل مكان في السلم وفي الحرب، والقتال إنما هو لمن قاتلنا واعتدى علينا، فالجهة منفكة.

والحديث إنَّما هو تحديد لغاية يتوقف عندها القتال مهما كانت أسبابه، فهو حديث رحمة وتسامح، وليس كما اشتبه على البعض أنه يحدد غاية يستمر من أجلها القتال.

قال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار: قَدْ وَرَدَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ بِأَلْفَاظٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْهَا الِاقْتِصَارُ عَلَى الشَّهَادَتَيْنِ كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، بَلْ صَرَّحُوا بِتَوَاتُرِهِ كَمَا فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ، وَهُوَ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُم عَلَى اللهِ".

وَفِي بَعْضِهَا الِاقْتِصَارُ عَلَى كَلِمَةِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ".

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلِفَةِ الْأَلْفَاظِ فِي مَعْنَاهَا وَاحِدٌ، وَهُوَ تَرْكُ الْكُفْرِ وَالدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ، وَلِلدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ صِيغَةٌ وَعُنْوَانٌ يُكْتَفَى بِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، وَلَا سِيَّمَا مَوَاقِفُ الْقِتَالِ، وَهُوَ النُّطْقُ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

وَقَدْ يُكْتَفَى مِنَ الْمُشْرِكِ بِكَلِمَةِ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ"؛ لِأَنَّهُم كَانُوا يُنْكِرُونَهَا، وَهِيَ أَوَّلُ مَا دُعُوا إِلَيْهِ، بَلْ أَنْكَرَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ قَتْلَ مَنْ قَتَلَ مِنْ بَنِي جَذِيمَةَ بَعْدَ قَوْلِهِم "صَبَأْنَا".

وَقَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا فَعَلَ خَالِدٌ".

(١٢٣) ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٣/٢٧.

وَذَلِكَ أَنَّهُم كَانُوا يُعَبِّرُونَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ فَيَقُولُونَ: صَبَأَ فُلَانٌ، إِذَا أَسْلَمَ، وَالْحَدِيثُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ.

وإِنَّهُ -أي الحديث- وَارِدٌ فِي بَيَانِ الْغَايَةِ الَّتِي يَنْتَهِي إِلَيْهَا قِتَالُ مَنْ يُقَاتِلُنَا مِنَ الْكُفَّارِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ بَيَانُ مَا يَصِيرُ بِهِ الْمُؤْمِنُ كَافِرًا(١٢٤).

٤- وكذلك جاء الإسلام ليقر مبدأ السلام بين الشعوب والأمم، مُقَرِّرًا أن السلام هو الأصل والحرب هي الاستثناء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ (سورة البقرة: ٢/٢٠٨).

وفي سبيل ذلك دعا إلى تجنب ويلات الحروب والنزاعات، وأبَان عن كراهية النفس للقتال ابتداء وإن كان واجبًا ودفاعًا، فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ (سورة البقرة: ٢/٢١٦)، وقال أيضًا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٨/٧).

ورغم ذلك لم يتغاض عن وضع قوانين للحرب في حالة وقوعها، وجعل الحرب في المقام الأول دفاعية وليست هجومية، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢/١٩٣).

وفي غمار الحروب يسقط القتلى والجرحى من الأطراف المتنازعة، كما يقع بعض المقاتلين في الأسر، وقد وضع الإسلام أسس التعامل مع كل حالة من هذه الحالات، وأهمها أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث أميرًا على جيش أوصاه ومن معه من المسلمين بقوله: "وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا"(١٢٥).

وقال ﷺ يوم فتح مكة: "أَلَا لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُجْهَزُ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ"(١٢٦).

(١٢٤) محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ١٠/١٥٣.
(١٢٥) سنن الترمذي، الديات، ١٤.
(١٢٦) ابن أبي شيبة: المصنف، ٦/٤٩٨.

ولذلك كان ديدن المسلمين في قتالهم أنهم لا يتبعون فارًّا هاربًا من المعركة، ولا يقتلون أسيرًا استسلم، بل لا يقطعون شجرًا، ولا يردمون بئرًا ولا يهدمون بيتًا.

وقد حث الإسلام على معاملة الأسير معاملة كريمة لا تُهان فيها كرامتُه ولا تُنتهك حرمته، دون اعتبار لاختلاف الدين أو كونه من الأعداء، وعدَّ تلك المعاملة من صفات الأبرار، حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (سورة الإنسان: ٨/٧٦)، وأوصى رسول الله ﷺ أصحابه بحسن معاملة الأسرى فقال: "اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا"(١٢٧).

وبهذا الأمر حول الإسلام غريزة الانتقام من العدو الأسير إلى أداة فضل ورحمة، فلم يقتصر على النهي عن تعذيبه أو تجويعه، بل امتدَّ إلى الحثِّ على الإحسان إليه وإكرامه ومساواته بالمسكين واليتيم، وبهذا تتحول أحد تبعات الحروب، رغم ضراوتها وقسوتها، إلى عبادة يرجو صاحبها رضا الله ﷻ ويصبح بها من الأبرار.

وفي الوقت الذي كانت الدول والممالك من حول دولة الإسلام تقتل الأسير أو تستعبده أو تهينه، وضع الإسلام القواعد والأسس التي يحمي بها الأسير ويصون كرامته وإنسانيته ويرفع الظلم عن المظلومين وينشر العدل والرحمة بين الناس، وينقل الإنسان -كل الإنسان- من المعاملة المهينة التي سادت في عصور الجهل ويرقى به إلى السلوك الإنساني القويم الذي لا فضل فيه لعربي على أعجمي إلَّا بالتقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحُجُرَات: ١٣/٤٩).

فإن الإسلام بنصوصه القطعيَّة في القرآن والسنَّة، وبتطبيقاته الفعليَّة والتقريريَّة من الرسول ﷺ لتعطي العالم أجمع دروسًا حضارية في معاملة الأسرى، سبقت بها المعاهدات الدولية المنوطة بحماية حقوق الأسرى بأربعة عشر قرنًا، مؤكدة أن الإسلام جاء رحمة للعالمين ولنشر قيم التسامح إلى يوم الدين.

(١٢٧) الطبراني: المعجم الكبير، ٣٩٣/٢٢.

ومن تطبيقات ذلك أيضًا أن النَّبِيّ ﷺ أعطى أسيرًا لأبي الهيثم بن التيهان وأوصاه به خيرًا فقال له: إن رسول الله ﷺ أوصاني بك خيرًا، فأنت حرٌّ لوجه الله(١٢٨).

وبعد أن نصر الله ﷻ المسلمين في غزوة بدر وقع في الأسر سبعون أسيرًا من قريش، عاملهم الرسول ﷺ معاملة طيبة، وأمر أصحابه بحسن معاملتهم، يقول أبو عزيز بن عمير أخو مصعب وكان في أسرى بدر: كنت مع رهط من الأنصار حين قفلوا، فكانوا إذا قدموا طعامًا خصّوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما يقع في يد رجل منهم كسرة إِلَّا نفحني بها؛ قال: فأستحي فأردها على أحدهما، فيردها عليَّ ما يمسها(١٢٩).

كذلك حثَّ الرسول ﷺ الصحابة على إكرام الأسرى فقبل الفداء من بعض الأسرى، ومن لم يستطع دفع الفدية، قبل منه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة، وعفا عن بعضهم، تحقيقًا لأمر الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (سورة مُحَمَّد: ٤٧/٤).

وقد قدَّم لنا رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة في معاملة الأسرى في المواطن كلها، ففي غزوة بدر أنكر رسول الله ﷺ على بعض الصحابة عندما ضربوا غلامين من قريش وقعا أسيرين، حيث قال لهم: "إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا"(١٣٠).

---

(١٢٨) البيهقي: شعب الإيمان، ١٠/١٢٨.

(١٢٩) السهيلي: الروض الأنف، ٣/٩٦.

(١٣٠) المصدر السابق، ٣/٦٠.

نتائج الدراسة

١- إن هذه النماذج الأربعة في التعايش والتي استخلصناها من الهدي النبوي في إقامة الجماعة الإسلامية ومِن بعدها الدولة الإسلامية يمكننا أن نقيس عليها ونستولد منها نماذج متنوعة قد تكون جديدة مُقامة على نفس النهج والسبيل النبوي، وقد تكون مُركَّبة من نموذجين أو أكثر من النماذج الأربعة، وغير ذلك حسب الواقع المعيش المتغير.

فقد تحتاج الدولة الإسلامية المعاصرة إلى نموذج مركب من نموذجين أو أكثر، خاصة بعد أن صارت السيطرة على الدولة مُقسَّمة على أكثر من جهة وأكثر من فاعل، ولكل فاعل منها إرادة وتوجه قد يتفق أو يختلف مع الآخرين.

فمن الجهات صاحبة المسؤولية والسيطرة في الدولة الجامعات العلمية والهيئات الإعلامية بكل ما تمتلك من تسيير لحركة الفكر والثقافة في المجتمع، ومن هذه الجهات ما يمكن تسميته بحكومات الظل كجهات الأمن والمخابرات، ومنها الجهات صاحبة الفاعلية في اتخاذ القرار كالرئاسة والجيش والقضاء، وقد لا تتفق كل هذه القوى على توجه واحد، بل يكون لجهة أو أكثر توجه يخالف توجه جهات أخرى مما يلزم معه أن يتعامل المسلم بنماذج مركبة أو نماذج بَيْنِيَّة أو نماذج متتالية من هذه النماذج الأربعة.

والذي يوجهه في كل ذلك هو تحقيق المقاصد الشرعية، والعمل على تحسين صورة الإسلام والمسلمين بما يدفع ويقدم شأن الدعوة إلى دين الله، والالتزام بشرعية البلاد، وعدم الصدام مع المجتمع المعيش فيه، ويوجهه أيضًا إيثار المصلحة العامة للمسلمين على مصالحه الشخصية مع أمنه وأمن أسرته وأهله وعشيرته واستقرارهم، فالمسلم لا يختار بالتشهي وإنما يختار بتلك المعايير الواضحة المركبة مما ذكرناه.

٢- وقد ظهرت علاقات بينية عديدة بين هذه النماذج الأربعة يمكن الاستفادة منها أيضًا في مسألة الاستنباط والتجديد فيها وحسن الاستفادة من هذه النماذج في واقعنا المعاصر، ومن أمثلة هذه العلاقات البينية بقاء بعض المسلمين بالحبشة وتوطين أنفسهم على المعيشة هناك، واتصالهم بالنَّبِيِّ ﷺ والمسلمين بالمدينة بعد إقامة الدولة الإسلامية بها، وعدم هجرتهم إلى المدينة حتى بعد استقرار النَّبِيِّ ﷺ بها، وعدم توجيه النَّبِيّ اللوم إليهم أو العتاب كما وجهه إلى من لم يهاجر من المسلمين من المجتمع المكيّ المشرك المحارب إلى جماعة المسلمين ودولتهم في المدينة.

وتظهر أيضًا هذه العلاقات البينية في الرسائل التي أرسلها النَّبِيُّ ﷺ إلى الآفاق، والتي لم يطلب فيها من أحد أن يهجر بلده أو موطنه فإنه كما قال: "**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**".

وتظهر كذلك هذه العلاقات البينية في التعايش السلمي مع الآخر في كل الرسائل الدعويَّة التي أرسلها النَّبِيُّ ﷺ إلى البلدان والملوك، والرسائل الدعويَّة هي الرسائل التي بعثها النَّبِيُّ ﷺ في حالة السلم، وهي الحالة التي لم يتعرض مَن أُرسلت له الدعوة أو الرسالة بالاعتداء أو العدوان على المسلمين سواء في المدينة أو غيرها.

فقد أقرَّ رسول الله ﷺ الآخرين المتوجه إليهم الدعوة في بلدانهم، ولم يتدخل في سير حياتهم، فقط طلب منهم أن يسلموا للعقيدة الجديدة، مما يُنْشِئُ في الذهن صورةً تُشْبِهُ في كثير من جوانبها وليس بتمامها النظم الفيدرالية الحديثة.

٣- إن النماذج الأربعة في التعايش والتي تركها لنا الهدي النبوي يمكن الاستفادة منها على مستوى الدولة الإسلامية، ويمكن الاستفادة منها على مستوى الجماعة الإسلامية سواء كانت أقليَّة أو أغلبيَّة، ويمكن للفرد المسلم أن يستفيد بها في حياته ومعيشته كلٌّ حسب حاله ومكانه وزمانه، فسلوك المسلم في حركة حياته وتعايشه مع المجتمع مسألة تتعلق به وما يعانيه أو يحيط به من ظروف، ولكن العبرة في الشريعة هو التزام الفرد

أو الدولة بمنظومة القيم الأخلاقية وبالهدي النبوي وسنته ومنهجه المنبثق من عقيدة التوحيد ومن الرؤية الكليَّة للإنسان والكون والحياة.

فالعقيدة الإسلامية هي الإطار الكلي الحاكم لحياة المسلم وسلوكه، ولذلك فمن الطبيعي أن نجد في البلد الواحد عدة نماذج للتعايش بل وفي حياة الشخص الواحد تتغير وتتنوع، وليس في هذا تلون أو نفاق أو تغير في المواقف والمبادئ، فللمسلم أن يتغير نمط تعايشه مع الآخر ولكن بما لا يجيز له الخيانة والغدر، وبما لا يجيز له الكذب والزور، وبما لا يجيز له الظلم والاعتداء؛ لأن أسلوب التعايش ونمطه مرتبط ومبني دائمًا أبدًا بأسس ثابتة ومقاصد راسخة نصَّ عليها القرآن وطبقها النَّبِيُّ ﷺ في هديه وسنَّته، ولقد فهمها المسلمون وطبّقوها من عصر النَّبِيِّ ﷺ وإلى يومنا هذا، إلَّا أنه قد مرَّت عصور طويلة لم يتغير فيها حال العالم بالحدة والعمق الذي تغير فيه حال عالمنا المعاصر، ولقد أرجعنا هذا في كثير من كتاباتنا إلى ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات الحديثة التي جعلت الإنسان لا يعيش يومه كأمسه ولا ينتظر غدًا كيومه.

والتغيير البطيء عبر العصور دفع الفقه الإسلامي نحو الركود، ودفعه أيضًا إلى الانطباع بالحال التي سادت في التاريخ الإسلامي وهي الحال التي كان المسلمون فيها في شدٍّ وجذب من الآخرين وكانوا يتناوشون من كل حدب وصوب، ففي الشرق الصليبيون وهجماتهم على الدولة الإسلامية في عُقْرِ دارها، وفي الغرب الأندلس والمغرب وما رموا به من عدوان وطغيان، ثم ارتبطت السلسلة وامتدت حتى الاستعمار الحديث على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.

أما وقد أصاب الناس في عالمنا المعاصر تغيراتٌ جذريةٌ في حياتهم، ووصل تطورهم التكنولوجي حتى إنه يمكن لقنبلة واحدة يطلقها شخص أهوج أن تدمِّر الكرة الأرضية في الفضاء؛ فقد وجب علينا ووجب على الآخرين احترام قيم السلام ونشرها، وتجاوز كل ما مضى من صراعات وحروب، وعدم إحيائها أو التذكير بها، فلتكن صفحة سلام جديدة بين الدول بعضها بعضًا وبين الشعوب والحكومات، سلام ينظر إلى المستقبل

بعين التعاون والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية، نظرة يحترم فيها كل إنسان أخاه، ويتركه وما يعتقده ويدينه، شريطة أن يدعو للسلام ويتمسك به ويعمل من أجله.

٤- ولا يتعارض شأن الاستفادة من هذه النماذج الأربعة وتطبيقها والقياس عليها والعمل بأحكامها إن اتفق أو تشابه الواقع المعاصر مع الواقع الذي شرعت فيه أو شرعت من أجل مثله مع ثبات الأحكام الشرعية في صورتها الأخيرة التي تركنَا عليها رسول الله ﷺ من الفروض والواجبات والمحرمات باعتبارها هويّة الإسلام وحقيقته التي لا تتجزأ.

فالنماذج الأربعة في التعايش وما يتولد منها من نماذج جديدة أو مركَّبة كلها مُفَعَّلة وقابلة للتطبيق وليس نموذج منها ينسخ آخر، بل لكلِّ نموذج منها حاله ومحلّه الذي يطبق فيه وتكون له الأولوية للنموذج الذي يحقق مصالح المسلمين، ومقاصد الشرع الشريف.

وزوال هذا التعارض احتاج إلى نظرية جديدة في فهم الدليل الشرعي بحيث يمكننا الاستفادة من كل ما جاء به القرآن من آيات وكل ما جاء في تطبيق رسول الله ﷺ المعصوم من مناهج ونماذج.

وهذه النظرية هي نظرية النَّساء التي جاءت إشارتها عند بعض علماء المسلمين كالزركشي والسيوطي، وتلقاها مَن بعدهم من العلماء بالقبول.

ونظرية النساء تُرَشِّد مفهومَ النسخ ولا تلغيه، ومبناها أن المصالح الإنسانية تختلف باختلاف الأزمان والأحوال، وليس مجافيًا للعقل أبدًا أن يعلم الله تعالى صلاحية الفعل في زمن وعدم صلاحيته في زمن آخر، فيأمر به في الزمن الأول لصلاحيته، وينهى عنه في الزمن الآخر لعدم صلاحيته، وعِلْمُ الله تعالى بالأمرين أزليٌّ قديم، والمُشَرِّع الحكيم قد تدرج بالمكلفين، رحمة بهم حتى لا يفاجئهم بما يثقل عليهم.

وأما هذه النماذج الأربعة في هدي النَّبِيِّ ﷺ في التعايش مع الآخر لا يدخلها النسخ، بمعنى رفع أحكامها كليَّة، والنسخ لا يقع في الأحكام التي وردت في كتاب الله تعالى؛

لأنه كتاب الله المعجز الذي أودع فيه سبحانه قانون صلاح الإنسان في كل زمان ومكان، وهو الكلمة الأخيرة من رب العالمين إلى الناس، ونحن في احتياج إلى كل ما أمر به وأرشد ونبه، فليس هناك نسخ لأحكامه.

فما بالنا وأن الأسس والمقاصد التي تظهر لنا جليَّة في نماذج التعايش الأربعة قد نصَّ عليها القرآن في كثير من آياته، وجاء تطبيق النَّبِيِّ ﷺ في سيرته وسنته وفي قوله وفعله دالًا على فاعليتها وعلى أهمية العمل بها؛ حتى يتيسر للمسلم حاله، وتمضي مسيرته في سلام وتعايش وأمن وسعادة، وبإهمالها أو تجاهلها أو المضي على غير هديها فإن المسلم يعيش في اضطراب وشتات، لا يستطيع أن يواجه حاله ومستجدات حياته، فيكون إنسانًا فاقدًا للتكيف مع الآخر، وسيضيق عليه الكون، وستصارعه فطرته ومبادئه، لأنه لا يستطيع حينئذ أن يوائم بين تعاليم الدين والعقيدة وبين سلوكه وسلوك من حوله.

ويناسب ما ذهبنا إليه هنا القول بالنَّساء -بفتح النون- وهو أن يرد حكم مقيد بقيد أو مشروط بشرط فنعمل به عند حصول قيده أو شرطه، ولا نعمل به عند فقد واحد منهما، وبذلك نكون قد أنزلنا القرآن الكريم منزلته، فلا تنتهي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا يزال مصدرًا للأحكام في هدي السنَّة المُشرَّفَة وبيانها، في كل زمان ومكان، وعلى كل حال.

وحينئذ يمكننا أن نقول: إن كل الآيات التي ذكر فيها أنها منسوخة إنما تثبت حكمًا شرعيًا على المكلفين في حالة معينة، وأن الآيات التي قيل فيها إنها ناسخة تثبت حكمًا شرعيًا آخر عند تغير الحالة الأولى إلى حالة أخرى، يعني إذا رجعت الحالة الأولى رجع معها الحكم المنزل بإزائها، فتنزل الأحكام المتعارضة على أحوال مختلفة.

ومن علماء المسلمين أبو مسلم الأصفهاني والذي أشيع أنه ينكر النسخ بالكليَّة، وليس صحيحًا، فهو لا ينكر النسخ كليَّة، فهو لا ينكر نسخ شريعة بشريعة أو نسخ القرآن للسنَّة، ولكنه ينكر نسخ شيء من القرآن، واستدل بقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٤١/٤٢).

على أنَّ آيات الكتاب الكريم كلها محكمة يجب العمل بكل ما فيها.

ونحن نرى صواب هذا الرأي ونراه يتوافق مع ما أشار إليه كل من الزركشي والسيوطي من تفرقة بين النسخ والنساء، ونرى كذلك أن يستثني من النسخ التطبيق المحكم من النَّبِيِّ محمد ﷺ المعصوم والذي جاء في شكل نماذج أو مناهج أو أساليب في الفهم والتعايش.

وأما إشارة الزركشي في البرهان والسيوطي في الإتقان جاءت كما يلي:

القسم الثالث من النسخ: ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلَّة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله، ونحوه من عدم إيجاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحوها، ثم نَسْخُه إيجابَ ذلك.

وهذا ليس بنسخ في الحقيقة، وإنما هو نَسِيء، كما قال تعالى: أَوْ نُنْسِأَهَا.

فالمنسأ: هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى. أ. هـ

ونحن نرى تعميم هذه الإشارة في شكل نظرية للنَّساء، نفهم في ظلها النصوص التي ادعي فيها النسخ.

وبهذا التحقيق يتبين ضعف ما لَهَجَ به كثير من المفسرين في الآيات الآمرة بالتخفيف أنها منسوخة بآية السيف، وليست كذلك بل هي من المنْسَأ، بمعنى: أن كل أمر ورد يجب امتثاله في وقت ما لعلة توجب ذلك الحكم. ثم ينتقل الحكم بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، وإنما النسخ الإزالة التي لا تجيز الرجوع إلى الحكم الأول.

وقد أشار إلى فكرة النَّساء أيضًا الشيخ صبحي الصالح ونعى نعيًا شديدًا على من توسع في أمر النسخ فقال: "لكن إساءة الأدب حقًّا مع الله تجسدت في تساهل أصحاب النسخ في الإكثار من القول بالناسخ والمنسوخ رغم علمهم اليقيني بأن ما يواجهونه بالبحث والتأويل هو إلى الإنساء أقرب، وبه ألصق: فقد سلكوا في المنسوخ ما أمر به

لسبب ثم زال سببه، كالأمر حين الضعف والقلة بالصبر وبالمغفرة للذين يرجون لقاء الله ثم نسخه بآية السيف، وليس هذا من النسخ في شيء، وإنما هو ضرب من النسء وتأخير البيان إلى وقت الحاجة كما قال تعالى: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٠٦)، فمن تحقق علمًا بالنسخ علم أن غالب ذلك من المنسأ، أو بيان الحكم المجمل، فقد أُنْسِئَ الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وأمروا في حال الضعف بالصبر على الأذى"[١٣١].

وقد تحدث الإمام الشافعي من قبل في "الرسالة" عن مفهوم النسخ والنَّساء في نهي النَّبِيِّ ﷺ عن ادخار لحوم الأضاحي من أجل الدَّافَّة، فإن الإذن بعد ذلك فيه لم يكن نسخًا، بل هو من باب زوال الحكم لزوال علته، وهذا يجعل حكم من أصابته الدافة وهي العلة أن يُنْهى عن ادخار لحوم الأضاحي.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة المَائِدَة: ٥/١٠٥).

فقد كان هذا الحكم في الآية في ابتداء أمر الإسلام، والمسلمون ضعفاء، فلما قوي حالهم وجب عليهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمقاتلة عليه عند العدوان عليهم، ولو فُرِضَ وقوع الضعف ثانية حتى يصير إلى الحال التي كان عليها فإن الحكم يعود ثانية "عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ".

وهو ما أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: "إِنَّ الإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ"[١٣٢].

والحكم ذكره النَّبِيُّ ﷺ حينئذ في قوله: "بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ"[١٣٣].

---

(١٣١) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ص ٢٦٩.

(١٣٢) صحيح مسلم، الإيمان، ٢٣٢.

(١٣٣) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ٥ (١٨)؛ الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ٢/٤٢-٤٣؛ السيوطي: الإتقان، ٢/٢١.

ومن أهم القضايا التي كان للقول بالنسخ فيها دور كبير في تشكيل وجهة الأحكام؛ الجهاد، فإن الفقهاء حين اجتهدوا في قضايا الجهاد ومسائله كان للنسخ دوره في صياغة ما صاغوه من أحكام وفتاوى، فمنهم من قال بنسخ بعض النصوص ومنهم من قال بعدم نسخها.

ولا نريد الخوض في تفاصيل باب الجهاد ورصد ما كان للنسخ من دور فيها، ولكن نريد أن نؤكد على أمر في غاية الأهمية وهو أن غاية الجهاد في الإسلام ومقصده خارج عن دائرة الاجتهاد، وهو أمر محكم بناءً على ما دلَّ عليه من محكم النصوص وقواطعها والقواعد الكلية المستنبطة من مجمل الشريعة، وهو أن الجهاد إنما شرع من أجل الدفاع عن النفس وصد العدوان ورفع الطغيان، وليس أبدًا الجهاد كان أو يكون أداة للاعتداء على الآخرين أو وسيلة لفرض دين أو عقيدة عليهم.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ۝ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢/١٩٠-١٩٥).

فهذا هو دستور الجهاد في القرآن الكريم، وليس القتال إلَّا نوعًا أو سبيلًا من سبل الجهاد المتعددة الأشكال والمتنوعة والواسعة، أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (سورة الحج: ٢٢/٧٨).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٦٩/٢٩).

وجعل رسول الله ﷺ القتال هو الجهاد الأصغر بينما جهاد النفس هو الجهاد الأكبر.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ غَزَاةٍ لَهُ، فَقَالَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**قَدِمْتُم خَيْرَ مَقْدَمٍ، وَقَدِمْتُم مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**".

قَالُوا: وَمَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟

قَالَ ﷺ: "**مُجَاهَدَةُ الْعَبْدِ هَوَاهُ**"(١٣٤).

فجعل رسول الله من الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وعن علي ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: "**الْجِهَادُ أَرْبَعٌ: أَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصِّدْقُ فِي مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَشَنَآنُ الْفَاسِقِينَ**"(١٣٥).

وجعل رسول الله ﷺ الحج جهاد المرأة والشيخ.

عن عائشة أم المؤمنين ﷺ قالت: يا رسول الله ألا نخرج نجاهد معكم؟

قال ﷺ: "**لَا، جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ الْمَبْرُورُ، هُوَ لَكُنَّ جِهَادٌ**"(١٣٦).

فلا يتورك أحد على المسلمين افتراء أنهم في حال ضعفهم لا يعتدون وإذا اشتدَّ بأسهم يعتدون؛ فإن هذا مخالف لحقيقة الإسلام وحال المسلمين عبر العصور، حيث إن جهادهم كان صدًّا للعدوان أو احترازًا من هذا العدوان أو استعادة لحقوق مسلوبة.

أكَّد على ذلك الكتاب والسنَّة وسيرة المصطفى ﷺ، فلقد تعرَّض وهو في المدينة للعدوان في موقعة بدر ثم أحد ثم الخندق إلى آخر ما هنالك، حتى قال ﷺ كما رواه ابْنُ عُمَرَ ﷺ: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوَالَهُم إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُم عَلَى اللهِ**"(١٣٧).

(١٣٤) البغدادي: تاريخ بغداد، ١٥/٦٨٥.
(١٣٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ٥/١٠.
(١٣٦) مسند الإمام أحمد، ٤٠/٤٨٤.
(١٣٧) صحيح البخاري، الإيمان، ١٧.

والناس في هذا الحديث كما ورد عند شُرَّاحِ الحديث هم مشركو العرب الذين لم يتركوه لدعوته بل حاربوه بكل وسيلة وبكل أذيَّة، فكان جهاده كله في كل مراحله وأطواره لصد العدوان ورفع الطغيان، فكان هذا الحديث من قبيل العام الذي أريد به الخاص، حيث إن الناس ليست الكافة بل أهل العدوان والطغيان والذين شأنهم شأن مشركي العرب المعتدين الطاغين.

٥- إن دراسة النماذج الأربعة النبوية في التعايش بين الإنسان المسلم وبين أخيه الإنسان سواء المسلم وغيره وتأملها والاستفادة منها في تسيير وتسهيل حياة المسلم في عالمه المعاصر ليعد نموذجًا ومنهاجًا لكيفية تجديد الفكر الديني وتفعيل الأحكام الشرعيَّة في حياة المسلمين ويُعد كذلك بثًّا لروح جديدة في تراثنا الفقهي الموروث، تبعثه من جديد وتجعله أكثر فاعلية وملائمة لحياة المسلم، تمكِّنه من تعمير الكون وبناء الحضارة، ومن حسن التوجه والعبادة للخالق سبحانه وتعالى، وتُيَسِّر عليه طريق السعادة الدنيوية والأخروية.

وتأتي أهمية هذه الدراسة والتأمل والتجديد فيها في أنها استجابة لدعوة النَّبِيِّ ﷺ وأمره حيث قال فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: "**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**"(١٣٨).

فإن إخبار النَّبِيِّ ﷺ بأن الله يبعث من علماء المسلمين كلّ مائة عام من يجدد لها أمر الدين لهو دعوة وأمر بالتجديد، يستجيب لها من يسَّر الله له ذلك ووهبه الملكة والعلم اللازمين للتجديد.

وقد استجاب من المجددين حجة الإسلام الغزالي والذي وضع كتابه الأشهر بعنوانٍ يشير إلى مسألة التجديد والإحياء للفكر الدينيّ فسمَّاه "إحياء علوم الدين" فجاء كما أراد كتابًا حافلًا بالإحياء والتجديد.

(١٣٨) سنن أبي داود، الملاحم، ١.

وهكذا سار المجددون في تاريخنا العلمي والفقهي يتركون لنا الإشارات واللمحات التي تَفَتَّقَ عنها ذهنهم وأدركوا أهميتها ودورها في إضاءة النور العلمي للأجيال التالية عليهم، وعرفوا أهمية أن تقوم هذه الأجيال بدورها في التجديد والذي يبدأ من تطوير وفهم ما تركوه لنا من إشارات وتلميحات ونكت.

فلم يكتف سلفنا من الفقهاء المجددين بالقيام بواجب وقتهم الذي استلزم منهم التجديد والاجتهاد في حل مشاكلهم وقضاياهم التي عاصروها، بل أحسوا بواجبهم بأن يلفتوا انتباهنا ويضعوا بعض القواعد والمناهج بل والمسائل التي ترشد من يأتي بعدهم في طريقه الذي سلكوه من قبل وهو طريق التجديد.

فأخطأ كل الخطأ من يحسب التجديد بادئًا بهدم السابقين ونبذ التراث والتعالي عليه، فليس ذلك إِلَّا انسلاخًا من الحقائق والأصول وليس إِلَّا بَتْرًا للإنسان من تراثه المتراكم وخبرات من سبقه، فيكون بدءًا من جديد وليس سعيًا إلى التجديد.

فلو تصورنا إنسانًا سار وراء هذه المنهجية في نبذ كل ما هو قديم وموروث من خبرات وأديان وعلم وفقه؛ فإن هذا الإنسان حتمًا سيعود إلى البدائية، ربما لا يعود إليها بمظهرها وسمتها، ولكنه سيعود إليها بعقله وخلقه وسلوكه، يعود إنسانًا نازعًا إلى الحرب والتدمير، ويُؤْثِرُ الشرَّ على الخير، ولا يرى إِلَّا حاجته ومتطلباته المادية، فهو يقتل من أجل الطعام والشراب والشهوة، وهذا الإنسان إن اتبع هواه إلى غير غاية فإنه حتمًا سيهدم كل حضارة وكل عمران.

وبناءً عليه وقيامًا بدوري في تجديد الفقه الإسلامي كواجب محتم وفرض أوجبته علينا حياتنا المعاصرة، فإني قد سجَّلتُ على مدار قراءتي لتراثنا الفقهي بعض الإشارات واللمحات التي إن أحسنَّا تطويرها والاستفادة منها والقياس عليها كنظريات وكليَّات لأمكنَّا أن نحلَّ كثيرًا من مشاكلنا وقضايانا التي يعجز الفقه في حالته القديمة والتي ما زالت قديمة أن يواجهها ويحلها.

فهذه النظريات مبثوثة في بطون كتب الفقه، تحدث عنها علماؤنا كحلول في بعض المسائل الفقهية، ربما مروا عليها سريعًا واكتفوا بأن تكون مخرجًا وسبيلًا لوصولهم لحكم في مسألة فرعية، وهذا أمر طبيعي، فإن هذه النظرية لم يكن لها دور أو مجال أوسع مما استفادوا بها فيه، ولكنَّها الآن مهمة جدًّا وضرورية في مسألة الاجتهاد في كثير من مسائلنا المستجدة التي عرضت وربما تكون هذه النظرية مخرجًا أيضًا في حلِّها.

وهذه النظريات مثل:

١- اللحظة اللطيفة

نظرية اللحظة اللطيفة هي تلكم النظرية التي تُمَكِّنُنَا من تصحيح بعض العقود المستحدثة، والتي إن أخضعناها إلى مطلق القواعد الفقهية العامة لحكمنا عليها بالفساد والبطلان، ومما لا يخفى على أحد أن التطور السريع في العالم المعاصر يستلزم استحداث وإنشاء عقود جديدة بشكل سريع ومُعَقَّد، بحيث تستطيع هذه العقود أن تُقَنِّنَ العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والسياسية بين أفراد المجتمع الواحد، وبين المجتمع وغيره من المجتمعات التي تحكمها ثقافات مختلفة وتقاليد متعددة ومفاهيم شتَّى.

تحدَّث فقهاؤنا عن اللحظة اللطيفة في صورة إشارة أو مخرج لعقدة فقهية ومسألة متشابكة من مسائل المجتمع آنذاك، فمثلًا ذكرت نظرية اللحظة اللطيفة في باب العتق، وباب العتق في فقهنا الإسلامي وعلى الرغم من إلغاء الرق ومنعه دوليًّا إِلَّا أننا نحتاج إلى دراسته وتطويره واستخراج بعض المفاهيم والمناهج العامة منه، والتي يمكن تسخيرها في غيره من أبواب الفقه، في تحديد الأحكام الشرعيَّة المناسبة والأليق بالمقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، تلكم الشريعة التي طالما تشوقت للحريَّة وَدَعَتْ إليها، ووضعت من المناهج والإجراءات التي من شأنها على المدى أن تمحو الرِّقَّ محوًا حقيقيًّا من حياة الناس.

والمسألة كالآتي: ذهب رجل إلى السوق فاشترى عبدًا ودفع ثمنه وأخذه، ولكنه فوجئ بعد ذلك أن هذا العبد أحد فروعه أو أصوله، أيْ ابن من أبنائه أو أب من آبائه،

وهـذا يُعدُّ مانعًا شـرعيًّا يمنـع من تملكه لهذا العبـد، ويقضي ببطـلان العقد وعدم صحة البيـع، وعليه فإن اتباع القواعد العامة تلزمه أنْ يردَّ العبد ويسترد ماله من البائـع، والبائـع يأخـذ العبـد ويعرضـه للبيـع مرة أخرى، وفـي هذه الحالة وعنـد اتباع القاعـدة العامة فإن هذا العبد سيبقى في الرِّقِ ولا يخرج منه، فهل من حلٍّ أو مخرج يُحقق لهذا العبد حريته ولا يضيع على هذا الرجل ماله وعلى البائـع سلعته؟

فابتكر الفقهاء مفهوم اللحظة اللطيفة، قالوا: سنتصور لحظةً لطيفة نُدْخِلُ فيها هذا الإنسان في ملك المشتري لحظة لطيفة كالشعاع الذي ينزل على سطح المرآة ثم ينعكس فورًا مرة أخرى، فملامسـة الشـعاع لسـطح المرآة تمَّـت في لحظةٍ لطيفة، ولم تمتـص المرآة الضوء وتكتمه عن الانعكاس كشـأن كثيرٍ من الأجسـام، ولكن عكسـته حين نزل عليها في لحظةٍ لطيفـة، حتى ظهـر المانــع، فوجب إخراجـه من الملك؛ لأنـه أصبح ملكًا يخالف الشـرع، وحينئذ يكون خروجه من ملكي تحريرًا له وليس عودة به للرقِّ مرة أخرى للبائـع الأول.

وحينئذ تفيد اللحظة اللطيفة: تحرير العبد، تصحيح العقد.

وتكلم الفقهاء أيضًا عن مفهوم اللحظة اللطيفة في باب الوقف:

فالوقف يخرج الشيء من مِلْك الإنسان إلى ملك الله ﷻ، والوقـف هو حبس عين معينة أخرجهـا صاحبهـا مـن ملكـه ووضعها في مِلْك الله، أي أخرجها مـن ملك الفرد إلى ملك الجماعة.

والوقف يقتضي جعل إيراد ما وقفته من عين وثمرته في سبيل الخير حيث كان رعاية طلبة العلم، علاج المرضى، الإنفاق على الأرامل واليتامى، البحث العلمي.

وهـذه العيـن الموقوفـة تخـرج مـن ملـك صاحبها وهو حيٌّ، ثم بعد وفاتـه هي خارجة من تركته وغير مورثة.

المسـألة: في بعـض الأحيـان يرغـب الإنسـان أن يوقـف عينًـا، ثـم هو يخشـى أن يمتد بـه العمـر وتشـتد حاجتـه إلـى تلـك العيـن الموقوفـة، ولا يريـد جعـل هـذه العيـن وصيَّة؛

لأن الوصية لها شروطها ومنها أنها لا تنفذ فيما يزيد على ثلث التركة إلَّا بعد إذن الورثة، وهو غير واثق أن قيمة هذه العين وقت وفاته ستكون أقل من ثلث تركته.

فلجأ الفقهاء إلى فكرة اللحظة اللطيفة حتى يتمكنوا من تحقيق مختلف المقاصد، فقالوا: يوقف المسلم تلك العَيْنَ قبل وفاته بلحظةٍ لطيفة، فيقول: أوقفت هذه العين بدءًا من لحظةٍ لطيفة قبل وفاتي.

وعليه ينفذ هذا الوقف ويصير وقفًا، وعندما يموت الرجل لا تُعَدُّ تلك العين من تركته، فنُحَقِّقُ له مصلحتَهُ، ونحقق له رغبته في فعل الخير.

وهذه النظرية يمكن أن نستفيد بها في المعاملات المالية، وفي تحديد أحكام الشخصية الاعتبارية، وفي مجال الضمان، وفي باب الرهن، وغير ذلك من أبواب كثيرة يمكن لهذه النظرية أن تُفَعَّل فيها، وأن نستفيد منها.

٢- نظرية ذهاب المحل

ذكرها الأصوليون تحت مسمى "أثر ذهاب المحل"، وسمَّاها الإمام الرازي "النسخ بالعقل"، واعترض على تلك التسمية الإمام الشوكاني؛ لأن النسخ لا يكون أبدًا بالعقل، وأن الذي يَحْدُثُ إنما هو: ذَهاب الحكم بذهاب المحل.

ولا نوافق الإمام الرازي في تسميته لهذه النظرية بالنسخ العقلي، لأن النسخ هو إزالة الحكم، والحكم هنا لم يَزُل؛ إنما تعذر تطبيقه، وهناك فرق بين إلغاء الحكم وبين عدم تطبيقه، وهناك فرق بين تعطيل الشريعة وبين إيقاف الشريعة؛ لأنها -نفس الشريعة- شرعت هذا الإيقاف، فالإيقاف نوعٌ من أنواع تطبيق الشريعة، لكن التعطيل نوع من أنواع إلغاء الشريعة.

فحالة إلغاء الشريعة هي حالة خروج عن حكم الله، وحكمها نصّه قال تعالى:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥/٤٤).

وأما حالة إيقاف الشريعة؛ لعدم توفر الشروط، وهذه الحالة طبقها سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الخليفة الثاني، والذي أمرنا رسول الله ﷺ أن نتبع سنَّته حيث قال: "**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ**..."(١٣٩). والناجذة هو ضرس العقل.

فإنه في عام الرمادة لما اشتد القحط والجوع بين الناس جميعًا أوقف سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ تطبيق حد السرقة بين الناس، وذلك لأن جوع الناس وحاجتهم إلى الطعام تعتبر شبهة يُدرَأ بها الحد كما قال سيدنا رسول الله ﷺ: "**ادْرَؤُوا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ**"(١٤٠).

مثال على ذهاب المحل: لقد أمر الشرع بالوضوء، والوضوء من فروضه غسل اليدين إلى المرفقين، فاليدان هما محل الغسل، فإن قطعت اليد في حادثة أو حدٍّ أو غير ذلك، فإن المحل قد ذهب، فما الحكم إذًا؟

إن مقطوع اليد ليس عليه شيء، وليس في وضوئه غسل اليدين؛ لذهاب المحل.

ولكن لو تصوَّرنا افتراضًا أن اليدين رجعتا مرة ثانية، فحينها يجب عليه غسلهما؛ لأن فَرَضِيّةَ غسل اليدين في الوضوء لم تسقط عنه بل عطلت أو توقفت لذهاب المحل، فإن فُرض أن المحل عاد فإن الحكم يجب مرة أخرى.

مثال آخر: إن من الكفارات التي ورد ذكرها في الشرع عتق الرقبة، فهو كفارة في اليمين وفي الظهار وفي القتل الخطأ وفي الإفطار عمدًا في رمضان، ولكن الرقَّ قد أُلغي في عصرنا منذ أواسط القرن التاسع عشر، فهذا نموذج لذهاب المحل، ولكن ذهاب المحل في هذه الحالة ذهاب إلى بديل نصَّ عليه الشرع، بينما كان في الحالة السابقة ذهاب للمحل إلى غير بديل.

بمعنى أن النصَّ قد ذكر بديلًا عن الكفارة بعتق الرقبة يقوم مقامه ويحل محله وهو إمَّا إطعام المساكين أو كسوتهم أو الصيام.

(١٣٩) **سنن أبي داود**، السنة، ٥؛ **سنن ابن ماجه**، السنة، ٦. (كلاهما من حديث العرباض بن سارية ﷺ)
(١٤٠) ذكره المتقي الهندي في **كنز العمال**، ٣٠٥/٥، وعزاه إلى أبي مسلم الكجي عن عمر بن عبد العزيز مرسلًا.

قال تعالى عن كفارة اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥/٨٩).

وفي كفارة القتل الخطأ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء: ٤/٩٢).

وفي كفارة الظهار قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة المجادلة: ٥٨/٤).

٣- نظرية تفريق الأحكام

إن استيعاب مفهوم تفريق الأحكام الذي أرساه فقهاؤنا القدامى لمن شأنه أن يساعد في معرفة كثير من أدوات التفكير الفقهي لديهم، ومعرفة طريقتهم العملية في فهم النصوص الشرعية، وإسقاط أحكامها على واقعهم المعيش، ومفهوم تفريق الأحكام يساعد كثيرًا القانونيين في صياغتهم القانونية بما يحقق العدالة ويقضي على الثغرات التي تنشأ من تناقض القوانين وتعارضها، ومفهوم تفريق الأحكام أيضًا يُعِينُ القاضي على القضاء بحكمه الذي يراه دون الوقوع في حرج أو عنت أو حيرة.

ولنشرح المثال ومنه نخلص إلى المفهوم:

لو أن شابًّا عاش في قرية نائية في كنف أبيه وتحت رعايته، ثم تزوج الشاب من امرأة أحبها، ورغم حسنها وحسن خلقها إلَّا أن أباه أمره بتطليقها، دون سبب، فاستجاب الشاب لأمر أبيه بَرًّا به فطلقها، ثم تزوج بأخرى فتكرر الأمر ثانية، فتزوج بثالثة فتكرر الأمر ثالثًا.

فيئِس الشاب ورحل عن القرية ونزل إلى الحضر، فوجد فتاة من أسرة طيبة تعيش مع أمها، سأل عن أبيها فأخبرته الأم أنها تزوجت برجل جاء من مكان بعيد لا تعرفه، وكان يعرف باسم شهرة معين ولم يكن حينها عهد الناس أمر التوثيق والكتابة لعقود الزواج فأنجبت هذه الفتاة من زواج صحيح.

وعليه تزوج الشاب من تلك الفتاة وأنجب منها أولادًا، وما زال في هدوء واستقرار حتى توفت الأم وقدم الأب من الريف لزيارة ابنه فلما تحدث إلى زوجة ابنه وسألها عن اسمها واسم أمها وعن مكان سكنهم القديم زعم أنها ابنته.

فاعتقد الشاب وبناءً على تجربته المريرة مع سعي أبيه لطلاقه ثلاث مرات سبقت، أنَّ والده اختلق هذه القصة ليطلقه مرة رابعة؛ فرفض الإقرار بما يزعمه أبوه من نسب وعليه أبقى على حالة الزوجية.

فأعمل الفقهاء مفهوم تفريق الأحكام فقضوا بأن الرجل يجوز له أن ينسب البنت إليه؛ لأنها في حكم مجهول النسب، ونحن نثق تمامًا من أنها ولدت من نكاح صحيح، وقد ماتت أمها ومات الشهود الذين شهدوا على عقد الزواج، فتعثر وجود بَيِّنة تدل على صحة دعوى النسب بين الفتاة زوجة الشاب وبين الأب.

ولكننا مع تجويز هذا النسب لن نرتب عليه كل آثاره، بمعنى أننا نرتب عليه أن البنت سترث من الأب، وهو يرثها إن ماتت قبله، وفي نفس الوقت يجوز للشاب أن ينكر هذا النسب ويستمر في الزوجية مع زوجته، فلا يفسخ العقد ويثبت.

وبذلك نكون قد فرَّقنا الأحكام، فنعطيها الميراث؛ لأن الرجل ادَّعى نسبها، وفي نفسِ الوقتِ نُقِرُّ الزوجية؛ لأن الزوج أنكر ذلك النسب، وهذا تطبيق لنظرية تفريق الأحكام.

وهناك أشياء مثل ما جاء في المثال السابق نُضطرُّ فيها إلى تفريق الأحكام؛ لأننا نشعر أن العمل بأحد الطريقين ترجيحٌ بلا مُرَجِّح، ويؤدي إلى ظلم أحد الطرفين؛ ومن أجل ذلك يبقى الحال على ما هو عليه في كلٍّ من الطرفين، ونأخذ بالطريقين معًا كما في المثال السابق.

وتفريق الأحكام موجود في كثير من أبواب الفقه، بدءًا من الطهارة ثم الصلاة والزكاة ونهاية بالمعاملات الماليَّة والعلاقات الدولية، فالأمر واسع جدًّا ويحتاج لدراسة منفصلة ومستقلة تبحث عن إمكانية إيجاد تطبيقات قانونية وقضائية لهذه النظرية.

أ. عَلاقة تفريق الأحكام بنظرية الاحتياط

هناك عَلاقة بين نظرية تفريق الأحكام وبين نظرية الاحتياط في الفقه الإسلامي، والاحتياط قد يكون واجبًا إذا كانت الشبهة شبهة محل، وقد يكون مندوبًا إليه إذا كانت الشبهة شبهة مذهب، والاحتياط لا يوجد أصلًا في شبهة الفاعل، وهذه هي الشبهات الثلاث التي تكلم عنها الفقهاء(١٤١).

أولًا: شبهةٌ قائمةٌ بالفاعل

وهو الذي نسميه في لغتنا الدارجة بـ"القضاء والقدر"، أو ما نسميه في لغتنا القانونية بـ"الحادث" أو "الحادثة"، أيْ: إنها وقعت بدون تدبيرٍ من الفاعل، كحادثة سيارةٍ ارتطمت بشيءٍ أمامها، أو طائرة وقعت، أو سفينةٍ غَرِقَت، فقد وقع ذلك من الفاعل عن غير قصد؛ بل بشبهةٍ قامت بذهنه.

ومن أمثلتها: أن يشرب الإنسان شيئًا يظنه ماءً، ثم يظهر أنه خمرٌ؛ فلا إثمَ عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة الأحزاب: ٣٣/٥)، ولحديث: "**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**"(١٤٢).

فهذا الشَّارِبُ لم يتجانف الإثم، ولكن هي شبهة قامت عنده؛ فظن أنه ماء، والعكس أيضًا صحيح، فلو أن رجلًا تجرَّأ فأمسك بكوب ماء فشربه وهو يظنه خمرًا؛ فإنه يأثم قطعًا؛ لنيته المعقودة على شُرْبِ الحرام؛ ولأنه تجانف الإثم، وكون الكوب به ماء يُسقِط عنه الحد على أحد القولين عند الفقهاء ولكن عليه الإثم الذي تعمده.

(١٤١) قال الدمياطي في "**إعانة الطالبين**" (٣/٣٣٧):"واعلم أن الشبهة تنقسم ثلاثة أقسام: القسم الأول: شبهة الفاعل، وهي كمن وطئ على ظن الزوجية أو المِلكية، والقسم الثاني: شبهة المحل، وهي كمن وطئ الأمة المشتركة، والقسم الثالث: شبهة الطريق، وهي التي يقول بها عالم يُعتد بخلافه، والأول: لا يتصف بحل ولا حرمة؛ لأن فاعله غافلٌ وهو غير مكلف، والثاني: حرام، والثالث: إن قلد القائل بالحل لا حرمة وإلّا حرم".

(١٤٢) متفق عليه: صحيح البخاري، بدء الوحي، ١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

إذًا هناك فرق بين استحقاق العاصي للإثمِ وبين استحقاقه لإقامة الحد، فمن تَجَرَّأَ على محارمِ الله تعالى؛ استحق الإثم، أمَّا الحد فله شروطٌ وضوابطُ لا بد منها؛ ولذلك اختلف العلماء في وجوب الحد عليه في هذه الحالات وأمثالها على قولين.

ومن أمثلته أيضًا: لو أن رجلًا جامع امرأةً على أنها أجنبيةٌ -اقتحامًا منه لمحارم الله تعالى، وتَعَدِّيًا منه لحدود الشرع الشريف- ثم بَانَ بعد ذلك أن هذه التي جامعها إنما هي زوجته، فهذه شبهة يأثم صاحبها بلا خلاف، أمَّا الحد ففيه قولان، كما في فوائد رحلة ابن الصلاح، نصَّ على ذلك الأَسْنَوِي في "التمهيد".

ثانيًا: شبهة المحل

ومثالها: اللحم الذي يشتريه المسلمُ ليأكُلَهَ، وهو لا يعرف هل ذُبِحَ ذبحًا شرعيًّا أم أنها مخنوقة أو مترديه أو... إلخ. فهذه شبهة محل، والاحتياط فيها واجب.

ثالثًا: شبهة المذهب

ومثالها: مسألة نقض الوضوء بلمس المرأة؛ الشافعية يقولون: إن لمس المرأة -حتى لو كانت زوجة- ينقض الوضوء، والحنفية يقولون: لا يَنقض الوضوء حتى لو كانت أجنبية. إذًا فهذه الشبهة يحتاط الإنسان فيها احتياطًا ليس واجبًا؛ بل مندوبًا.

كيفية التعامل مع الشبهات بأقسامها، وكيف يكون الاحتياط ومواضعه، وكيفية التعامل مع نظرية الاختيار، ومع نظرية تفريق الأحكام.

ب. عَلاقة "تفريق الأحكام" بقضية "تغيير المسلك"

نظرية "تغيير المسلك" لها ارتباط بـ"تفريق الأحكام"، ولكن بطريقةٍ مغايرةٍ للعَلاقة بنظرية الاحتياط، فمثلًا في شبهة المذهب: هل يجوز لرجل أن يتبنَّى رأيًا في مذهبٍ ما، ثم يُغيِّر مسلكه فيتبنى رأيًا آخر في مذهبٍ آخر، ويرتب على ذلك أحكامًا مختلفة؟

وصورةِ ذلك: أن رجلًا تزوج على مذهب أبي حنيفة بلا وليٍّ، ومعلوم أن هذا الزواج باطلٌ عند الشافعية، ثم إن الرجل بعد ذلك طلقها ثلاث طَلَقَات، ثم ذهب إلى أحد العلماء الشافعية، فأفتاه ببطلان هذا العقد من أول الأمر، وبأن هذا نكاح شبهة،

وبأن الطلاق الذي كان منه غير صحيح؛ لأنه وقع على غير محله، ورأى الفقيه الشافعي أن يعقد الزواج من جديد بحضور الولي؛ حتى يكون العقد صحيحًا على مذهب الشافعي، وحتى يتخلص من الطلقات الثلاث.

وهذا أيضًا له عُلْقَة بالقاعدة الفقهية التي تقول: لا ينقض الاجتهادُ الاجتهادَ. وهي قاعدة فقهية واسعة، وقد رُويَ عن سيدنا عمر ﷺ ما يدلُّ عليها، وذلك في قوله: ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي[١٤٣].

فهل يَصِحُّ هذا الذي فعله الفقيه الشافعي؟ وما حكم تغيير المسلك؟ هل هو مناسب أم غير مناسب؟ هل فوائدُه أكثر من مساوئه؟ أم أن العكس هو الصحيح؟

٤- نظرية واجب الوقت واحترام التراث من خلالها

إن مفهوم واجب الوقت هو ذلك المفهوم الذي يجمع لنا الخير كله، الخير في احترام التراث وتقديره وحسن الاستفادة منه، والخير في العمل على الواقع المعاصر والاجتهاد من أجل تقرير الأحكام اللازمة لمسايرة الإنسان في حياته ومعاشه على وفق شريعة الله وهدي رسوله محمد ﷺ.

فالتراث الإسلامي الموروث هو نتاج العقلية الإسلامية على مر عصور وقرون لا يمكن هدره أو نبذه أو التخلي عن الاستفادة منه، فهذا مناف للعقل ومناقض للقاعدة التي تقرر أن المعرفة الإنسانية والمعارف البشرية تراكميَّة، وليس لأمة أن تبدأ رحلة البناء الحضاري من عند أنفسها أو من لحظتها المعيشة دون إدراك واطلاع على كل المعارف الموروثة والمتراكمة للإنسانية على مر العصور، خاصة التراث الخاص بأجدادها، وإن أرادت أمتنا أن تنهض على أكتاف تراث غربي غريب عنها فقط، فإنها أمة إن بنت حضارة ونجحت فإنها تنجح بدون هوية خاصة، وينسب نجاحها إلى الغير.

(١٤٣) أخرجه الدارمي في "سننه": (١٦٢/١)، برقم: (٦٤٥)، وابن أبي شيبة في "مصنفه": (٢٥٥/١١)، برقم: (٣١٧٤٤)، من طريق الحكم بن مسعود، قال: شهدت عمر أشرك الإخوة من الأب والأم مع الإخوة من الأم في الثلث، فقال له رجل: قد قضيت في هذه عام الأول بغير هذا، قال: وكيف قضيت؟ قال: جعلته للإخوة للأم ولم تجعل للإخوة من الأب والأم شيئا، فقال: ذلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي. (واللفظ لابن أبي شيبة)

ومعنى القيام بواجب الوقت أن يقوم المجتهد بالعمل والاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعيَّة من مظانها بما يمكنه أنْ يُسَيِّرَ حياة الإنسان في وقت الاجتهاد، ولا يتَّكل المجتهد أو يتواكل على الاجتهاد السابق الذي وُضِعَ أو صِيغَ في واقع آخر وفي وقت آخر، قد يكون بل في الأغلب تعرَّض هذا الواقع إلى كلِّ التغير من جميع الجهات الأربع التي تتحكم في تغير الحكم والفتوى.

فكل وقت وله واجب الاجتهاد، وكل وقت له طريقة في التعامل معه؛ لأن الزمان يتغير، والأفكار تتغير، والوقائع تتغير، والأماكن تتغير، والعلاقات البينية تتغير، والعالَم لا يقف على موقفٍ واحد، وليس ثابتًا على حال واحدة، ومن أجل هذا التغير المستمر؛ لا بد علينا أن نُغيِّر أيضًا طريقة تعاملنا معه؛ للوصول إلى نفس الأهداف التي كان يريد السلف الصالح أن يصلوا إليها.

واحترام التراث والقيام بواجب الوقت يلزمنا بأن ننظر ونمحِّص التراث فنأخذ منه المناهج والنظريات ونستفيد بها في التعامل مع مسائلنا، ولا نقف عند حدود اجتهادهم في المسائل التي وجدت في عصر سابق.

نأخذ هذه المناهج ونطورها ونزيد عليها ما يلزم للاجتهاد للوقت الجديد ثم نعمل على صياغتها صياغة معاصرة، تسهل الاستفادة منها والعمل بمقتضاها، لنعالج بها المسائل الحديثة؛ لأن هذا هو واجب الوقت الذي يُكَلَّف به العلماء.

ولكن يخطئ من الناس والعوام الذي يذهب إلى كتب التراث فينقل منها نقلًا مباشرًا دون نظر أو تمحيص لاختلاف الزمان والوقت، وهذا نوع من الجهل أو التواكل أو سوء الفهم والاعتقاد.

بمعنى أنه ربما ينقل الناقل معتقدًا عجزه وعجز علماء عصره عن الإتيان والاجتهاد بأحسن ممّا أتى به الأوائل، وأن الاجتهاد السابق هو اجتهاد مقدس لا يجوز تخطيه أو تجوزه أو تطويره أو رفضه وإقرار عدم صلاحيته للوقت المعاصر للاجتهاد الجديد، ومن أراد أن يقف عند مسائل السلف، وأن يُوقف الزمان وأن يتصور أن الدنيا غيرُ متطورة

وغير متغيرة وأنها ثابتة فهو مخطئ كل الخطأ؛ لأنه حينئذ خلط بين المطلق والنسبي وبين المقدس والبشري.

إن الاجتهاد الفقهي جهدٌ بشريٌّ لفهم النصِّ الإلهيّ، فالأول متغير والثاني ثابت، وجلّ ما يحصل من خطأ مصدره وسببه الخلط والمزج بين ذاك وذاك.

فواجب الوقت أن نجتهد مرةً أخرى كما اجتهد سلفنا، والاجتهاد يحتاج إلى معارف وملكات، فهو يحتاج إلى الإلمام باللغة العربية، وتَمَكُّن في معرفة مساحة الاتفاق ومساحة الاختلاف في الاجتهاد؛ لأن المتفق عليه لا يجوز أن نخالفه، والمختلف فيه وهو المساحة الواسعة الكبيرة، هي التي يجوز أن نُخالف فيها ونجتهد، في إطار تحقيق المقاصد الشرعية ومراعاة المآلات وتبليغ دعوة الإسلام للعالمين.

الخاتمة

يجب علينا أن ندرس سيرة رسول الله ﷺ مع سنَّته في نسق واحد، ونحاول أن نستخرج منها مكونات الشخصية المسلمة، سواء من الناحية العقلية أو النفسية، أو من ناحية المناهج التي يلتزمها في تقويمه للمواقف، وإنشائه للعلاقات، وفهمه للأمور، ومواجهته للعالمين، عيشًا ومشاركة وتفاهمًا وتعاونًا وعبادة لله وعمارة للأرض وتزكية للنفس؛ حتى نكون قد اتخذنا النَّبيَّ ﷺ أسوة حسنة، وحتى نحقق التكليف والتشريف في مقام الشهادة على العالمين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البَقَرَة: ٢/١٤٣).

وإن هذه الدراسة تؤدي إلى التمسك بهدي النَّبِيّ ﷺ، وتَقِي من كل انحراف عن منهجه وهديه، بالاجتزاء، أو التأويل الخاطئ، أو التقصير في الفهم، أو القصور في الإدراك، أو الإفراط أو التفريط أو المغالطة في السلوك والتطبيق، أو نحو ذلك من انحرافات الفكر والسلوك.

وقد قرر العلماء الأصوليون قاعدة تقول: "إعمال الكلام أولى من إهماله"(١٤٤).

(١٤٤) نصَّ كثير من الأئمة والعلماء على هذه القاعدة الجليلة؛ نذكر منهم: الإمام التاج السبكي في **"الأشباه والنظائر"** (١/١٧١)، والإمام الإسنوي في **"التمهيد في تخريج الفروع على الأصول"** (ص ٢٣٦)، والإمام الزركشي في **"المنثور في القواعد الفقهية"** (١/١٨٣)، والإمام السيوطي في **"الأشباه والنظائر"** (ص ١٢٨)، ومن المعاصرين الشيخ أحمد محمد الزرقا في **"شرح القواعد الفقهية"** (ص ٣١٥).

ومعنى القاعدة أن استعمال الكلام وإعطاءه حكمًا شرعيًّا أولى من إهماله وتركه وإلغائه؛ وذلك لأن الإعمال يترتب عليه منفعة وفائدة وثمرة بخلاف المهمل من الكلام، فهو كاللغو يخلو من الفائدة، والله تعالى لَمَّا وصف عباده المؤمنين قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ (سورة المُؤمِنُونَ: ٢٣/٣).

والإعراض يعني ترك الالتفات وعدم الاهتمام باللغو؛ لخلوه من الحكمة المفيدة.

والأصل في كلام المكلف أن يُصان عن الإهمال، وأن يُبحث له عن وجه من المعاني الصحيحة كي يُحمل عليه؛ لذا ذكر الفقهاء فروعًا وأمثلة لهذه القاعدة، فمنها:

ما لو أوقف إنسان شيئًا على أولاده ولم يكن له أولاد على قيد الحياة وله أولادُ أولادٍ فيُحمل كلامه عليهم صونًا له من الإهمال(١٤٥).

فإذا كان كلام المكلف يحفظ من الإهمال، فالأولى والأجدر بذلك الحفظ كلام الشارع؛ سواء كلام رب العالمين ﷻ أو كلام نبيه ﷺ، وكذلك ما نحن فيه من بيان السيرة النبويَّة العطرة والأحوال الشريفة؛ فيجب تحقيق الفائدة القصوى منها، وهذا لن يتحقق إِلَّا بإعمال النماذج الأربعة وعدم إهمال شيء منها، وإنما تكون الحكمة في مراعاة العمل بالنموذج المناسب في الحال والظرف المناسب له.

وإن غياب فهم الجماعات المتطرفة لنماذج التعايش جعلهم يستسهلون الأمر فيرمون العالم بالجاهلية ويكفرون المسلمين دفعة واحدة، وينادون في أتباعهم بالعزلة والمفاصلة تحت مسمى الولاء والبراء، ويحلمون بدول إسلامية جديدة تحت إمرتهم، بعد إزالة ما هو واقع من دول إسلامية، بمحاربة أهلها نظمًا وشعوبًا، والقضاء عليهم لكونهم كفرة ومرتدين ومحتكمين لشريعة الطاغوت، ووصلت الجرأة ببعضهم أن زعم أن الإسلام ودولته زالت من الأرض بعد الخلافة الراشدة ولم تعد إِلَّا بتولي أحدهم في العصر الحديث للحكم، وكل هذه أوهام وعصبية.

(١٤٥) انظر: السيوطي: **الأشباه والنظائر**، ص ١٢٨.

إن الإسلام ودولته منذ وضع النَّبِيّ ﷺ وأصحابه أسسها في المدينة وهي قائمة. نعم، تصح وتزدهر حينًا، وتضعف ويخفت بريقها حينًا آخر، ولكنها قائمة كما أخبرنا سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال: "**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**".

وكما أنَّ لكل تطرف تطرفًا موازيًا مقابلًا له؛ فإن دعاة الحداثة والعلمانية ينكرون صلاحية الدين خاصة الإسلام في توجيه الدولة الحديثة أو وضع الأسس والمبادئ والمقاصد لصلاحها وعمرانها.

يرون أن الإسلام والدولة المدنية الحديثة ضدان، لا يجتمعان، وينكرون أن للمسلمين في التاريخ تجربة عظيمة أنشؤوا خلالها حضارة ودولة عظيمة كانت نبراسًا للتقدم والرقي.

الملاحق

رسالة الإمام علي ﷺ إلى الأشتر النخعي

أصدرها الإمام محمد عبده وشرحه مما دل على أهميته وعلاقته بواقعنا ومشاكلنا(١٤٦).

"هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جِبَايَةَ خَرَاجِهَا وَجِهَادَ عَدُوِّهَا وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا.

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ، وَإِيثَارِ طَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ: مِنْ فَرَائِضِهِ وَسُنَنِهِ، الَّتِي لَا يَسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا، وَأَنْ يَنْصُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ؛ فَإِنَّهُ، جَلَّ اسْمُهُ، قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ مَنْ نَصَرَهُ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ.

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ نَفْسَهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ، وَيَزَعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ، فَإِنَّ النَّفْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللهُ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا مَالِكُ، أَنِّي قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُوَلٌ قَبْلَكَ، مِنْ عَدْلٍ وَجَوْرٍ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ الْوُلَاةِ قَبْلَكَ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُه فِيهِم، وإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ.

فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَامْلِكْ هَوَاكَ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أَحَبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ.

(١٤٦) "رسالة سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ إلى الأشتر النخعي": لقد اعتمدت الرسالة في الأمم المتحدة كونها من أوائل الرسائل الحقوقية والتي تحدد الحقوق الواجبات بين الدولة والشعب، وصوّتت غالبية دول العالم على كون عهد علي ابن أبي طالب لمالك بن الأشتر أحد مصادر التشريع للقانون الدولي.

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُم، وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِم سَبُعًا ضَارِيًا تَغْتَنِمُ أَكْلَهُم؛ فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ الزَّلَلُ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَلُ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الَعَمْدِ وَالْخَطَأِ.

فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ، وَوَلِيُّ الأمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ، وَاللهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ! وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُم، وَابْتَلَاكَ بِهِم.

فَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ له، فَإِنَّهْ لَا يَدَ لَكَ بِنِقْمَتِهِ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَلَا تَنْدَمَنَّ عَلَى عَفْوٍ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِعُقُوبَة، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَة وَجَدْتَ مِنْهَا مَنْدُوحَةً، وَلَا تَقُولَنَّ: إِنِّي مُؤَمَّرٌ آمُرُ فَأُطَاعُ، فَإِنَّ ذلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغِيَرِ.

وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُبَّهَةً أَوْ مَخِيلَةً، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ مُلْكِ اللهِ فَوْقَكَ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّ ذلِكَ يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ، وَيَكُفُّ عَنْكَ مَنْ غَرَّ بِكَ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ!

وَإِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللهِ فِي عَظَمَتِهِ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّار، وَيُهِينُ كُلَّ مُخْتَال.

أَنْصِفِ اللهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمْ، وَمَنْ ظَلَمَ عَبدًا للهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ، وَكَانَ للهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزَعَ وَيَتُوبَ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَة عَلَى ظُلْم، فَإِنَّ اللهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَهَدِينَ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ.

وَلْيَكُنْ أَحَبَّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ، وَأَعَمُّهَا فِي الْعَدْلِ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَؤُونَةً فِي الرَّخَاءِ، وَأَقَلَّ مَعُونَةً لَهُ فِي الْبَلَاءِ، وَأَكْرَهَ لِلإِنْصَافِ، وَأَسْأَلَ بِالإِلْحَافِ، وَأَقَلَّ شُكْرًا عِنْدَ الإِعْطَاءِ، وَأَبْطَأَ عُذْرًا عِنْدَ الْمَنْعِ،

وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَّاتِ الدَّهْرِ مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا عَمُودُ الدِّينِ، وَجِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ، الْعَامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ، فَلْيَكُنْ صَفْيُكَ لَهُمْ، وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ.

وَلْيَكُنْ أَبْعَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ، وَأَشْنَأَهُم عِنْدَكَ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ، فإنَّ في النَّاسِ عُيُوبًا الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا، فَلَا تَكْشِفَنَّ عَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ، وَاللهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ يَسْتُرِ اللهُ مِنْكَ ما تُحِبُّ سَتْرَهُ مِنْ رَعِيَّتِكَ.

وأَطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حِقْدٍ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وِتْرٍ، وَتَغَابَ عَنْ كلِّ مَا لَا يَصلحُ لَكَ، وَلَا تَعْجَلَنَّ عَلَى تَصْدِيقِ سَاعٍ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٌّ، وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ.

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ، وَيَعِدُكَ الْفَقْرَ، وَلَا جَبَانًا يُضعِفُكَ عَنِ الأُمُورِ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَهَ بِالْجَوْرِ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ.

إِنَّ شَرَّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلْأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيرًا، وَمَنْ شَرِكَهُمْ فِي الآثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بِطَانَةً، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ أَثَمَةٍ، وَإِخْوَانُ ظَلَمَةٍ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلَفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ آصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَآثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوِنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولئِكَ أَخَفُّ عَلَيْكَ مَؤُونَةً، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقَلُّ لِغَيْرِكَ إِلْفًا، فَاتَّخِذْ أُولئِكَ خَاصَّةً لِخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لْيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وأَقَلَّهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ، وَاقِعًا ذلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ.

وَالْصَقْ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصِّدْقِ، ثُمَّ رُضْهُمْ عَلَى أَلَّا يُطْرُوكَ وَلَا يُبَجِّحُوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الإِطْرَاءِ تُحْدِثُ الزَّهْوَ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ.

وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَة سَوَاء، فَإِنَّ فِي ذلِكَ تَزْهِيدًا لأَهْلِ الإِحْسَانِ فِي الإِحْسَانِ، وَتَدْرِيبًا لأَهْلِ الإِسَاءَةِ عَلَى الإِسَاءَةِ، وَأَلْزِمْ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْعَى إِلَى حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وَتَخْفِيفِ الْمَؤُونَاتِ عَلَيْهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لهُ قِبَلَهُمْ، فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذلِكَ أَمْرٌ يَجتَمِعُ لَكَ بِهِ حُسْنُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بَلاَؤُكَ عِنْدَهُ.

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةً صَالِحَةً عَمِلَتْ بِهَا صُدُورُ هذِهِ الأُمَّةِ، وَاجْتَمَعتْ بِهَا الأُلْفَةُ، وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ، لَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيءٍ مِنْ مَاضِي تِلْكَ السُّنَنِ، فَيَكُونَ الأَجْرُ لِمَنْ سَنَّهَا، وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَهَا.

وَأَكْثِرْ مُدَارَسَةَ العُلَمَاءِ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ، فِي تَثْبِيتِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ بِلَادِكَ، وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا غِنَى بِبَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ: فَمِنْهَا جُنُودُ اللهِ، ومِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ، وَمِنهَا عُمَّالُ الإِنْصَافِ وَالرِّفْقِ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَراجِ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ، وَمِنْهَا التُّجَّارُ وَأَهْلُ الصِّنَاعَاتِ، وَمِنهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكَنَةِ.

وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللهُ سَهْمَهُ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ عَهْدًا مِنْهُ مَحْفُوظًا.

فَالْجُنُودُ، بِإِذْنِ اللهِ، حُصُونُ الرَّعِيَّةِ، وَزَيْنُ الْوُلَاةِ، وعِزُّ الدِّينِ، وَسُبُلُ الأَمْنِ، وَلَيْسَ تَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِم.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِي يَقْوَوْنَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِهِم، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ.

ثُمَّ لَا قِوَامَ لِهذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ إِلَّا بِالصِّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَّالِ وَالْكُتَّابِ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَاقِدِ، وَيَجْمَعُونَ مِنْ الْمَنَافِعِ، وَيُؤْتَمَنُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَوَاصِّ الأُمُورِ وَعَوَامِّهَا.

وَلَا قِوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ، وَيَكْفُونَهُمْ مِنَ التَّرَفُّقِ بِأَيْدِيهِمْ ممّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ.

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكَنَةِ الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ، وَفِي اللهِ لِكُلٍّ سَعَةٌ، وَلِكُلٍّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ.

وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللهُ مِنْ ذلِكَ إِلَّا بِالاهْتِمامِ وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ، وَتَوْطِينِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ، وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ أَوْ ثَقُلَ.

فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلإِمَامِكَ، وَأَنْقَاهُمْ جَيْبًا، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْمًا مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ الْغَضَبِ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ، وَيَنْبُو عَلَى الأَقْوِيَاءِ، وَمِمَّنْ لَا يُثِيرُهُ الْعُنْفُ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ.

ثُمَّ الْصَقْ بِذَوِي الْمُرُوءَاتِ وَالأَحْسَابِ، وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ، ثُمَّ أَهْلِ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّماحَةِ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ، وَشُعَبٌ مِنَ الْعُرْفِ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِهِمَا، وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ قَوَّيْتَهُمْ بِهِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ، فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَذْلِ النَّصِيحَةِ لَكَ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ.

وَلَا تَدَعْ تَفَقُّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمُ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا، فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلِلْجَسِيمِ مَوْقِعًا لَا يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ.

وَلْيَكُنْ آثَرُ رُؤُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مَنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَتِهِ بِمَا يَسَعُهُمْ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَعْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ.

وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ الْوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلَادِ، وَظُهُورُ مَوَدَّةِ الرَّعِيَّةِ، وَإِنَّهُ لَا تَظْهَرُ مَوَدَّتُهُمْ إِلَّا بِسَلَامَةِ صُدُورِهِمْ، وَلَا تَصِحُّ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحَيْطَتِهِمْ عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ، وَقِلَّةِ اسْتِثْقَالِ دُوَلِهِمْ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ.

فَافْسَحْ فِي آمَالِهِمْ، وَوَاصِلْ فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذَوُو الْبَلَاءِ مِنْهُمْ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ أَفْعَالِهِمْ تَهُزُّ الشُّجَاعَ، وَتُحَرِّضُ النَّاكِلَ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى، وَلَا تُضِيفَنَّ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا تُقَصِّرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا، وَلَا ضَعَةُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُصَغِّرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا.

ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الأُمُورُ، وَلَا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ، وَلَا يَتَمَادَى فِي الزَّلَّةِ، وَلَا يَحْصرُ مِنَ الْفَيْءِ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَدْنَى فَهْم دُونَ أَقْصَاهُ، أَوْقَفَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ، وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَقَلَّهُمْ تَبَرُّمًا بِمُرَاجَعَةِ الْخَصْمِ، وَأَصْبَرَهُمْ عَلَى تَكَشُّفِ الأُمُورِ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضَاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لَا يَزْدَهِيهِ إِطْرَاءٌ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَاءٌ، أُولَئِكَ قَلِيلٌ.

ثُمَّ أَكْثِرْ تَعَاهُدَ قَضَائِهِ، وافْسَحْ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيلُ عِلَّتَهُ، وَتَقِلُّ مَعَهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَعْطِهِ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ، لِيَأْمَنَ بِذلِكَ اغْتِيَالَ الرِّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ.

فَانْظُرْ فِي ذلِكَ نَظَرًا بَلِيغًا، فَإِنَّ هذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الأَشْرَارِ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عُمَّالِكَ، فَاسْتَعْمِلْهُمُ اخْتِبَارًا، وَلَا تُوَلِّهِمْ مُحَابَاةً وأَثَرَةً، فَإِنَّهُمَا جِمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ.

وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجْرِبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ، وَالْقَدَمِ فِي الإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا، وَأَقَلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ نَظَرًا.

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ أَوْ ثَلَمُوا أَمَانَتَكَ.

ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ وَالوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدْوَةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِعْمَالِ الأَمَانَةِ، وَالرِّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ.

وَتَحَفَّظْ مِنَ الأَعْوَانِ، فَإِنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَة اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهَمَةِ.

وَتفَقَّدْ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ، فَإِنَّ فِي صلاحِهِ وَصلاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُم، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ، لأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ.

وَلْيَكُنْ نَظَرُكَ فِي عِمَارَةِ الأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظَرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ، لأَنَّ ذلِكَ لَا يُدْرَكُ إِلَّا بَالْعِمَارَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَة أَخْرَبَ الْبِلَادَ، وَأَهْلَكَ الْعِبَادَ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا.

فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً، أَوِ انْقِطَاعَ شِرْب أَوْ بَالَّة، أَوْ إِحَالَةَ أَرْض اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ، أَوْ أَجْحَفَ بِهَا عَطَشٌ، خَفَّفْتَ عَنْهُمْ بما تَرْجُو أَنْ يصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ، وَلَا يَثْقُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفْتَ بِهِ الْمَؤُونَةَ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُ ذُخْرٌ يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْكَ فِي عِمَارَةِ بِلادِكَ، وَتَزْيِينِ وِلَايَتِكَ، مَعَ اسْتِجْلَابِكَ حُسْنَ ثَنَائِهِمْ، وَتَبَجُّحِكَ بِاسْتِفَاضَةِ الْعَدْلِ فِيهِمْ، مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَامِكَ لَهُمْ، وَالثِّقَةَ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ فِي رِفْقِكَ بِهِمْ، فَرُبَّمَا حَدَثَ مِنَ الأُمُورِ مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدُ احْتَمَلُوهُ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ الْعُمْرَانَ مُحْتَمِلٌ مَا حَمَّلْتَهُ، وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا، وإِنَّمَا يُعْوِزُ أَهْلُهَا لإِشْرَافِ أَنْفُسِ الْوُلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ، وَسُوءِ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ، وَقِلَّةِ انْتِفَاعِهِمْ بِالْعِبَرِ.

ثُمَّ انْظُرْ فِي حَالِ كُتَّابِكَ، فَوَلِّ عَلَى أُمُورِكَ خَيْرَهُمْ، وَاخْصُصْ رَسَائِلَكَ الَّتِي تُدْخِلُ فِيهَا مَكَائِدَكَ وأَسْرَارَكَ بِأَجْمَعِهِمْ لِوُجُودِ صَالِحِ الأَخْلَاقِ مِمَّنْ لَا تُبْطِرُهُ الْكَرَامَةُ، فَيَجْتَرِئَ بِهَا عَلَيْكَ فِي خِلَاف لَكَ بِحَضْرَةِ مَلأ، وَلَا تُقَصِّرُ بِهِ الْغَفْلَةُ عَنْ إِيرَادِ مُكَاتَبَاتِ عُمَّالِكَ عَلَيْكَ، وَإِصْدَارِ جَوَابَاتِهَا عَلَى الصَّوابِ عَنْكَ، وَفِيمَا يَأْخُذُ لَكَ وَيُعْطِي مِنْكَ، وَلَا يُضعِفُ عَقْدًا

اعْتَقَدَهُ لَكَ، وَلَا يَعْجزُ عَنْ إِطْلَاقِ مَا عُقِدَ عَلَيْك، وَلَا يَجْهَلُ مَبْلَغَ قَدْرِ نَفسِهِ فِي الأمُورِ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ بِقَدْرِ نَفْسِهِ يَكُونُ بَقَدْرِ غَيْرِهِ أَجْهَلَ.

ثُمَّ لَا يَكُنِ اخْتِيَارُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى فِرَاسَتِكَ وَاسْتِنَامَتِكَ وَحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ، فَإِنَّ الرِّجَالَ يَتَعَرَّفُونَ لِفِرَاسَاتِ الْوُلَاةِ بِتَصَنُّعِهِمْ وَحُسْنِ خِدْمَتِهِمْ، ولَيْسَ وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالأَمَانَةِ شَيْءٌ، وَلكِنِ اخْتَبِرْهُمْ بِمَا وَلُوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ، فَاعْمِدْ لأحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا، وَأَعْرَفِهِمْ بِالأَمَانَةِ وَجْهًا، فَإِنَّ ذلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لله وَلِمَنْ وَلِيت أَمْرَهُ.

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ، لَا يَقْهَرُهُ كَبِيرُهَا، وَلَا يَتَشَتَّتُ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا، وَمَهْمَا كَانَ فِي كُتَّابِكَ مِنْ عَيْب فَتَغَابَيْتَ عَنْه أُلْزِمْتَهُ.

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتُّجَّارِ وَذَوِي الصِّنَاعَاتِ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا: الْمُقِيمِ مِنْهُمْ، وَالْمُضْطَرِبِ بِمَالِهِ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِبَدَنِهِ، فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ، وَجُلَّابُهَا مِنَ الْمَباعِدِ وَالْمَطَارِحِ، فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ، وَحَيْثُ لَا يَلْتَئِمُ النَّاسُ لِمَوَاضِعِهَا، وَلَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَائِقَتُهُ، وَصُلْحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَهُمْ بِحَضْرَتِكَ وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ.

وَاعْلَمْ -مَعَ ذلِكَ- أَنَّ فِي كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضِيقًا فَاحِشًا، وَشُحًّا قَبِيحًا، وَاحْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبِيَاعَاتِ، وَذلِكَ بَابُ مَضَرَّة لِلْعَامَّةِ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوُلَاةِ، فَامْنَعْ مِنَ الاحْتِكَارِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَنَعَ مِنْهُ.

وَلْيَكُنِ الْبَيْعُ بَيْعًا سَمْحًا: بِمَوَازِينِ عَدْل، وَأَسْعَار لَا تُجْحِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ، فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَنَكِّلْ، وَعَاقِبْ فِي غَيْرِ إِسْرَاف.

ثُمَّ اللهَ اللهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسِ وَالزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعًا وَمُعْتَرًّا، وَاحْفَظْ لله مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسمًا مِنْ غَلَّاتِ صَوَافِي الإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَد،

فإِنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَرٌ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لإِحْكَامِكَ الْكَثِيرَ الْمُهِمَّ.

فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ، وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لأُولئِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ، ثُمَّ اعْمَلْ فِيهِمْ بِالأَعْذَارِ إِلَى اللهِ تَعَالَى يَوْمَ تَلْقَاهُ، فَإِنَّ هؤُلَاءِ مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى الإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَكُلٌّ فَأَعْذِرْ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيهِ.

وَتَعَهَّدْ أَهْلَ الْيُتْمِ وَذَوِي الرِّقَّةِ فِي السِّنِّ مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ نَفْسَهُ، وَذلِكَ عَلَى الْوُلَاةِ ثَقِيلٌ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ، وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللهُ عَلَى أَقْوَام طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَوَثِقُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللهِ لَهُمْ.

وَاجْعلْ لِذَوِي الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تُفَرِّغُ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا عَامًّا، فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ للهِ الَّذِي خَلَقَكَ، وَتُقعِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ وَشُرَطِكَ، حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَعْتِع، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ: "**لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ الْقَوِيّ غَيْرَ مُتَعْتِع**".

ثُمَّ احْتَمِلِ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحِّ عَنْكَ الضِّيقَ وَالأَنَفَ؛ يَبْسُطِ اللهُ عَلَيْكَ بِذلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ، وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا، وَامْنَعْ فِي إِجْمَال وَإِعْذَار!

وَلَا تُدْخِلْ عَمَلَ يَومٍ فِي يَومٍ، وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْم عَمَلَهُ، فإِنَّ لِكُلِّ يَوْم مَا فِيهِ، وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ تعالى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الأَقْسَامِ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا للهِ إِذَا صَلَحَتْ فيهَا النِّيَّةُ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ.

وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ للهِ بِهِ دِينَكَ: إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتي هِيَ لَهُ خَاصَّةً، فَأَعْطِ اللهَ مِن بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللهِ سبحانه مِنْ ذلِكَ كَاملًا غَيْرَ مَثْلُوم وَلَا مَنْقُوص، بَالِغًا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ.

وَإِذَا قُمْتَ فِي صلَاتِكَ لِلنَّاسِ، فَلَا تَكُونَنَّ مُنَفِّرًا وَلَا مُضَيِّعًا، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ وَلَهُ الْحَاجَةُ. وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى اليَمنِ كَيْفَ أُصَلِّي بِهِمْ؟

فَقَالَ ﷺ: "**صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ، وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**".

وَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ، فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ، وَقِلَّةُ عِلْم بِالأُمُورِ، وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِندَهُمْ الْكَبِيرُ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ، وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ، وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ، وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ، وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الأُمُورِ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعْرَفُ بِهَا ضُرُوبُ الصِّدْقِ مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا امْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ، فَفِيمَ احْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقٍّ تُعْطِيهِ، أَوْ فِعْلٍ كَرِيمٍ تُسْدِيهِ، أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنعِ، فَمَا أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ إِذَا أَيِسُوا مِنْ بَذْلِكَ! مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ النَّاسِ إِلَيْكَ ما لَا مَؤُونَةَ فِيهِ عَلَيْكَ، مِنْ شَكَاةِ مَظْلِمَة، أَوْ طَلَبِ إِنْصاف فِي مُعَامَلَة.

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي خَاصَّةً وبِطَانَةً، فِيهِمُ اسْتِئْثَارٌ وَتَطَاوُلٌ، وَقِلَّةُ إِنْصَاف فِي مُعَامَلَة، فَاحْسِمْ مَادَّةَ أُولئِكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الأَحْوَالِ، وَلَا تُقْطِعَنَّ لِأحَد مِنْ حَاشِيَتِكَ وَحَامَّتِكَ قَطِيعةً، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي اعْتِقَادِ عُقْدَة، تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ، فِي شِرْب أَوْ عَمَل مُشْتَرَك، يَحْمِلُونَ مَؤُونَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَكُونَ مَهْنَأُ ذلِكَ لَهُمْ دُونَكَ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَأَلْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَكُنْ فِي ذلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَاقِعًا ذلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ خَاصَّتِكَ حَيْثُ وَقَعَ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ، فَإِنَّ مَغَبَّةَ ذلِكَ مَحْمُودَةٌ.

وَإِنْ ظَنَّتِ الرَّعِيَّةُ بِكَ حَيْفًا، فَأَصْحِرْ لَهُمْ بِعُذْرِكَ، وَاعْدِلْ عَنكَ ظُنُونَهُم بِإِصْحَارِكَ، فَإِنَّ فِي ذلِكَ رِيَاضَةً مِنْكَ لِنَفْسِكَ، وَرِفْقًا بِرَعِيَّتِكَ، وَإِعْذَارًا تَبْلُغُ به حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيمِهِمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَلَا تَدْفَعَنَّ صُلْحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ للهِ فِيهِ رِضا، فإِنَّ فِي الصُّلْحِ دَعَةً لِجُنُودِكَ، وَإِرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ، وأَمْنًا لِبِلَادِكَ، وَلَكِنِ الْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكِ بَعْدَ صُلْحِهِ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغفَّلَ، فَخُذْ بِالْحَزْمِ، وَاتَّهِمْ فِي ذلِكَ حُسْنَ النِّيَّةِ.

وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوّ لَكَ عُقْدَةً، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً، فَحُطْ عَهْدَكَ بِالْوَفَاءِ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالأَمَانَةِ، وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أَعْطَيْتَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللهِ شَيْءٌ النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِماعًا، مَعَ تَفْرِيقِ أَهْوَائِهِمْ، وَتَشْتِيتِ آرَائِهِمْ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ، وَقَدْ لَزِمَ ذلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْغَدْرِ، فَلَا تَغْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ، وَلَا تَخْتِلَنَّ عَدُوَّكَ، فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيٌّ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِبَادِ بِرَحْمَتِهِ، وَحَرِيمًا يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جِوَارِهِ، فَلا إِدْغَالَ، وَلَا مُدَالَسَةَ، وَلَا خِدَاعَ فِيهِ، وَلَا تَعْقِدْ عَقْدًا تَجُوزُ فِيهِ الْعِلَلُ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بَعْدَ التَّأْكِيدِ وَالتَّوْثِقَةِ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضِيقُ أَمْرٍ لَزِمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللهِ، إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضِيقٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرٍ تَخَافُ تَبِعَتَهُ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللهِ فِيهِ طَلِبَةٌ، لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ.

وَإِيَّاكَ وَالدِّمَاءَ وَسَفْكَهَا بِغَيْرِ حِلِّهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى لِنِقْمَةٍ، وَلَا أَعْظَمَ لِتَبِعَةٍ، وَلَا أَحْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ، وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَاللهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئٌ بِالْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ، فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُقَوِّيَنَّ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ، فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُضْعِفُهُ وَيُوهِنُهُ، بَلْ يُزِيلُهُ وَيَنْقُلُهُ، وَلَا عُذْرَ لَكَ عِنْدَ اللهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ، وَإِنِ ابْتُلِيتَ بِخَطَإٍ وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ سَيْفُكَ أَوْ يَدُكَ بِعُقُوبَةٍ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَخْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ حَقَّهُمْ.

وَإِيَّاكَ وَالإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا، وَحُبَّ الإِطْرَاءِ، فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرَصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ، لِيَمْحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ، أَوِ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ، أَوْ أَنْ تَعِدَهُمْ فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الإِحْسَانَ، وَالتَّزَيُّدَ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ، وَالْخُلْفَ يُوجِبُ الْمَقْتَ عِنْدَ اللهِ وَالنَّاسِ، قَالَ اللهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصف: ٦١/٣).

وإِيَّـاكَ وَالْعَجَلَـةَ بِالأُمُـورِ قَبْلَ أَوَانِهَا، أَوِ التَّسَـاقُطَ فِيهَا عِنْدَ إِمْكَانِهَـا، أَوِ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذا تَنَكَّرَتْ، أَوِ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ، ضَـعْ كُلَّ أَمْرٍ مَوْضِعَهُ، وَأَوْقِـعْ كُلَّ عَمَلٍ مَوْقِعَهُ.

وَإِيَّاكَ وَالاسْتِئْثَارَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسْوَةٌ، وَالتَّغَابِي عَمَّا تُعْنَى بِهِ مِمَّا قَدْ وَضَـحَ لِلْعُيُونِ، فَإِنَّهُ مَأْخُـوذٌ مِنْـكَ لِغَيْـرِكَ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنْكَشِـفُ عَنْكَ أَغْطِيَـةُ الأُمُورِ، وَيُنْتَصَفُ مِنْـكَ لِلْمَظْلُومِ، امْلِكْ حَمِيَّةَ أَنْفِكَ، وَسَـوْرَةَ حَدِّكَ، وَسَـطْوَةَ يَدِكَ، وَغَرْبَ لِسَـانِكَ، وَاحْتَرِسْ مِنْ كُلِّ ذلِكَ بِكَـفِّ الْبَـادِرَةِ، وَتَأْخِيـرِ السَّـطْوَةِ، حَتَّى يَسْـكُنَ غَضَبُـكَ فَتَمْلِكَ الاخْتِيَارَ، وَلَـنْ تَحْكُمَ ذلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ.

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ: مِنْ حُكُومَة عَادِلَة، أَوْ سُنَّة فَاضِلَة، أَوْ أَثَـرٍ عَـنْ نَبِيِّنَـا ﷺ أَوْ فَرِيضَة فِي كِتَابِ اللهِ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَـاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهِدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هذَا، وَاسْتَوْثَقْتُ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسَرُّعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا.

وَأَنَا أَسْـأَلُ اللهَ بِسَـعَةِ رَحْمَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَة، أَنْ يُوَفِّقَنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيـهِ رِضَـاهُ مِـنَ الإِقَامَـةِ عَلَـى الْعُذْرِ الْوَاضِـحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ، مَـعَ حُسْـنِ الثَّنَاءِ فِـي الْعِبَادِ، وَجَمِيـلِ الأَثَـرِ فِـي الْبِلَادِ، وَتَمَامِ النِّعْمَـةِ، وَتَضْعِيفِ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّـعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ، إِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ"[١٤٧]. أ. هـ

وبيانـه: انظـرْ إلـى المشـترك بينك وبين غيرك، وعلى هذا الأسـاس تقوم ببنـاء المعاملة بينك وبينهم، وهذا يدل على فهمهم العميق للواقـع الذي عاشوه.

فهم قاموا بواجب وقتهم على أتم وجه، كما يجب علينا أن نقوم بواجب وقتنا دون أن نقف على مسائلهم؛ لتغير الواقـع المحيط بنا عن واقعهم، لكن نتمسك بمنهجهم واتساع رؤيتهم وشمولها.

(١٤٧) مقتبس السياسة وسياج الرياسة، كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي، بشرح الإمام محمد عبده، طبع المطبعة الأدبية (١٩١٧م).

فالواقــع بعوالمـه الأربعـة يستلزم منـا أن نتعامـل معه ولا يجـب علينا تغييـره، فعلاقتنا بعالم الأشـياء هي علاقة التناول، وليسـت علاقة الإنشـاء، وقد راعى الشـرع الشريف هذا في تشريعاته فكان هناك دائرة الحرمة وهي دائرة بسيطة محدودة يمكن حصرها، كالخمر والميتة والخنزير والشيء المغصوب، وهكذا.

وكل ما هو خارج هذه الدائرة من عالم الأشياء فهو مباح وحلال(١٤٨).

(١٤٨) المصدر السابق.

خطبة الوداع

مضى رسول الله ﷺ عَلَى حَجِّهِ، فَأَرَى النَّاسَ مَنَاسِكَهُمْ، وَأَعْلَمَهُمْ سُنَنَ حَجِّهِمْ، وَخَطَبَ النَّاسَ خُطْبَتَهُ الَّتِي بَيَّنَ لِلنَّاسِ فِيهَا مَا بَيَّنَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

"أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا، بِهَذَا الْمَوْقِفِ أَبَدًا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ وَقَدْ بَلَّغْتُ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا مَوْضُوعٌ، وَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ قَضَى اللهُ أَنَّهُ لا رِبًا، وَإِنَّ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ، وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ- وَكَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي لَيْثٍ، فَقَتَلَتْهُ بَنُو هُذَيْلٍ- فَهُوَ أَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنْ دِمَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوهُ عَلَى دِينِكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عامًا لِيُواطِؤُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ، وَيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ، وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَإِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوالِيَةٌ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ.

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقًّا، لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، وَعَلَيْهِنَّ أَلَّا يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَإِنَّ اللهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنِ انْتَهَيْنَ فَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، فَاعْقِلُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَاسْمَعُوا قَوْلِي، فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ وَتَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ.

أَيُّهَا النَّاسُ، اسْمَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ، وَاعْقِلُوهُ تَعْلَمُنَّ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخُو الْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَلا تَظْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ!".

قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ". أ. هـ(١٤٩)

وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: "نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ أَدَّاهَا إِلَى مَنْ لَم يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِم قَلْبُ الْمُؤْمِنِ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوَلِيِّ الأَمْرِ وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُم تَكُونُ مِنْ وَرَائِهِ"(١٥٠).

وعَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى نَاقَةٍ حَمْرَاءَ مُخَضْرَمَةٍ فَقَالَ: "أَلَا وَإِنِّي فَرَطُكُم عَلَى الْحَوْضِ أَنْظُرُكُم وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، أَلَا وَقَدْ رَأَيْتُمُونِي وَسَمِعْتُم مِنِّي وَسَتُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، أَلَا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ رِجَالًا أَوْ إِنَاثًا وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي آخَرُونَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"(١٥١).

(١٤٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩٣/٢.
(١٥٠) مسند الإمام أحمد، ٣٠١/٢٧.
(١٥١) المصدر السابق، ٤٨٢/٣٨.

وقال النَّبيّ ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير: "اتَّقُوا اللهَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، فَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "النَّاسُ في الإِسْلامِ سَواءٌ، النَّاسُ طَفُّ الصَّاعِ[١٥٢] لآدمَ وَحَوَّاءَ".

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا إِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، أَلَا لَا فَضْلَ لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَلَا قَدْ بَلَّغْتُ؟"

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: "لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ!".

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "لَا تَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُم، وَأْتونِي بِأَعمَالِكُم، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟"

قَالُوا: نَعَمْ.![١٥٣].

قَالَ ﷺ: "يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَا تَجِيئُوا بِالدُّنْيَا تَحْمِلُونَهَا عَلَى رِقَابِكُمْ وَتَجِيءُ النَّاسُ بِالْآخِرَةِ، فَإِنِّي لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا"[١٥٤].

ثُمَّ قَالَ ﷺ: "فَأُوصِيكُم بِمَن مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم، فَأَطعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُون، وَأَلبِسُوهُم مِمَّا تَلبسُون، وإِنْ أَذْنَبُوا فَكِلُوا عُقوبَاتِهِم إِلى شِرَارِكُم، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟"

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ اشْهَدْ".

وعَنْ جَرِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: "اسْتَنْصِتِ النَّاسَ، لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْضٍ"[١٥٥].

(١٥٢) طَفُّ الصَّاع: أي كلكم متساوون في النسبة إلى أب واحد متقاربون كتقارب ما في الصاع أو تساويه للصاع.
(١٥٣) انظر: تاريخ اليعقوبي، ص ١٤٨؛ أبو نعيم: حلية الأولياء، ٣/١٠٠.
(١٥٤) رواه الطبراني في الكبير بأسانيد (١٢/١٨)؛ الهيثمي: مجمع الزوائد، ٣/٢٧٢.
(١٥٥) صحيح البخاري، العلم، ٤٣.

خطبة الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ
عند توليه الخلافة

عَنْ عَاصِمِ بْنِ عَدِيّ، قَالَ: "نَادَى مُنَادِي أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِ الْغَدِ مِنْ مُتَوَفَّى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُتَمَّ بَعْثُ أُسَامَةَ: أَلا لا يَبْقَيَنَّ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ مِن جُنْدِ أُسَامَةَ إِلَّا خَرَجَ إِلَى عَسْكَرِهِ بِالْجُرْفِ، وَقَامَ فِي النَّاسِ فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا مِثْلُكُمْ، وَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلَّكُمْ سَتُكَلِّفُونَنِي مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُطِيقُ، إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى الْعَالَمِينَ وَعَصَمَهُ مِنَ الآفَاتِ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَتَابِعُونِي، وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُبِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةِ سَوْطٍ فَمَا دُونَهَا، أَلَا وَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي، فَإِذَا أَتَانِي فَاجْتَنِبُونِي لا أُؤْثِرُ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ، وَأَنْتُمْ تَغْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غُيِّبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا يَمْضِيَ هَذَا الأَجَلُ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ، فَسَابِقُوا فِي مَهَلِ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْلِمَكُمْ آجَالُكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ وَجَعَلُوا أَعْمَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ، الْجِدَّ الْجِدَّ، وَالْوَحَا الْوَحَا، وَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَثِيثًا أَجَلًا مَرُّهُ سَرِيعٌ.

احْذَرُوا الْمَوْتَ وَاعْتَبِرُوا بِالآبَاءِ وَالأَبْنَاءِ وَالإِخْوَانِ، وَلا تَغْبِطُوا الأَحْيَاءَ إِلا بِمَا تَغْبِطُونَ بِهِ الأَمْوَاتِ".

وَقَامَ أَيْضًا فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

"إِنَّ اللهَ ﷻ لا يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إلا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهَهُ، فَأَرِيدُوا اللهَ بِأَعْمَالِكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا أَخْلَصْتُمْ للهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَطَاعَةٌ أَتَيْتُمُوهَا، وَخَطَأٌ ظَفِرْتُمْ بِهِ، وَضَرَائِبُ أَدَّيْتُمُوهَا وَسَلَفٌ قَدَّمْتُمُوهُ مِنْ أَيَّامٍ فَانِيَةٍ لأُخْرَى بَاقِيَةٍ، لِحِينِ فَقْرِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ، اعْتَبِرُوا عِبَادَ اللهِ بِمَنْ مَاتَ مِنْكُمْ وَتَفَكَّرُوا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَيْنَ كَانُوا أَمْس وَأَيْنَ هُمُ الْيَوْمَ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ وَأَيْنَ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ ذِكْرُ الْقِتَالِ وَالْغَلَبَةُ فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ؟

قَدْ تَضَعْضَعَ بِهِمُ الدَّهْرُ وَصَارُوا رَمِيمًا، قَدْ تُرِكَتْ عَلَيْهِمِ الْقَالاتُ، الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ.

وَأَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ أَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَّرُوهَا؟

قَدْ بُعِدُوا وَنُسِيَ ذِكْرُهُمْ وَصَارُوا كَلَا شَيْءَ، أَلا إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِمُ التَّبِعَاتِ وَقَطَعَ عَنْهُمُ الشَّهَوَاتِ، وَمَضَوْا وَالأَعْمَالُ أَعْمَالُهُمْ، وَالدُّنْيَا دُنْيَا غَيْرِهِم، وَبَقِينَا خَلَفًا بَعْدَهُم، فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ؛ نَجَوْنَا، وَإِنِ اغْتَرَرْنَا؛ كُنَّا مِثْلَهُمْ.

أَيْنَ الْوُضَّاءُ الْحَسَنَةُ وُجُوهُهُمْ الْمُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ؟

صَارُوا تُرَابًا وَصَارَ مَا فَرَّطُوا فِيهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ.

أَيْنَ الَّذِينَ بَنَوُا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ وَجَعَلُوا فِيهَا الأَعَاجِيبَ؟

قَدْ تَرَكُوهَا لِمَنْ خَلْفَهُمْ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ خَاوِيَةٌ، وَهُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْقُبُورِ، هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟

أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ أَبْنَائِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ؟ قَدِ انْتَهَتْ بِهِمْ آجَالُهُمْ فَوَرَدُوا عَلَى مَا قَدَّمُوا فَحَلُّوا عَلَيْهِ، وَأَقَامُوا لِلشَّقْوَةِ وَالسَّعَادَةِ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، أَلَا إِنَّ اللهَ لا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سَبَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ خَيْرًا، وَلا يَصْرِفُ عَنْهُ بِهِ سُوءًا إلا بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَبِيدٌ مَدِينُونَ، وَأَنَّ مَا عِنْدَهُ لا يُدْرَكُ إِلا بِطَاعَتِهِ، أَمَا أَنَّهُ لا خَيْرَ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ، وَلا شَرَّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ".

وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ حَتَّى أَتَاهُمْ فَأَشْخَصَهُمْ وَشَيَّعَهُمْ، وَهُوَ مَاشٍ وَأُسَامَةُ رَاكِبٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ يَقُودُ دَابَّةَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ.

فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ ﷺ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ واللهِ لَتَرْكَبَنَّ أَوْ لأَنْزِلَنَّ، فَقَالَ: وَاللهِ لا تَنْزِلُ، وَوَاللهِ لا أَرْكَبُ، وَمَا عَلِيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ سَاعَةً فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنْ لِلْغَازِي بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا سَبْعُمِائَةِ حَسَنَةٍ تُكْتَبُ لَهُ، وَسَبْعُمِائَةِ دَرَجَةٍ تُرْفَعُ لَهُ، وَتُمْحَى عَنْهُ سَبْعُمِائَةِ خَطِيئَةٍ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى قَالَ: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعِينَنِي بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَافْعَلْ، فَأَذِنَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ:

"يَأَيُّهَا النَّاسُ، قِفُوا أُوصِيكُمْ بِعَشْرٍ فَاحْفَظُوهَا عَنِّي: لا تَخُونُوا، وَلا تَغْلُوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تُمَثِّلُوا، وَلا تَقْتُلُوا طِفْلًا صَغِيرًا، وَلا شَيْخًا كَبِيرًا، وَلا امْرَأَةً، وَلا تَعْقِرُوا نَخْلًا، وَلا تَحْرِقُوهُ، وَلا تَقْطَعُوا شَجَرَةً مُثْمِرَةً، وَلا تَذْبَحُوا شَاةً وَلا بَقَرَةً وَلا بَعِيرًا إلا لِمَأْكَلَةٍ، وَسَوْفَ تَمُرُّونَ بِأَقْوَامٍ قَدْ فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّوَامِعِ، فَدَعُوهُمْ وَمَا فَرَّغُوا أَنْفُسَهُمْ له، وَسَوْفَ تَقْدَمُونَ عَلَى أَقْوَامٍ يَأْتُونَكُمْ بِآنِيَةٍ فِيهَا أَلْوَانُ الطَّعَامِ، فَإِذَا أَكَلْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا، وتَلْقَوْنَ أَقْوَامًا قَدْ فَحَصُوا أَوْسَاطَ رُؤوسِهِم وتَرَكُوا حَوْلَهَا مِثْلَ الْعَصَائِبِ، فَاخْفِقُوهُمْ بِالسَّيْفِ خَفْقًا، انْدَفِعُوا بِسْمِ اللهِ، أَفْنَاكُمُ اللهُ بِالطَّعْنِ وَالطَّاعُونِ"(١٥٦).

وحدثنا أنس بن مالك ﷺ، قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة؛ وكان الغد، جلس أبو بكر على المنبر، ثُمَّ تكَلَّمَ بعد عمر ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي؛ وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، لَا يَدَعُ أَحَدُ مِنْكُم الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدَعُهُ قَوْمٌ إِلَّا ضَرَبَهُمْ اللهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّهُم اللهُ بِالْبَلَاءِ؛ أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ(١٥٧).

(١٥٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٢٧/٢ - ١٢٨.
(١٥٧) المصدر السابق، ١٢٠/٢.

خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ
عند توليه الخلافة

صَعِدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ الْمِنْبَرَ فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي شَدِيدٌ فَلَيِّنِّي، وَإِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، وَإِنِّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي.

وروي أن أول خطبة كانت قوله:

"إِنَّ اللهَ ابْتَلانِي بِكُم وَابْتَلاكُمْ بِي، وَأَبْقَانِي فِيكُمْ بَعْدَ صَاحِبَيّ، فَوَاللهِ لا يَحْضُرُنِي شَيْءٌ مِنْ أَمْرِكُمْ فَيَلِيهِ أَحَدٌ دُونِي، وَلا يَغِيبُ عَنِّي فَآلُو فِيهِ عَنْ أَهْلِ الْجُزْءِ -يعني الكفاية- وَالأَمَانَةِ، وَاللهِ لَئِنْ أَحْسَنُوا لأُحْسِنَنَّ إِلَيْهِمْ، وَلَئِنْ أَسَاؤُوا لأُنْكِلَنَّ بِهِمْ".

فقال من شهد خطبته ورواها عنه: فَوَاللهِ مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا.

وروي أنه لَمَّا وَلِيَ صَعِدَ الْمِنْبَرَ وهمّ أن يجلس مكانَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: مَا كَانَ اللهُ ﷻ لِيَرَانِي أَنْ أَرَى نَفْسِي أَهْلًا لِمَجْلِسِ أَبِي بَكْرٍ.

فَنَزَلَ مِرْقَاةً، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ تُعْرَفُوا بِهِ، وَاعْمَلُوا بِهِ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِهِ، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ عَلَى اللهِ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ، إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ حَقُّ ذِي حَقٍّ أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، أَلا وَإِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللهِ بِمَنْزِلَةِ وَلِيِّ الْيَتِيمِ، إِنِ اسْتَغْنَيْتُ عَفِفْتُ، وَإِنِ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ.

وفي رواية أخرى أنه بعد يومين من استخلافه تحدث الناس فيما كانوا يخافون من شدته، وبطشه، وأدرك عمر ﷺ أنه لا بد من تجلية الأمر بنفسه، فصعد المنبر وخطبهم فذكر بعض شأنه مع النَّبِيّ وخليفته، وكيف أنهما توفّيا وهما عنه راضيان، ثم قال:...

ثم إني قد وليت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، وَلَسْتُ أَدَعُ أَحَدًا يَظْلِمَ أَحَدًا أَوْ يَعْتَدِي عَلَيْهِ حَتَّى أَضَعَ خَدَّهُ عَلَى الأَرْضِ، وَأَضَعَ قَدَمِي عَلَى الْخَدِّ الآخَرِ حَتَّى يُذْعِنَ لِلْحَقِّ، وَإِنِّي بَعدَ شِدَّتِي تِلكَ، أَضَعُ خَدِّي على الأَرضِ لأَهلِ العَفَافِ وأَهلِ الكَفَافِ.

وَلَكُمْ عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ خِصَالٌ أَذْكُرُهَا لَكُمْ فَخُذُونِي بِهَا: لَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لا أَجْتَبِي شَيْئًا مِنْ خَرَاجِكُمْ وَلا مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكُمْ إلا مِنْ وَجْهِهِ، وَلَكُمْ عَلَيَّ إِذَا وَقَعَ فِي يَدِي أَنْ لا يَخْرُجَ مِنِّي إلا فِي حَقِّهِ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ أَزِيدَ أُعْطِيَاتِكُمْ وَأَرْزَاقَكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ وَأَسُدَّ ثُغُورَكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ أَنْ لا أُلْقِيكُمْ فِي الْمَهَالِكِ، وَلا أُجَمِّرَكُمْ -أبقيكم مدة طويلة- فِي ثُغُورِكُمْ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم، فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ وَأَعِينُونِي عَلَى أَنفُسِكُمْ بِكَفِّهَا عنِّي، وَأَعِينُونِي عَلَى نَفْسِي بِالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِحْضَارِ النَّصِيحَةِ فِيمَا وَلَّانِي اللهُ من أمركم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وجاء في رواية:

إِنَّمَا مثل العرب مِثْلُ جَمَلٍ أَنِفٍ اتَّبَعَ قَائِدَهُ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ حَيْثُ يَقُودُهُ ، أَمَّا أَنَا فَوَرَبِّ الْكَعْبَةِ لأَحْمِلَنَّهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ(١٥٨).

(١٥٨) المتقي الهندي: كنز العمال، ٥/٦٨٣.

خطبة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ عند توليه الخلافة

إِنَّـهُ لَمَّا بَايَـعَ أَهْـلُ الشُّـورَى عُثْمَانَ؛ خَرَجَ وَهُوَ أَشَـدُّهُمْ كَآبَةً، فَأَتَى مِنْبَرَ رَسُـولِ اللهِ ﷺ، فَخَطَبَ النَّاسَ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ:

إِنَّكُمْ فِي دَارِ قُلعَةٍ، وَفِي بَقِيَّةِ أَعْمَارٍ، فَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِخَيْرِ مَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، فَلَقَدْ أُتِيتُـمْ صُبِّحْتُـمْ أَوْ مُسِّيتُمْ، أَلا وَإِنَّ الدُّنْيَا طُوِيَـتْ عَلَى الْغَرُورِ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ.

اعْتَبِـرُوا بِمَـنْ مَضَـى، ثُـمَّ جِـدُّوا، وَلا تَغْفَلُوا فَإِنَّـهُ لا يُغْفَلُ عَنْكُمْ، أَيْـنَ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَإِخْوَانُهَا، الَّذِينَ أَثَارُوهَا وَعَمَّرُوهَا، وَمُتِّعُوا بِهَا طَوِيلًا!؟ أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ!؟.

ارْمُـوا بِالدُّنْيَـا حَيْـثُ رَمَـى اللهُ بِهَـا، وَاطْلُبُوا الآخِرَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ ضَـرَبَ لَهَا مَثَلًا؛ والَّـذِي هُـوَ خَيْـرٌ، فَقَالَ ﷻ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۞ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

(سورة الكهف: ١٨/٤٥-٤٦).

وَأَقْبَلَ النَّاسُ يُبَايِعُونَهُ.

وكان أوّل كتاب كتبه عثمان ﷺ إلى عمّاله:

أَمَّا بَعْـدُ، فَـإِنَّ اللهَ أَمَـرَ الأَئِمَّةَ أَنْ يَكُونُوا رُعَـاةً، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِـمْ أَنْ يَكُونُوا جُبَاةً، وَإِنَّ صَدْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ خُلِقُوا رُعَاةً، لَمْ يُخْلَقُوا جُبَاةً، وَلَيُوشِكَنَّ أَئِمَّتُكُمْ أَنْ يَصِيرُوا جُبَـاةً وَلا يَكُونُـوا رُعَـاةً، فَـإِذَا عَـادُوا كَذَلِـكَ انْقَطَـعَ الْحَيَـاءُ، وَالأَمَانَـةُ، وَالْوَفَـاءُ،

أَلا وَإِنَّ أَعْـدَلَ السِّـيرَةِ أَنْ تَنْظُـرُوا فِـي أُمُورِ الْمُسْـلِمِينَ، فِيمَا عَلَيْهِـمْ فَتُعْطُوهُمْ مَا لَهُـمْ، وَتَأْخُذُوهُـمْ بِمَـا عَلَيْهِـمْ، ثُمَّ تُثْنُوا بِالذِّمَّـةِ فَتُعْطُوهُمُ الَّذِي لَهُـمْ، وَتَأْخُذُوهُمْ بِالَّذِي عَلَيْهِمْ ثُمَّ الْعَدُوَّ الَّذِي تَنْتَابُونَ، فَاسْتَفْتِحُوا عَلَيْهِمْ بِالْوَفَاءِ.

قَالُوا: وَكَانَ أَوَّلَ كِتَابٍ كَتَبَهُ عثمان بن عفان ﷺ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ فِي الْفُرُوجِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّكُمْ حُمَاةُ الْمُسْـلِمِينَ وَذَادَتُهُمْ، وَقَدْ وَضَـعَ لَكُمْ عُمَرُ مَا لَمْ يَغِبْ عَنَّا، بَـلْ كَانَ عَـنْ مِـلاءٍ مِنَّـا، وَلا يَبْلُغَنِي عَـنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ تَغْيِيرٌ وَلا تَبْدِيـلٌ، فَيُغَيِّرَ اللهُ مَا بِكُـمْ، ويَسْتَبْدِلَ بِكُـمْ غَيْرَكُمْ، فَانْظُـرُوا كَيْفَ تَكُونُونَ، فَإِنِّي أَنْظُـرُ فِيمَا أَلْزَمَنِي اللهُ النَّظَرَ فِيهِ، وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ.

قَالُوا: وَكَانَ أَوَّلَ كِتَابٍ كَتَبَهُ إِلَى عُمَّالِ الْخَرَاجِ:

أَمَّـا بَعْـدُ، فَـإِنَّ اللهَ خَلَـقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ، فَـلا يَقْبَلُ إِلا الْحَقَّ، خُـذُوا الْحَقَّ وَأَعْطُوا الْحَـقَّ بِـهِ، وَالأَمَانَـةَ الأَمَانَـةَ قُومُـوا عَلَيْهَـا، وَلا تَكُونُـوا أَوَّلَ مَنْ يَسْـلُبُهَا، فَتَكُونُوا شُرَكَاءَ مَنْ بَعْدَكُمْ إِلَى مَا اكْتَسَبْتُمْ، وَالْوَفَاءَ الْوَفَاءَ، لا تَظْلِمُوا الْيَتِيمَ، وَلا الْمُعَاهَدَ، فَإِنَّ اللهَ خَصْمٌ لِمَنْ ظَلَمَهُمْ.

قَالُوا: وَكَانَ كِتَابُهُ ﷺ إِلَى الْعَامَّةِ:

أَمَّـا بَعْـدُ، فَإِنَّكُـمْ إِنَّمَـا بَلَغْتُـمْ مَا بَلَغْتُـمْ بِالاقْتِدَاءِ وَالاتِّبَـاعِ، فَلا تَلْفِتَنَّكُـمُ الدُّنْيَا عَنْ أَمْرِكُـمْ، فَـإِنَّ أَمْـرَ هَذِهِ الأُمَّةِ صَائِرٌ إِلَى الابْتِدَاعِ، بَعْـدَ اجْتِمَاعِ ثَلاثٍ فِيكُمْ: تَكَامُلُ النِّعَمِ، وَبُلُوغُ أَوْلادِكُمْ مِنَ السَّبَايَا، وَقِرَاءَةُ الأَعْرَابِ وَالأَعَاجِمِ الْقُرْآنَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: "**الْكُفْرُ فِي الْعُجْمَةِ، فَإِذَا اسْتُعْجِمَ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ تَكَلَّفُوا وَابْتَدَعُوا**"(١٥٩).

عَنْ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: خَطَبَ عُثْمَانُ ﷺ النَّاسَ بَعْدَ مَا بُويِـعَ، فَقَالَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ حُمِّلْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلَا وَإِنِّي مُتَّبِـعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللهِ ﷻ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ثَلاثًا: اتِّبَاعُ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ

(١٥٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٤٢٨/٢.

وَسَـنَنْتُمْ، وَسَـنُّ سُـنَّةَ أَهْـلِ الْخَيْـرِ فِيمَا لَمْ تَسِـنُّوا عَنْ مَلأٍ، وَالْكَفُّ عَنْكُـمْ إِلَّا فِيمَا اسْـتَوْجَبْتُمْ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ، قَدْ شُـهِّيَتْ إِلَى النَّاسِ، وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَلا تَرْكَنُـوا إِلَـى الدُّنْيَـا، وَلا تَثِقُوا بِهَا فَإِنَّهَا لَيْسَـتْ بِثِقَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَـا غَيْرُ تَارِكَةٍ، إِلا مَنْ تَرَكَهَا(١٦٠).

(١٦٠) المصدر السابق، ٣/٩.

خطبة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ
عند توليه الخلافة

قَالَ الإمام علي ﷺ:

إنَّ اللهَ ﷻ أنزل كتابًا هاديًا، بيَّن فِيهِ الخيرَ والشرَّ، فَخُذُوا بالخيرِ، ودعوا الشَرَّ.

الفرائض أَدُّوها إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ، يُؤَدِّكُمْ إِلَى الجنَّةِ.

إنَّ الله حرَّم حرمًا غير مجهولةٍ، وفضَّل حرمة المسلم عَلَى الحرم كلِّها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد الْمُسْلِمِينَ.

والمسلم من سلم النَّاس من لسانه ويده إلَّا بالحق، لا يحِلُّ أذى المسلم إلَّا بِمَا يجب.

بادروا أمر العامة، وخاصَّة أحدكم الموت، فإنّ الناس أمامكم، وإنَّ مَا من خلفكم الساعة تحدوكم، تخفَّفوا تلحقوا، فإنما ينتظر الناس أخراهم، اتقوا الله عباده فِي عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حَتَّى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ﷻ وَلا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا بِهِ، وإذا رأيتم الشر فدعوه وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ(١٦١).

(١٦١) المصدر السابق، ١٦/٣.

المصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **معرفة الصحابة**؛ تحقيق: عادل بن يوسف العزازي؛ دار الوطن للنشر، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

ـــــــــ، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ دار السعادة، مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)؛ **فتح الباري**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-١٣، (١٣٧٩هـ).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن سيد الناس، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، اليعمري الربعي، أبو الفتح، فتح الدين (ت: ٧٣٤هـ)؛ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**؛ تعليق: إبراهيم محمد رمضان؛ دار القلم، بيروت، ١-٢، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: إحسان عباس؛ دار صادر، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٩٦٨م).

ابـن عاشـور، محمـد الطاهـر بـن محمد بـن محمد الطاهـر بن عاشـور التونسـي (ت: ١٣٩٣هـ)؛ **التحرير والتنوير** (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)؛ الدار التونسية للنشر، تونس، ١-٣٠، (١٩٨٤م).

ابـن قيـم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سـعد شـمس الديـن (ت: ٧٥١هـ)؛ **زاد المعاد في هدي خير العباد**؛ مؤسسـة الرسـالة، بيروت، مكتبة المنار الإسـلامية، الكويت، ١-٥، ط ٢٧، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون؛ مؤسسة الرسالة، ١-٤٥، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

______، **فضائـل الصحابـة**؛ تحقيـق: د. وصي الله محمد عباس؛ مؤسسـة الرسـالة، بيروت، ط ١، ١- ٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

بـدر الديـن العينـي، أبـو محمـد محمـود بـن أحمد بن موسى بن أحمـد بن حسين الحنفي (ت: ٨٥٥هـ)؛ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٢٥.

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسـى الخُسْـرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **السـنن الكبـرى**؛ تحقيـق: محمد عبد القادر عطـا؛ دار الكتـب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

______، **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

______، **دلائـل النبـوة**؛ تحقيـق: الدكتـور عبـد المعطـي قلعجـي؛ دار الكتـب العلميـة-دار الريان للتراث، ١-٧، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

______، **معرفة السـنن والآثار**؛ تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي؛ جامعة الدراسـات الإسـلامية (كراتشي/باكسـتان)، دار قتيبـة (دمشـق -بيـروت)، دار الوعـي (حلب/دمشـق)، دار الوفاء (المنصورة/القاهرة)، ١-١٥، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).

البَلَاذُري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت: ٢٧٩هـ)؛ **أنساب الأشراف**؛ تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي؛ دار الفكر، بيروت، ١-١٣، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

البخـاري، محمـد بـن إسـماعيل أبـو عبـد الله البخـاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيـح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

البغـدادي، أبـو بكـر أحمـد بن علي بن ثابت بـن أحمد بن مهدي الخطيـب (ت: ٤٦٣هـ)؛ **تاريخ بغـداد**؛ تحقيـق: الدكتور بشـار عـواد معروف؛ دار الغرب الإسـلامي، بيروت، ١-١٦، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت: ٢٥٥هـ)؛ **مسند الدارمي** (سنن الدارمي)؛ تحقيق: حسين سليم أسد الداراني؛ دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ١-٤، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

الدمياطي، أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي (ت: ١٣١٠هـ)؛ **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين** (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين)؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١-٤، ط ١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨هـ)؛ **أسباب نزول القرآن**؛ تحقيق: كمال بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، بيروت، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (ت: ٢٠٧هـ)؛ **المغازي**؛ تحقيق: مارسدن جونس؛ دار الأعلمي، بيروت، ١-٣، ط ٢، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

وهبة بن مصطفى الزحيلي، (ت: ٢٠١٥م)؛ **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**؛ دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١-٣٠، (١٤١٨هـ).

الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (ت: ٧٩٤هـ)؛ **البرهان في علوم القرآن**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ١-٤، ط ١، (١٣٧٦هـ/١٩٥٧م).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **تاريخ الطبري** (تاريخ الرسل والملوك)؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٣٨٧هـ/١٩٥٨م).

ـــــــ، **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

المباركفوري، صفي الرحمن (ت: ١٤٢٧هـ)؛ **الرحيق المختوم**؛ دار الهلال، بيروت، ١، ط ١.

محمد (أو عبد الله) بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن حسن الأنصاري، أبو عبد الله، جمال الدين ابن حديدة (ت: ٧٨٣هـ)؛ **المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي**؛ تحقيق: محمد عظيم الدين؛ عالم الكتب، بيروت، ١-٢.

محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)؛ **تفسير القرآن الحكيم** (تفسير المنار)؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١-١٢، (١٩٩٠م).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**؛ دار الكتب العلمية بيروت/لبنان، ١-٦، بيروت، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي (ت: ٩٧٥هـ)؛ **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**؛ تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٦، ط ٥، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)؛ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-١٨، ط ٢، (١٣٩٢هـ).

نور الدين الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (ت: ١٠٤٤هـ)؛ **السيرة الحلبية** (إنسان العيون) في سيرة الأمين المأمون؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٣، ط ٢، (١٤٢٧هـ).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت: ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥)؛ دار السلام، الرياض.

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت: ٥٨١هـ)؛ **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**؛ تحقيق: عمر عبد السلام السلامي؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٧، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ **الخصائص الكبرى**؛ تحقيق: علي محمد البجاوي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٢، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ـــــــ، **الإتقان في علوم القرآن**؛ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١- ٤، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

ـــــــ، **الأشباه والنظائر**؛ دار الكتب العلمية، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)؛ **المبسوط**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٣٠، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

ـــــــ، **شرح السير الكبير**؛ الشركة الشرقية للإعلانات، ١-٥، (١٩٧١م).

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)؛ **مفاتيح الغيب**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٣٢، ط ٣، (١٤٢٠هـ).

صبحي الصالح؛ **مباحث في علوم القرآن**؛ دار العلم للملايين، ط ٢٤، (٢٠٠٠م).

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ)؛ **الجامع لأحكام القرآن**؛ تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش؛ دار الكتب المصرية، القاهرة، ١-١٠، ط ٢، (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م).

الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (ت: ٢٠٤هـ)؛ **الأم**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **جامع الترمذي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

التعايش مع الآخر
في ضوء السيرة النبوية
الأسس والمقاصد

يتعامل المسلم مع غيره من غير المسلمين -سواء من أهل الكتاب من اليهود أو النصارى، أو من المشركين والكفار والملحدين وغيرهم- حسب مبادئ وأسس وقواعد وضعها له منهج الإسلام؛ مأخوذة من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والأصل في علاقات المسلمين بغيرهم هو السلم والمسامحة، ولا يغيّر العلاقة السلمية إلا ما يطرأ عليها من اعتداء غير المسلمين على نحو مباشر أو غير مباشر على حرية الدعوة، أو على أحد المسلمين فوق أي شبر من الوطن الإسلامي. أما علاقة المسامحة فثابتة تحت أي ظرف من الظروف، وهي ترتكز على عدم إكراه غير المسلمين على اعتناق الإسلام بأي وجه من الوجوه، مع وجوب عرضه عليهم دعوة وتبليغًا، وتمكينهم من ممارسة تعاليم دينهم، وعدم سب ما يعبدون على أن لا يمسوا بالشعور العام.

كما يلتزم المسلمون في علاقاتهم الإنسانية بغيرهم بالمبادئ الخلقية الثابتة الواضحة، وأهمها التكريم، والرحمة، والمحبة، والعدل، والمساواة، والمعاملة بالمثل، والتمسك بالفضيلة، والحرية، والتسامح، والتعاون، والوفاء.

ويوجب الإسلام على المسلمين تقديم ما يدعم حسن المعاملة والمعايشة مع غيرهم من الصلة والعطاء المالي والمعنوي، كما يرغبهم في قبول هداياهم من الأشياء المباحة، وجواز الاستعانة بهم فيما يعود بالنفع على الطرفين، خاصة أهل الكتاب لقربهم من الأسس الإيمانية الصحيحة، وبالتالي إلى قلوب المسلمين.

وفي هذا الكتاب، يتحدث أ. د. علي جمعة عن قواعد وأسس التعايش مع الآخر في جميع الأحوال والأزمان والأماكن؛ بحيث يصبح المسلمون في تناسق واندماج مع العالم الذي يعيشون فيه؛ بما يضمن تفاعلهم مع الآخر، وتواصلهم معه دون تفريط في الثوابت الإسلامية.

ISBN 978-977-6631-84-7

9 789776 631847

بروج
BURUJ BOOKS